ازدواجية اللغة العربية وكيفية الخروج منها

د . جعفر دك الباب

القى المستشرق الالماني الدكتور غروتسفيلد بتاريخ ٢٤ آذار ١٩٨٠ في كلية الآداب بجامعة دمشق محاضرة بعنوان « ازدواج اللغة العربية من وجهة نظر عالم الماني للغات » . ذكر المستشرق ان الاستعمار لم يخترع الازدواج اللغوي الموجود الآن عند العرب وكان يرد بذلك على من يقول : ان الاستعمار هو الذي أوجد هذا الازدواج .

تحدث مطولا عن ازدواجية اللغة الالمانية وكيف امكن الخروج منها باعتماد احدى اللهجات اساسا وتعميمها بالاستفادة من وسائل الاعلام المتنوعة والمؤسسات الثقافية المختلفة . واشار المستشرق كذلك الى الدعوة التي طرحها بعض العرب لاعتبار اللهجة المصرية أساسا وتعميمها لتحل محل اللغة العربية الفصحى ، فيمكن بذلك التخلص من الازدواج اللغوي . كما ذكر بالمقابل مشروعا آخر يدعو الى اعتماد اللهجة الدمشقية اساسا للحل باعتبارها اقرب الى العربية الفصحى . وقد كرر المستشرق غروتسفيلد دعوته للعرب الى « العقلانية » في حل مشكلة الازدواجية اللغوية .

(*) قرىء هذا البحث في المحاضرة التي القاها كاتب المقالة في كلية الآداب بجامعة دمشق بتاريخ ١٩٨٠/٤/١٥ .

سردت بايجاز شديد النقاط الاساسية التي تقوم عليها وجهة نظر مستشرق الماني غربي في المشكلة المطروحة و « النصائح » التي قدمها للعرب من اجل حل تلك المشكلة . وقد عقب الدكتور محمود الربداوي – رئيس قسم اللغة العربية وآدابها – على ما ذكره المستشرق قائلا ان الاستعمار لم يخلق فعلا الازدواجية اللغوية . ولكنه سعى ويسعى الى استغلالها وتعميقها كي يصل الى تكريس اللهجات العربية وزيادة الاختلافات بينها ليفرق بين ابناء الامة العربية الواحدة الذين يتكلمون لغة واحدة هي العربية الفصيحة .

ان « العقلانية » ، كما قدمها لنا الدكتور غروتسفيلد ، تعني الدعوة الى ان نتخلى عن لغتنا العربية الفصحى وتراثنا اللغوي العربي ونستفيد من التجربة اللغوية الالمانية في تعميم احدى اللهجات . وقد ذكرتني آراء الدكتور غروتسفيلد بمقالة كتبها هاشم صالح ونشرت مؤخرا في مجلة « المعرفة » – العدد ٢١٦ ، شباط ١٩٨٠ – بعنوان « جولة في فكر محمد اركون » – واركون هو مدير معهد الدراسات العربية والاسلامية في جامعة السوربون الجديدة . وقد قدم اركون للمقالة قائلا انه يبذل جهودا منذ سنين عديدة « بغية تجديد الفكر العربي وانطلاقا منه الفكر الاسلامي » . ولن اناقش – هنا – جميع افكار الاستاذ اركون المعروضة في تلك المقالة ، بل سأكتفي بذكر ومناقشة ما يتصل منها مباشرة بموضوع بحثنا . واثبت هنا بعض الفقرات الواردة في المقالة المشار اليها .

« هذه النقطة تقودنا ، بطبيعة الحال ، الى التعرف على اصطلاح مركزي لدى اركون ، يحتل جانبا اساسيا من تفكيره واهتمامه ، هو مصطلح ايديولوجيا الكفاح – وهي الايديولوجيا الرسمية السائدة والتي تتخلص في التحالف المقدس ما بين جميع الطبقات الاجتماعية تحت قيادة زعيم تاريخي ما ، وذلك من اجل مواجهة الامبريالية . وتسيطر هذه الايديولوجيا بشكل عام على قطاعات الصحافة والتعليم والثقافة ...

ان تأسيس فكر علمي عربي نقدي جديد هو الآن ، وضمن هـذه الظروف التي نعيشها ، ضرورة ملحة كلما اجلناها (خوفا من عبئها او تهربا من مواجهة المشاكل وجها لوجه) زدنا في تعقد المهام التي تنتظرنا ، وادى ذلك بالتالي الى اتساع الهوة التي تفصلنا عن المجتمعات المتفوقة علميا وحضاريا الى درجة يصبح اللحاق بها أمرا مستحيلا .

لكن ما الذي يمنع قيام فكر علمي (نقدي) عربي ؟

ان احد الاسباب الاساسية هو ، بالضبط ، ما يسميه المؤلف بايديولوجيا الكفاح . كانت هذه الايديولوجيا قد نشات وبلغت اوجها ابان مرحلة الاستعمار . وقد ساهمت كثيرا في توكيد الشخصية العربية تجاه المستعمرين وفي النضال من اجل التحرر والسيادة والخلاص من الحكم الاجنبي . من هنا كان لها دور ايجابي لا ينكر . لكن القضية ليست هنا ، القضية كما يطرحها المؤلف هي في النتائج السلبيه لهذه الايديولوجيا على المستوى العلمي والمعرفي . ذلك ان مقولة الغزو الفكري التي رافقت هذه الايديولوجيا ولا تزال ترافقها حتى اليوم (عند اليمين واليسار على السواء !) قد ساهمت في عرقلة الفكر العربي الناهض وفي تقييده وتحجيمه وعزله ، كل ذلك بحجة الدفاع عن الخصوصية والاصالة والتراث ... الخ

ان غياب الفكر النقدي والعلمي على الساحة الثقافية العربية لايمكن له ان يستمر الى الابد . عاجلا أو آجلا سوف يضطر المثقفون والدارسون العرب الى مواجهة الواقع وجها لوجه ، والى تفحصه بدقة والاعتراف بكل تعقيداته واشكالاته وتساؤلاته مهما تكن هذه التساؤلات مخيبة لآمالهم او مخالفة لآرائهم المسبقة والراسخة ، ان عملية بناء بيت جديد ونظيف ، مفتوح للهواء والشمس لا يمكن ان تتم الا بعد تقويض البيت القديم الخرب ونفضه من جذوره ! »(١) .

« انه لا يمكن لاي مجتمع من المجتمعات ان ينفتح على الحداثـة المادية مع المحافظة ، في الوقت نفسـه على نظامه التقليـدي للاعتقاد

واللااعتقاد بمعزل عن قوى الحداثة العقلية التي تميل الى نزع القداسة والاسطرة عن هذا المجتمع ... »(٢) .

« ان اركون على حق اذ يؤمن بوجود علاقة وثيقة لا تنفصم بين ما يسميه بالحداثة المادية والحداثة العقلية . ان وهم فكر الاصالة الكبير الذي لا يزال مستمرا حتى اليوم (بل لعله الآن في ذروته) هو اعتقاده بامكانية نقل المنتجات المادية والتكنولوجيا الحضارة الغربية الحديثة وترك مرافقاتها من افكار وايديولوجيات ومناهج واسلوب عمل ... الخ. ان هذا الفصل التبسيطي والساذج ما بين وجهين لعملة حضارية واحدة ، يعبر عن جهل شديد بطبيعة هذه الحضارة ، وكيفية نشوئها وتطورها ، وهو بالمقابل يمثل نوعا من التواكل والعجز والاعتماد على الآخرين ، ثم قبولهم ورفضهم في الوقت نفسه ! » (٣) .

وهكذا نرى ان مدير معهد الدراسات العربية والاسلامية في جامعة السوربون الجديدة يدعو العرب الى التخلي عن (ايديولوجيا الكفاح) ـ لانها بزعمه ـ (أحد الاسباب الاساسية التي تمنع قيام فكر علمي نقدي عربي) . ويدعونا الى التخلي عن (الاصالة والتراث) والى (تقويض البيت القديم الخرب ونفضه من جذوره) وذلك من أجل (بناء بيت جديد ونظيف ...) . ويوافقه الاستاذ هاشم صالح على دعوته حين يقول وهو يختم مقالته : « ان تحليلات واكتشافات البروفسور اركون العلمية ، تمثل خطوة إساسية لابد منها اذا مااريد لنا الخروج من متاهات العصور الوسطى والدخول في مناخ العصور الحديثة »(٤) .

اننا نرفض التخلي عن (ايديولوجيا الكفاح) لاننا نرفض التخلي عن وجودنا القومي ونرفض الاستسلام للصهيونية والامبريالية . اننا نرفض التخلي عن تراثنا العربي ولغتنا العربية الفصحى لاننا نرفض التخلي عن قوميتنا وتاريخنا وحضارتنا . اننا نرفض ربط الاخذ بالمنجزات المادية والتكنولوجية للحضارة الغربية الحديثة بضرورة الاخذ ايضا بما تتبناه من افكار وايديولوجيات . ولا تنطلق دعوتنا الى التمسك بتراثنا فقط

من شعور عاطفي يقتصر على تمجيد كل ما قاله علماؤنا الاوائل ، ولكن دعوتنا الى التمسك بالتراث تستوجب كشف القيمة العلمية لهذا التراث عن طريق التسلح بالعلم الحديث ومنجزاته . وبذا نستطيع ان نفهم تراثنا بشكل علمي صحيح ، ويمكننا بالتالي ان نعرف العالم به ، ونساهم ايجابيا في تطوير الحضارة الانسانية المعاصرة بمساهمات علمية جديدة .

لقد طرح اركون « نصائحه » للعرب بشكل مباشر ، ولكن غروتسفيلد قدم « نصائحه » بشكل غير مباشر - تحت شعار الدعو الى « العقلانية » . وارغب ، بهذه المناسبة ، ان ابين وجهة نظري كلغوي عربي في «ازدواجية» اللغة العربية واقترح ملامح طريقة علمية للخروج منها . ولابد لي في البدء من الاشارة الى المرتكزات الاساسية التي انطلق منها :

١ - ان اللغة العربية الفصحى هي احدى المقومات الاساسية للقومية العربية . انها الرابطة المشتركة التي تجمع ابناء الامة العربية الواحدة في جميع اقطارهم من المحيط الى الخليج . انها الصلة التي تربط حاضرنا بماضينا وتراثنا . انها لغة القرآن الكريم ولغة الثقافة الاسلامية المشتركة لجميع شعوب البلدان الاسلامية .

٢ - ان العقلانية - التي دعانا المستشرق غروتسفيلد الى الاخذ بها - تعني التمسك بالمنهج العلمي . ونحن نتبنى المنهج العلمي وننطلق منه . ويقتضي المنهج العلمي ، قبل كل شيء ، بأن نحلل الاسباب الموضوعية التي ادت الى نشوء الازدواجية اللغوية . لذا فاننا نرى ان الكشف عن تلك الاسباب الموضوعية هو الخطوة الاساسية الضرورية واللازمة والتي يستحيل بدونها اقتراح اي علاج مفيد - اذ كيف يمكن للطبيب ان يصف للمريض علاجا يشفيه دون ان يعرف اسباب مرضه ؟!

٣ - ان قوانين المنطق تعكس الخصائص العامة للتفكير الانساني المشتركة بين جميع افراد الجنس البشري . ولكن هذا لا يعني ضرورة تطابق المقولات المنطقية والمقولات اللغوية . ويرجع السبب في ذلك الى انه

على الرغم من ان طرق التفكير الانساني واحدة بالنسبة لجميع البشر ، الا ان طرق التعبير اللغوي عن الافكار الانسانية يمكن ان تكون مختلفة ، لانها تتحدد بالخصائص البنيوية للغة التي يتم بواسطتها التعبير عن تلك الافكار . ولايمكن بالتالي استنباط قواعد منطقية - لغوية عامة تصدق على جميع اللغات . وقد تبنى علم اللغة الحديث هذا الموقف حين رفض المبدا القديم القائل بضرورة دراسة مختلف اللغات وفق نمط قواعد اللغة اليونانية (او اللاتينية) الذي يعتبر عاما لجميع اللغات .

لذا فان اي حل لاية مشكلة لغوية يجب ان ياخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة لبنية اللغة المعنية . ويؤدي اغفال تلك الخصائص بالضرورة الى تبني نظام لغوي جديد والتخلي بالتالي عن اللغة الاصلية ، اي ان ذلك يستتبع تغييرا في اللغة القومية يؤدي بدوره الى تحريف لمفهوم القومية ، وينعكس على التراث الثقافي للامة ويقطع صلتها بتاريخها وحضارتها .

افرد العالم اللغوي الكبير ابن جني مؤلفا خاصا لبيان خصائص العربية سماه « الخصائص » وسنناقش (الرؤية اللغوية الفذة) عند ابن جني في مقالة اخرى . وكتب الاستاذ زكي الارسوزي(*) عن خصائص اللغة العربية ما يلي :

» انه لمن الثابت ، بحكم التاريخ ، ان اللغات الافرنسية والايطالية والاسبانية ، قد حصلت من تحول اللغة اللاتينية ، وكان ذلك بتاثير عوامل سياسية اجتماعية ، وانه لمن الثابت بحكم التاريخ ايضا ، ان اللغة الافرنسية هي لهجة منطقة باريس ، المنطقة التي طبعت مقاطعات فرنسا الاخرى بطابعها السياسي والثقافي فجعلت لهجاتها تتراجع امامها فتندثر .

وانه على هذه الدراسة قد قام الزعم بأن العلاقة بين اللسان العربي واللغات السامية الاخرى علاقة اخوة ترجع بأصولها الى اللغة الام التي هي لغة سامية بائدة . وان ثمة لهجات عربية تقلصت امام طغيان لهجة

قريش ، لهجة الديانة والسياسة . ولقد جارى بعض ابناء الوطن المستشرقين في هذا الزعم القائم على افتراض وجود اسرة لغات سامية على غرار اسرة اللغات اللاتينية ، وعلى افتراض وجود لهجات عربية مختلفة في الاصول وفي نمط النمو .

ياله من زعم ! لقد فات هؤلاء واولئك المضللين ان الكلمات العربية ذات اصول في الطبيعة ، وأن مبدأ الصحة فيها قد تعين من قبل الفطرة لا من قبل العرف والعادة .

ثمة خطأ شائع بين اللغويين ، وهو أن العلاقة بين المعنى واللفظة في اللسان العربي على مثال العلاقة بينهما في اللغات الحديثة ، علاقة اصطلاحية ، بمعنى ان اللفظة تشير الى معناها اشارة فقط . بيد أن اللسان العربي ذو بنيان عضوي تنم فيه الكلمة عن اللفظة مما يجعل صاحبه اكثر استعدادا من غيره لفهم الاخلاق والديانة . انما هو منظومة صوتية تعبر عن وجهة الامة التي أنشأته ودلت عليه »(٦) .

« لدى اقامة المقارنة بين اللغة العربية وبين لغة اخرى كالفرنسية مثلا ، يتبين ان جذور الكلمات الفرنسية في التاريخ ، وجذور الكلمات العربية في ما قبل التاريخ ، في الطبيعة . ونحن نعني بذلك ان كلا من الكلمات الفرنسية قد حصلت في ظرف تاريخي معين ، من تحوير احدى كلمات اللغة اللاتينية . ومن هنا ايضا اتى اعتبار الفرنسية لغة مشتقة ، لا اصيلة . وما قيل عن الفرنسية ينطبق على لغة الام ، اللاتينية ، اذ ان كلا من كلمات هذه اللغة قدحصلت بدورها من تحوير كلمات اللغة الهندية ــ الاوربية ، أرومة اللغات المنتشرة من شمالي اوربا حتى جنوب الهند . واللغة الهندية ــ الاوربية ذاتها ليست بدائية ، بل تضيع جذور كلماتها في مجاهل التاريخ .

واما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي . ترجع كلماتها جميعا الى اصوات طبيعية ...

وفضلا عن ان اللسان العربي بدائي النشأة ، فان كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفويا ، من انبثاق المعنى دون طائلة العقل . هذه الحقيقة تدل عليها امور مختلفة ، منها ان اصوات الهيجان الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق لمعظم كلماتنا تشير الى العلاقة بين اللغة الطبيعية واللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة .

ونحن نستخلص من ذلك ان معاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلا مستقلا عن اجتهاد المجتهدين . فما للذهن الا ان يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي انشأها »(٧) .

واود ، قبل مناقشة الدعوات والمحاولات المختلفة للخروج من الازدواجية » ، ان اشير الى ان الازدواجية اللغوية امر لا يختص به العرب وحدهم ، بل يصادف مثله عند كثير من الامم والشعوب . ولكن المشكلة تاخذ عندنا ابعادا اخرى بسبب تجزئة الامة العربية والاستعمارالاستيطاني الصهيوني . وتتعقد المشكلة كثيرا اذا اخذنا بعين الاعتبار ان العرب منذ دخلوا في « عصور الانحطاط » ابتعدوا عن فهم جوهر تراثهم الحضاري والثقافي — ومن ضمنه التراث اللغوي — فصارت علوم العربية وبلاغتها تدرس منفصلة عن بعضها وتعتمد على التعريفات والحدود اكثر من اعتمادها على المادة اللغوية العربية نفسها . ويبتعد بعض العلماء المعاصرين عن الخوض في قضية « الازدواجية » اللغوية العربية ويخشون أن يقروا بوجودها .

اننا نرى ان مشكلة العلاقة الحالية بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها العامية المختلفة هي من ابرز المشكلات الراهنة التي تعاني منها الامة العربية في العصر الحديث . فالناشئة العرب لايتعلمون لغتهم العربية الفصحى كما يتعلم الناشئة في الامم الاخرى لغاتهم . فهم لايسمعونها في البيت ، ويكادون لايسمعونها في البيئة التي تحيط بهم ، ولايسمعونها في المدرسة الا اثناء دروس اللغة العربية . وبما ان اللهجة العامية هي لغة التخاطب في البيت وخارج البيت ، فان اللغة العربية الفصحى — والحال

كذلك ـ لا تؤدي عمليا الوظيفة الاساسية التي يفترض في اية لغة أن تؤديها ، ونقصد بذلك ان تستخدم اللغة وسيلة لاتصال الناس واختلاطهم ببعض . ولكي تقوم اللغة بهذه الوظيفة يتوجب أن تكون مفهومة بسهولة لجميع ابناء الامة التي تتكلمها . وليس الامر كذلك بالنسبة للغة العربية الفصحى .

ان هذا ولاشك وضع غير طبيعي . ان هذا الوضع الحالي الشاذ والمعقد الذي توجد فيه اللغة العربية الفصحى ، حدا بأحدهم ان يقول ان اللغة العربيه الفصحى التي يتعلمها التلاميذتبدولهم وكأنها لغةاجنبية!

واذا اخذنا بعين الاعتبار أن نحو اللغة العربيـة بني على نظريـة العوامل في الاعراب التي اضطرت النحاة ان يقدروا ويضمروا (جوازا او وجوبا) ويحذفوا ، تكشف لنا أن التفكير في امر تيسير **تدريس قواعد** العربية امر ملح .

برزت لدى محاولة التصدي لحل مشكلة الازدواجية اللغوية العربية دعوات مختلفة (٨) يمكن ان نصنفها في اتجاهين أساسيين :

١ ـ **الدعوات الناهضة للقومية العربية** . وظهرت في مجالين :

ا) الدعوة الى التخلي عن الاحرف العربية في الكتابة ، والاستعاضة عنها بالاحرف اللاتينية في كتابة اللغة العربية وذلك ـ على حد زعمهم ـ بغية تسهيل كتابة العربية والتخلص من الصعوبات الناجمة عن كتابتها بالاحرف العربية . ويقول احد أصحاب هذه الدعوة ان الناس يقرؤون باللغات الاوروبية ليفهموا ماكتب ، في حين لاينطبق ذلك على اللغة العربية، اذ يتوجب على الناس ان يفهموا ماكتب اولا ليتمكنوا من قراءته بشكل صحيح .

اننا نرفض التخلي عن الاحرف العربية في كتابة لغتنـا العربيـة . ونود بالمناسبة ان نذكر بايجاز تاريخ الخط العربي (٩) .

« لابد من التعرض لناحيتين مهمتين من نواحي تطور الخطوط عند العرب هما : الاعجام والحركات . ويراد **بالاعجام** تنقيط الحروف المرسومة بشكل متقارب او بشكل واحد ، لتمييزها بعضها عن بعض . وذلك لان هذه الحروف مثل (ب ، ت ، ث) و (ج ، ح ، خ) و (د ، ذ) و (ر ، ز) و (س ، ش) و (ص ، ض) و (ط ، ظ) و (ع ، غ) و (ف ، ق) اذا كتبت من غير نقط صار من الصعب على الانسان التمييز بينهـا لانها تكتب بشكل واحد ، فيلزم على القارىء عندئذ الرجوع الى علمـه في اللغة وسليقته في الفهم لادراك المعنى ، لانها بشكل واحد ورسم واحد . . . فللتغلب على هذه المشكلة اعجم علماء الخطوط بعض هذه الحروف ، بوضع نقط فوقها او تحتها لتمييز بعضها عن بعض ، وعرف هذا التنقيط بالاعجـام .

وقد وقع الاعجام في الاسلام على رأي اكثر العلماء ، بعمل ابي الاسود الدؤلي والخليل بن احمد الفراهيدي . . . » (١٠) .

« والمشكلة الثانية في العربية ، هي مشكلة **الحركات** ، اي كيفية النطق بحروف الكلمة وبأواخر الكلم ليظهر المعنى حسب موقـع الكلـم من الاعراب . والعربية من اللغات العالمية التي احتفظت بخاصية الاعراب بينما تركتها لغات أخرى كانت لغات معربة في الاصل . لان اهمال الحركات فيها يؤدي الى وقوع أخطاء كبيرة في فهم معنى الكلام ، لذلك وجب التغلب على هذه المشكلة بوضع علامات تعبر عن الحركات .

وسبب وجود هذه المشكلة في العربية ، هو ان اقلام العربية القديمة هي مثل الاقلام السامية الاخرى مؤلفة من حروف صامتة فقط ، ولا توجد فيها حروف تمثل الحركات التي تكتب في الكلمة ، كما هو الحـال في اليونانية واللاتينية وفي الابجديات الغربية الاخرى المشتقة منهما ، فيقرأ الانسان الكلمة قراءة صحيحة بغير خطأ لوجود حروف الحركات مـع الحروف الصامتة . ويكتب كتابة صحيحة ، لانه حين يكتب الكلمة ويلفظها يكتبها بحروف صامتة وبحروف الحركات . ويذكر اهـل الاخبـار ان

العرب كانوا يفهمون معنى الكتابة بحدة ذكائهم وبطبعهم وسليقتهم فلم يخطئوا في فهم المعنى ، فلم يجدوا حاجة الى الشكل . فلما جاء الاسلام ، ودخل الاعاجم بكثرة فيه واختلطوا بالعرب واختلط العرب بهم ، فشا اللحن في الكلام وظهرت الحاجة الى تقويم الالسنة فوضع ابو الاسود الدؤلي مبادىء النحو والشكل اي علامات الحركات . وسلك الناس طريقته ووسع من جاء بعده جادة هذا العلم حتى صار من اهم العلوم عند العرب .

وعلينا ان نفرق بين التنقيط اي الاعجام عند العرب وبين التنقيط عند غيرهم من الشعوب السامية . فالتنقيط عند العرب هو التوضيح الحرف بمعنى تعيينه وتثبيته لتمييزه عن الحرف الآخر المشابه له . اما في اللغات السامية الاخرى ، فقد استعمل التنقيط فيها للتعبير عن الحركات . فالحركات في بعض اللغات السامية يعبر عنها بنقاط توضع فوق الحرف او تحته . كما استعملت الخطوط المستقيمة وما يشبه الضمة للتعبير عن الحركات عند بعض لغات اخرى . ولم يستعمل الاعجام اي تنقيط الحرف لتمييزه عن حرف آخر مشابه له الا في القليل ، وذلك بسبب ان الحروف عندها غير متشابهة كثيرا ، ولذلك فلا يلتبس امر قراءتها على احد ، فلم تظهر الحاجة فيها الى ازالة اللبس بالتنقيط . ومن هنا اختلف مبدا التنقيط في العربية عن مبدا التنقيط في اللغات السامية الاخرى .

والتنقيط في كلتا الحالتين ... هو عمل متأخر عن الكتابة عند العرب وعند غيرهم . وسبب ذلك ان الكتابة صنعة اختص بها رجال الدين والعلماء والمثقفون ثقافة عالية ، وهم من طبقة خاصة كانت فوق مستوى الجماهير ، وكان من مصلحتهم حصرها بأنفسهم وبأولادهم وجعلها صنعة خاصة بهم جهد الامكان . وعدم السماح لغيرهم من سواد الناس بتعلمها وممارستها ...

غير أن الحاجات دفعت بالناس ولاسيما بذوي الاعمال منهم الى التماس ايسر الطرق وابسطها في تدوين امورهم . فاختزلوا الخطوط وبسطوها ودفعوا التعسير بالتبسيط . وكان من التيسير ، وضع علامات للحركات ونقط للاعجام . اما اليونان فصاغوا من الحركات حروفا كتبوها جنبا الى جنب مع الحروف الصامتة فحلوا بذلك اهم مشكلة من مشكلات الكتابة . . .

واغلب روايات اهل الاخبار ان الخط العربي الاول لم يكن مشكلا ، وان الشكل انما وجد في الاسلام . وكان موجده (ابو الاسود الدؤلي) المتوفى سنة (٦٩) هـ . فاستعمل النقط بدل الحركات. ثم ابدل (الخليل بن احمد الفراهيدي) النقط برموز اخرى هي الفتحة والكسرة والضمة . ويرى بعض الباحثين ان نقط ابي الاسود الدؤلي هو على نحو النقط في الخط النسطوري السرياني ، ويحتملون تعلمه قاعدة التنقيط منهم ، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظة او تعيين الكلمة الواقع هو فيها : اسم هي ام فعل ام حرف . . . وكان عندهم ايضا نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبل ذلك الزمن . . .

واود ان ابين بهذه المناسبة ان تنقيط ابي الاسود الدؤلي للحروف لم يكن اعجاما ، بل كان شكلا اي ضبط حركة الحرف من حيث الضم او الفتح او الكسر او السكون حسب تكوين الحروف الكلمة . فهذا كان تنقيط ابي الاسود الدؤلي . اما شكل الوقت الحاضر ، فهو من اختراع الخليل بن احمد الفراهيدي . . . »(١١) .

وهكذا نرى ان علماء العربية الاوائل قد حلوا مشكلة الصعوبات الناجمة عن الكتابة بالاحرف العربية عن طريق اختراع الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة واختراع الحركات لبيان كيفية النطق بحروف الكلمة وبأواخر الكلم . واذا كان من غير الممكن — في وضعنا اللغوي المعاصر — الاعتماد على سليقة المتكلمين بالعربية ، فان ذلك يستوجب حتما التشدد في استخدام الشكل . ولكن تبرز هنا صعوبة كبيرة في الكتابة لدى شكل

جميع حروف الكلمات . لذا يتوجب على علماء العربية المعاصرين البحث عن حل لهذه المشكلة الملحة .

ان طريقة الكتابة بالعربية وبغيرها مما يسمى بالساميات ـ القائمة على عدم تخصيص حروف خاصة للاشارة الى الاصوات الصائتة القصيرة (اي الحركات ـ يعود السبب فيها ـ برأينا ـ الى خصائص بنية العربية وغيرها من الساميات . ولابد من القيام بدراسة تاريخية للعربية من اجل التعرف على الخصائص المميزة لبنية اللغة العربية . وقد تبين لنا من دراستنا التاريخية لنشأة اللغة العربية واكتمال نظامها اللغوي ان الفتحة هي أول الحركات ظهورا في اصل الفعل العربي . وكان علماء العربية الاوائل قد اشاروا الى ان الفتحة اخف الحركات الثلاث . لـذا نقترح اعتبـار حركة الفتحة اصلا بالنسبة للحرف العربي (الذي يشـير الى صوت صامت) ولا حاجة لتثبيتها في الكتابة . ونطالب بالزام شـكل جميع الحروف الساكنة او المتحركة بغير الفتحة في جميع الكلمات . وندعو الى اعتماد هذه الطريقة في تعليم التلاميذ مبادىء الكتابة والقراءة العربية وفي صفوف محو الامية للكبار .

ب) **الدعوة الى التخلي عن اللغة العربية الفصحى والاستعاضة عنها باللهجات المختلفة تحت شعار « دراسة تطور اللغة العربية »(١٢). أو غيره من الشعارات .**

اننا نرفض هذه الدعوة لانهـا تسعى الى هـدم احدى المقومات الاساسية لقوميتنا العربية والى قطع صلتنا بتاريخنا وتراثنا . ولـذا فلنا لن نناقش الدعوة التي ينادي بها الاستاذ سعيد عقل لاننا نرفضها جملة وتفصيلا .

٢ ـ **الدعوات العربية التي تدعو الى تبسيط قواعد العربية .** ونميز ضمنها أربع فئات :

الفئة الاولى : تدعو الى **التبسيط عن طريق وضع قواعد جديدة للعربية** . وتشترك الدعوات التي تدخل في هذه الفئة بانها جميعها لاتاخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة لبنية اللغة العربية . ونجد هنا ثلاثة انواع من الدعوات :

أ ـ دعوة الاستاذ عبد الله العلايلي(١٣) وتنادي بضرورة تغيير طريقة دراسة اللغة العربية وبوضع معجم عربي جديد على غرار معاجم اللغات الاوربيــة .

ب ـ دعوة الاب يوسف السودا(١٤) وتنادي بوضع قواعد جديدة للعربية سماها (الاحرفية) .

جـ ـ دعوة الدكتور شوقي ضيف(١٥) وتنادي باهمال نظرية العوامل .

الفئة الثانية : تدعو الى **التبسيط عن طريق القيام باصلاح جوهري لقواعد الصرف والنحو المدونة** . وقد تبنى هذه الدعوة الاستاذ ساطع الحصري(١٦) . ولقد اكدنا اعلاه ان اي حل لاية مشكلة لغوية يجب ان ياخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة لبنية اللغة المعنية ، وان ان اغفال لتلك الخصائص يؤدي بالضرورة الى تبني نظام لغوي جديد والتخلي عن اللغة الاصلية . ومن المفارقات ان واحدا من دعاة القومية العربية هو الاستاذ ساطع الحصري قد اضطر نتيجة لاغفاله الخصائص المميزة للبنية اللغوية العربية التي تبني الدعوة غير المباشرة الى وضع قواعد جديدة للعربية مقتبسة عــن قواعد اللغات الاوربية ، تكون بالتالي غريبة عن النظام اللغوي للعربية .

لقد قال الاستاذ الحصري ان « ملاحظاته الانتقادية على قواعد اللغة العربية تقوم بحملة على (قواعد الصرف والنحو المدونة) وتطلب اصلاحها اصلاحا جوهريا دون ان تتجاهل (الخصائص) التي تختص بها اللغة العربية ، ودون ان تدعو الى اهمال تلك الخصائص او الخروج عليها »(١٧) .

وسنورد فيما يلي اهم (النظريات الانتقادية) على قواعد اللغــة العربية التي اوردها الاستاذ ساطع الحصري . يبدأ الاستاذ الحصـري بانتقاد تقسيم الكلمات الى اسم وفعل وحرف فيقول : « من المعلوم ان

الكلمات تقسم – في قواعد اللغة العربية – الى ثلاثة انواع : اسم وفعل وحرف . في حين انها تقسم في سائر لغات العالم الى انواع كثيرة يبلغ عددها ثلاثة امثال ذلك . فيجدر بنا ان نتساءل – تجاه هذا الفرق العظيم – فيما اذا كانت هناك مبررات فعلية واسباب حقيقية تستوجب التباعد الى هذا الحد بين العربية وبين سائر اللغات من وجهة تصنيف الكلمات .

اذا انعمنا النظر في المعاني التي يقصدها اللغويون من كلمتي (الاسم والفعل) وجدنا ان علماء العربية يضيقون (مفهوم الفعل) بعض التضييق غير انهم يوسعون (مفهوم الاسم) توسيعا كبيرا »(١٨) .

ويدعو الاستاذ الحصري بعد ذلك الى ترك ذلك التقسيم وتكثير انواع الكلمات قائلا : « فليس من المعقول اذن ان نبقى متمسكين بهذا التقسيم القديم بل من الاوفق ان نعيد النظر فيه على اساس تكثير انواع الكلمات اسوة بما يفعله لغويو العالم . . ولاشك ان ذلك يكون اقرب الى مقتضيات العقل والمنطق ، واضمن لتسهيل التفهيم والتعليم .

انا لا احاول وضع خطة تفصيلية لهذا التقسيم الجديد ، بل اكتفي ببيان الحاجة اليه»(١٩) .

ثم ينتقل الاستاذ الحصري الى انتقاد تقسيم الجملة حسب ابتدائها بفعل أو اسم فيقول : « من المعلوم ان الجملة تنقسم الى قسمين: فعلية واسمية ولكنا عندما ننظر الى الامور نظرة منطقية ، يجب أن نفهم من تعبير (جملة فعلية) الجملة تحتوي على فعل ، وبتعبير آخر : الجملة التي تعلمنا ماحدث وما يحدث ، كما يجب أن نفهم من تعبير (جملة اسمية) الجملة التي لا تحتوي على فعل ، وبتعبير آخر ، الجملة التي تخبرنا عن أوصاف اسم من الاسماء وحالاته .

غير أن قواعد اللغة العربية لاتلتزم هذه التعريفات والمفهومات المنطقية ، بل تخالفها كلية : فانها تعتبر الجملة (فعلية) عندما تبتدىء بفعل ، و (اسمية) عندما تبتدىء باسم . ومعنى ذلك انها لا تصنف الجمل حسب انواع الكلمات التي تتالف منها ، بل تصنفها حسب نوع الكلمة التي تبتدىء بها دون ان تلتفت الى بقية كلماتها »(٢٠) .

ويتابع الاستاذ الحصري ملاحظاته باتهام علماء اللغة في عصور التدوين الاولى بالوقوع في خطأ منطقي، ويقول: « ونظرا لهذه القواعد الرسمية فإنَّ عبارة (نام الولد) يجب أن تعتبر جملة فعلية؛ في حين ان عبارة (الولد نام) يجب ان تعتبر جملة اسمية. مع ان كلتيهما تتألفان من نفس الكلمتين، وتؤديان الى نفس المعنى. انني اعتقد ان تفسير الجملة على هذا النمط الغريب نتيجة خطأ منطقي، وقع فيه علماء اللغة – في عصور التدوين الاولى – بسبب اهتمامهم بالاوصاف الظاهرة اكثر من تفكيرهم بالمعاني المعروفة .. كما شرحنا ذلك آنفا.

واما استمرار المؤلفين المعاصرين على التزام هذه الخطة العجيبة، فلم اجد سبيلا الى تعليله الا بتأثير (الالفة المخدرة) ونزعة التفادي من الخروج على التعاريف والتصانيف القديمة »(٢١).

ثم يتابع الاستاذ الحصري هجومه على علماء العربية وابتعادهم عن المنطق في القواعد فيقول: « ومما يجب ان نلاحظه في هذا الباب أن هناك امرا اخر يزيد في غرابة هذين التعريفين، ويوسع المسافة بين المنطق والقواعد فقد عرّف علماء اللغة (الفاعل) تحت تأثير النزعة التي ذكرناها آنفا بقولهم (اسم مرفوع يتقدمه فعل) .. فاذا تقدم الاسم على الفعل لايترتب على ذلك – في عرفهم – تحوّل الجملة من فعلية الى اسمية فحسب، بل يترتب على ذلك خروج الاسم من الفاعلية ايضا. فعندما يقال (الولد نام) لايرون مسوغا لاعتبار كلمة (الولد) فاعلا، نظرا لمخالفة ذلك التعريفات التي وضعوها .. وبما ان هناك (فعلا) يتطلب فاعلا، فانهم يلتجئون الى طرق التأويل الملتوية، فيقولون ان الفاعل لهذا الفعل ضمير مستتر، واما (الولد) فما هو الا مرجع هذا الضمير المستتر. وبتعبير آخر: يدعون ان الفاعل ليس (الولد) المذكور صراحة، وانما هو ضمير مستتر يعود الى الاسم المذكور ..

انني اعتقد بأن الانسان لو قصد التعقيد والتشويش لغرض من الاغراض لما استطاع ان يجد طريقة تصنيف وتفسير اكثر اعوجاجا واشد غرابة من تلك .. أفلم يحن بعد الاقدام على التخلص من هذه المسالك الملتوية والرجوع الى طرق المنطق والصواب؟ »(٢٢).

اننا نرى ان اتهام الاستاذ ساطع الحصري علماء العربية بارتكاب خطأ منطقي هو غير صحيح على الاطلاق وفيه الكثير من التجني على الحقائق العلمية . ونعتقد ان دراسة تاريخ علم اللغة العربية في ضوء منجزات علم اللغة العام الحديث سوف تساعد ولا شك في فهم خصائص النظام اللغوي للعربية (٢٢) .

من المعروف انه بعد توسع حدود الدولة العربية وازدياد اختلاط العرب بالاعاجم شاع اللحن ، وجرى على السنة العجم المستعربين اولا ثم على السنة العرب المتحضرين فيما بعد . وقد هال اولي الامر ان يكون له خطر وان يؤثر شيوعه على اللسان العربي وعلى الدين الاسلامي . وكان طبيعيا ، والحال كذلك ، التفكير في وضع ضوابط ومبادىء عامة يهتدي بها العرب والمستعربون في ضبط الكلام العربي . وهكذا فان تلك الغاية (وضع ضوابط لقواعد العربية لتجنب تفشي اللحن) حددت أسلوب الوصول اليها (القيام بدراسة تحليلية وصفية شاملة للغة العربية يمكن نتيجة لها استنباط قواعد عامة للعربية) . لذا تم وضع صرف العربية ونحوها بعد القيام بدراسة تحليلية وصفية شاملة للغة العربية .

ونتيجة لهذه الدراسة وحّد العلماء الاوائل الكلمات في مجموعات كبيرة وصنفوها الى اسم وفعل وحرف ، غير منطلقين في ذلك من معناها فقط ، بل وبالاستناد الى خصائص مميزة لكل نوع منها . وقد اكدت دراسات الاستشراق الحديثة ان الكلمات في اللغات السامية تقسم الى فعل واسم وحرف لان طبيعتها تستوجب مثل ذلك التقسيم . كما اكدت ان الفعل في العربية يتمتع بخاصة مميزة تجعل الذات (المتمثلة بالفاعل) متصلة بتركيبه الاصلي .

وهذا يعني ان الاستاذ ساطع الحصري غير محق في انتقاد تقسيم الكلمات في العربية الى اسم وفعل وحرف . ونشير بالمناسبة الى ان الدراسات اللغوية المقارنة الحديثة تثبت صحة تقسيم الكلمات الى اسم وفعل وحرف وتوصي باتباع ذلك التقسيم بالنسبة للغات التي لاتتبعه قواعدها . فقد توصل مثلا الدكتور س. غالسان نتيجة دراسة مقارنة قام بها للغتين

المنغولية والروسية الى ضرورة تمييز ثلاثة اقسام للكلم في اللغتين المنغولية والروسية هي : الاسم والفعل والحرف ، علما بأن مثل ذلك التقسيم غير متبع في دراسة قواعد اللغتين المنغولية والروسية .

ولدى الرجوع الى تاريخ علم العربية نجد ان علماء العربية قد ميزوا نوعين من الجملة العربية :

النوع الاول : جملة الفعل والفاعل . وهي الجملة التي تبتدىء بفعل يليه اسم او فعل اسند اليه (زيد منطلق) او (زيد ضرب) . وتتألف منفصلين عن بعضهما هما الفعل وفاعله الذي يليه . لذا لايميز في هذه الجملة مبتدأ وخبر .

النوع الثاني : جملة المبتدأ والخبر . وهي الجملة التي تبتدىء باسم يليه اسم او فعل اسند اليه (زيد مطلق) او (زيد ضرب) . وتتألف بنيتها من جزاين منفصلين عن بعضهما . لذا يكون الاسم المسند اليه مبتدأ والاسم او الفعل المسند خبراً .

وقد استخدم علماء العربية قبل السكاكي تعبير (جملة فعلية) و (جملة اسمية) لدى وصف الجملة التي تكون خبرا لمبتدأ . واستخدم السكاكي في « مفتاح العلوم » تعبير (الجملة الفعلية) و (الجملة الاسمية) بشكل عام حين ذكر ان « الاسناد هو تركيب الكلمتين أو ما جرى مجراهما على وجه يفيد السامع كنحو (عرف زيد) ويسمى هذا جملة فعلية او (زيد عارف) او (زيد ابوه عارف) ويسمى هذا جملة اسمية »(٢٤). وواضح ان السكاكي قد استخدم تعبير (الجملة الفعلية) للاشارة الى جملة الفعل والفاعل (عرف زيد) ، وتعبير (الجملة الاسمية) للاشارة الى جملة المبتدأ والخبر المفرد (زيد عارف) وللاشارة ايضا الى الجملة المركبة من المبتدأ والخبر غير المفرد حين يكون الخبر جملة اسمية (زيد ابوه عارف) . ولم يذكر السكاكي تسمية للجملة المركبة من المبتدأ والخبر غير المفرد حين يكون الخبر جملة فعلية كما في (زيد نام) او

(زيد قام ابوه) فظن بعض من جاء بعد السكاكي ان مثل هذه الجملة اسمية لان الجزء الاول منها اسم . والحقيقة ان جملة (زيد قام) او (زيد قام ابوه) ليست جملة اسمية بل هي جملة مركبة من مبتدأ وخبر غير مفرد هو جملة فعلية .

ان اهم دراسات الاستشراق الحديثة حول الجملة العربية تبين ان الخصائص البنيوية للغة العربية تستوجب تمييز نوعين من الجملة تبعا للكلمة الاولى فيها (فعل ام اسم)(٢٥) . فالامر اذن ليس خطيئة منطقية وقع فيها علماء العربية في عصور التدوين الاولى ، كما توهم الاستاذ ساطع الحصري ، حين ميزوا نوعين من الجملة : جملة الفعل والفاعل وجملة المبتدأ والخبر . ان التمييز بين بنيتي الجملة التي تبتدىء بفعل والجملة التي تبتدىء باسم ينطلق من التمييز بين مفهومين قواعديين هما (الفاعل) و (المبتدأ) .

وعليه فان كل جملة من جملتي (قام زيد) و (زيد قام) تتألف من الفعل (قام) الذي هو خبر منطقي او معنوي اي مسند ، ومن الاسم (زيد) الذي هو فاعل منطقي او معنوي اي مسند اليه . وعلى الرغم من ذلك فان الفاعل المعنوي (زيد) في الجملة الاولى (قام زيد) اعتبره علماء العربية من الناحية النحوية (فاعلا) ، أما الفاعل المعنوي (زيد) في الجملة الثانية (زيد قام) فلم يعتبروه فاعلا من الناحية النحوية ، بل (مبتدأ) . كما ان الخبر المعنوي (قام) في الجملة الاولى (قام زيد) وصفه علماء العربية بأنه (فعل) ولم يسموه خبرا ، في حين انهم وصفوا الخبر المعنوي (قام) في الجملة الثانية (زيد قام) بأنه فعل وقدروا فيه فاعلا ، ثم قالوا ان الجملة المؤلفة من الفعل وفاعله المقدر هي (خبر) للمبتدأ .

ولا يعني ذلك مطلقا ان علماء العربية قد ارتكبوا خطأ منطقيا . فهم جميعا منذ سيبويه قالوا ان الفعل (قام) في جملتي (قام زيد) و (زيد قام) هو (مسند) لانه خبر منطقي او معنوي ، كما قالوا ان الاسم

(زيد) في هاتين الجملتين هو (مسند اليه) لانه فاعل منطقي او معنوي. وهكذا يتضح ان تمييز علماء العربية بين مفهومين نحويين هما (الفاعل) و (المبتدأ) لم يقم على اساس منطقي ، بل انطلق منه علماء العربية حين ميزوا بين (الفاعل) و (المبتدأ) ؟ ان الكشف عن هذا الاساس هو الذي سيساعدنا في حل هذا اللغز . ونعتقد ان التعمق في دراسة تاريخ علم اللغة العربية ، في ضوء آخر منجزات علم اللغة العام الحديث، سيمكننا من الكشف عن ذلك الاساس .

اذا رجعنا الى كتاب سيبويه نجد فيه « اشارات كثيرة مما دخل فيما بعد تحت اسم البلاغة ، وان كانت شهرة سيبويه في النحو قد صرفت الناس عن البحث عن الجوانب الاخرى من (الكتاب) . على ان النحو الذي نعرفه اليوم لم يكن في عصر سيبويه مستقلاعن سائر علوم العربية، وانما كان جزءا منها . و (الكتاب) ليس كتاب نحو فقط ، وانما هو كتاب في علوم العربية ، فيه اللغة والنصوص ، وفيه النحو والصرف ، وفيه البلاغة والعروض ، وفيه القراءات والتجويد . كما ان النحو نفسه لم يكن عند سيبويه وامثاله مقصورا على الاعراب والبناء ، وعلى الجزئيات الفرعية التي نعنى بها اليوم ، وانما كان علما يؤدي الى فهم كلام العرب ، وعدم اللحن فيه ، والتأليف على سمته ، ولذلك فنحن نجد في (الكتاب) باب اللفظ للمعاني وباب مايكون في اللفظ من الاعراض وباب الاستقامة من الكلام والاحالة ... »(٢٦) .

ولكن بعض المؤلفين المعاصرين نظروا الى كتاب سيبويه على انه كتاب نحو فقط ، لذا راوا فيه أبوابا دخيلة على النحو(٢٧) ! لقد اشرنا اعلاه الى ان الدراسة التحليلية الوصفية الشاملة للغة العربية قد بدات من أجل وضع ضوابط لقواعد العربية تجنب تفشي اللحن . وبما ان تلك الدراسة التحليلية للمادة اللغوية كانت وصفية شاملة ، فمن الطبيعي كذلك ان تكون القواعد والضوابط الوصفية التي تمخضت عنها شاملة وعامة لا تقتصر على مواضيع الصرف والنحو فقط ، بل تتعداهما الى بقية مواضيع علوم اللغة من اصوات وقراءات وعروض وبلاغة .

ولذا نجد في كتاب سيبويه ـ وهو أول كتب علوم العربية التي حفظها لنا التاريخ ـ جميع تلك الموضوعات .

كانت دراسة علوم العربية في بدايتها تقوم على التلقي عن العرب ، والرحلة الى البادية في كثير من الاحيان ، ومقابلة العرب الوافدين الى الامصار والسماع منهم في احيان اخرى . ولكن المتأخرين من علماء العربية توقفوا عن الاستشهاد بلغة العرب في البادية المستخدمة في زمانهم ، لانها لم تعد تعتبر حجة في صحتها . وهكذا إنتهى عصر الدراسة اللغوية التحليلية الوصفية الشاملة ، وبدأ عصر الدراسة اللغوية المتخصصة في قواعد الصرف والنحو والتي اعتمدت على نتائج الدراسات اللغوية التحليلية الوصفية الشاملة في عصور التدوين الاولى . وتبلورت مدرستان نحويتان متميزتان هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . وكان الجدل يشتد بين نحاة البصرة والكوفة . وكانوا يجتمعون ويتناظرون في مجالس الخلفاء والامراء والوزراء الذين كانوا في بعض الاحيان يتفكهون بتلك المناظرات ويجمعون لها الفصحاء من الاعراب ليحكموا بين المتناظرين .

كان القرن الخامس للهجرة بداية فترة انحطاط في تاريخ الادب العربي ، وكان من خصائص تلك الفترة بروز تيار ادبي انهمك بالاعتناء بالسجع وتنسيق توافق الكلمات من حيث اللفظ دون المعنى . وادى ذلك الى ردة فعل على ذلك التيار تجلت في الدعوة الى اهمال الشعر والانصراف عن النحو . وقد تصدى الامام عبد القاهر الجرجاني(٢٨) لهذا التيار الذي اهتم باللفظ اللغوي دون المعنى . وهاجم الدعوة الى اهمال الشعر والانصراف عن علم النحو . واكد الجرجاني على ان البلاغة ليست أمرا مستقلا عن اللغة . وبين ان البلاغة تساعد اللغة على اداء وظيفتها المتمثلة في التعبير او الابلاغ . ونبه الى ان البلاغة يجب ان تدرس عنصري اللغة (اللفظ والمعنى) معا ، لا ان تقتصر على دراسة اللفظ وحده . فكان كتابه « دلائل الاعجاز في علم المعاني » بداية مرحلة جديدة في تاريخ علم اللغة العربية هي مرحلة الدراسة الوظيفية للغة العربية .

ينطلق علم اللغة العام الحديث من اعتبار الجملة وحده أساسية في اللغة واقامة علم النحو على اساس دراسة بنيتي الجملة (مدرسة القواعد التحويلية التوليدية ــ تشومسكي) ، كما ينطلق ايضا من دراسة بنية الجملة ووظيفتها عــن طريق دراسة المستوى الديناميكي (الاخباري او البلاغي) للجملة الى جانب المستوى الساكن (النحوي) للجملة في علم النحو (المدرسة البنيوية الوظيفية ــ مدرسة براغ) . وقد تبين لنا لدى دراسة « دلائل الاعجاز في علم المعاني » ــ في ضوء النظريــات الحديثة في علم اللغة المعاصر ــ ان الامام عبد القاهر الجرجاني طرح في ذلك الكتاب نظرية لغوية متكاملة ، تعتبر ــ برأينا ــ نظرية اساسية في المدرسة اللغوية البنيوية الوظيفية ، توضح وتكمل النظرية البنيوية الوظيفية الحديثة . كما انها تعتمد الى جانب ذلك على مفهوم البنية العميقة والبنية الظاهرية للجملــة وتشير الى القواعد التحويلية التي تربط بينهما . وبذا تمثل نظرية الجرجاني اللغوية اتجاها متطورا فــي علم اللغة العام الحديث ــ لانها لدى دراسة الجملة تجمع في نظريــة واحدة الاتجاه البنيوي الوظيفي واتجاه القواعد التحويلية ــ ويجب ان تحتل المكان اللائق بها في علم اللغة العام الحديث .

ويمكننا في ضــوء نظرية الجرجاني اللغوية بيــان ان السبب في تمييز علماء النحو بين مفهومي (الفاعل) و (المبتدأ) يرجع الى اختلاف دورهما الوظيفي .

١ ــ الجملــة العربيــة التي تبتدىء بفعل (نام الولد) او (قام زيد) .

هي في المستوى الساكن (النحوي) جملة لايميز في بنيتها جزآن منفصلان عن بعضهما . وتتألف بنيتها مــن وحــدة لا انفصال فيها بــين الفعل وفاعله الذي يليه . ولذلك فان هذه الجملة في المستوى المتغير (الاخباري) لاتخضع للتقسيم الوظيفي الى موضوع ومحمول للكلام ، لان المسنــد اليه (الفاعل) لايمكن ان يكون نقطة الابتداء في الكلام . ولهذا السبب دعا النحويون المسند اليه حين يلي الفعل (فاعلا) وليس (مبتدأ) .

والجملة في هذه الحال تحمل خبرا ابتدائيا ، لان الفعل المسند فيها يذكر امام السامع لاول مرة ، اي لم يذكر امامه من قبل في السياق الكلامي .

والفاعل في هذه الجملة اما ان يكون الشخص الاول (المتكلم) أو أن يكون الشخص الثاني (المخاطب) او ان يكون الشخص الثالث (غير المتكلم وغير المخاطب) . فاذا كان الفاعل متكلما او مخاطبا ، يمكن ان يكون ضميرا بارزا متصلا بالفعل الماضي وبعض صيغ المضارع (الافعال الخمسة والافعال التي تتصل بها نون النسوة) ويمكن ان يكون ضميرا مستترا وجوبا مع بقية صيغ المضارع . واذا كان الفاعل شخصا ثالثا (غير المتكلم وغير المخاطب) فلا يقدّر في صيغة الفعل ضمير يشير اليه، لان الخبر ابتدائي يذكر فيه الفعل لاول مرة امام السامع ، فيحتاج السامع لذلك بالضرورة ان يذكر له بعد الفعل اسم ظاهر يعلم منه ان الفعل يسند اليه . لذا يتوجب ذكر اسم ظاهر مرفوع يلي الفعل ويشير الى الفاعل . ان هذا الفاعل المعبّر عنه باسم ظاهر مرفوع يلي الفعل هو تابع من الناحية النحوية للفعل الذي يسبقه ، والفعل هو عامل الرفع فيه . ولذا فان هذا الفاعل لا يؤثر في الفعل الذي يسبقه من حيث المطابقة معه في الافراد والتثنية والجمع . وتبقى صيغة الفعل نفس الصيغة الاصلية في الماضي او المضارع (الغائب المفرد) سواء كان الفاعل الذي يليه مفردا او مثنى او جمعا كما في (نام الولد ، نام الولدان ، نام الاولاد) او (ينام الولد ، ينام الولدان ، ينام الاولاد) .

لذا فإنا نقترح تسمية حالة رفع الفاعل المعبّر عنه باسم ظاهر يلي الفعل ، حالة رفع غير مطلق،لانه مقيد في وجوده بوجود فعل يسبقه.كما نقترح تسمية استخدام الفعل في الموضع الاول في الجملة قبل الفاعل استخداما غير مطلق ، وذلك لان مثل هذا الاستخدام للفعل في حالة كون الفاعل شخصا ثالثا (غير المتكلم وغير المخاطب) يمنع تقدير ضمير مستتر في صيغة الفعل يشير الى الفاعل ، ويوجب ذكر اسم ظاهر مرفوع بعد الفعل يشير الى الفاعل .

٢ ـ الجملة العربية التي تبتدىء باسم اسند اليه فعل (الولد نام) او (زيد قام) . هي في المستوى الساكن (النحوي) جملة يميز فيها جزآن منفصلان عن بعضهما . ولذلك فانها في المستوى المتغير (الاخباري) يمكن ان تخضع للتقسيم الوظيفي الى موضوع ومحمول الكلام . ان المسند اليه في هذه الجملة الذي يعبّر عن معلوم بالنسبة للسامع يمكن ان يكون نقطة الابتداء في الكلام ، لذلك يصلح ان يكون موضوعا للكلام . والفعل المسند الذي يلي، الاسم يعبّر عن معلوم لانه ذكر امام السامع من قبل في السياق الكلامي . وقد اشار الجرجاني الى ان (تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل) . فالجملة في هذه الحالة تحمل خبرا غير ابتدائي ، ويصلح الفعل في هذه الحالة ان يكون محمولا للكلام . ولهذا السبب دعا النحويون المسند اليه حين يسبق الفعل (مبتدأ) وليس (فاعلا) .

والمبتدأ في هذه الجملة يمكن ان يكون ضمير رفع بارز منفصلا او اسما ظاهرا مرفوعا . وليس الفعل عاملا في رفع المبتدأ ، لان الفعل لايعمل الرفع الا بفاعله الذي يليه . وحالة رفع المبتدأ غير مقيدة في وجودها بوجود الفعل بعدها . لذا نقترح تسمية حالة رفع المبتدأ حالة رفع مطلق لانه ينوى فيه ابتداء الكلام . وقد اشار الجرجاني الى ذلك بقوله (لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل الا لحديث قد نوي اسناده اليه) .

ان المبتدأ يؤثر في الفعل الذي يليه ويسند اليه من حيث ضرورة المطابقة معهفي الافراد والتثنية والجمع ، كما في (الولد نام ، الولدان ناما ، الاولاد ناموا) أو (الولد ينام ، الولدان ينامان ، الاولاد ينامون) . كما نقترح تسمية استخدام الفعل في الموضع الثاني في الجملة بعد المبتدأ استخداما مطلقا ، وذلك لان مثل هذا الاستخدام للفعل ، في حالة كون المسند اليه ـ المبتدأ شخصا ثالثا مفردا ، يستوجب دوما تقدير ضمير مستتر في صيغة الفعل يشير اليه الفاعل .

وهكذا تبين لنا بجلاء تام ان الدعوة (الى القيام باصلاح جوهري لقواعد الصرف والنحو المدونة) التي نادى بها الاستاذ ساطع الحصري تنطلق

من عدم فهم الخصائص البنيوية الوظيفية للغة العربية . وتؤدي في خاتمة المطاف الى تبني الدعوة الى وضع قواعد جديدة للعربية لاتأخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة لبنية اللغة العربية . لقد اغفل الاستاذ الحصري خصائص البنية اللغوية ، لانه تصور ان القوانين المنطقيـــة تستوجب بالضرورة تطابق المقولات المنطقية والمقولات اللغوية .

الفئة الثالثة : تدعو الى **التبسيط عن طريق تبني النحو الوظيفي** الذي اساســه وظيفة الكلمة في الجملة **دون اجراء أي تغيير في جوهر اللغة وأوضاعها العامة** . وتبنت ذلك لجنة وزارة المعارف المصرية المؤلفة عام ١٩٣٨ للبحث في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة . وأقرّ ذلك التيسير مجمع اللغة العربية بالقاهرة(٢٩) .

ويقضي التيسير المقترح بما يلي :

٣ ــ الاكتفاء بالاشارة الى ان المسند اليه يكون اسما ظاهرا او ضميرا اليـــه) ، وكل ماعداهما (تكملة) .

٢ ــ الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي .

٣ ــ الاكتفاء بالاشارة الى ان المسند اليه يكون اسما ظاهرا او ضميرا او مصدرا مفهوما من جملة .

٤ ــ الاكتفاء بالاشارة الى ان المسند يكون اسما او فعلا او جملة او ظرفا أو جارا أو مجرورا .

اننا نرى أن هذه الدعوة الى التيسير مصيبة فقط من حيث انها تؤكد على وظيفة الكلمة في الجملة . ولكنها قاصرة لانهـا لاتأخذ بالاعتبـار الخصائص البنيوية للكلمة والجملة في العربية من جهة اخرى،ولانها تتابع دراسة الجانب الساكن للجملـة في علم النحــو ، اما الجانب المتغير (الاخباري) فتتابع دراسته في علم البلاغة .

الفئة الرابعة : تدعو الى **اعادة توحيد صرف العربية ونحوها ومعانيها في علم واحد** يبين خصائص بنية العربية ويؤكد على الوظيفة الاساسية للغة كوسيلة للاتصال بين الناس .

اننا ندعو الى توحيد « علم قواعد اللغة العربية » من منطلق بنيوي وظيفي. ان الدراسة الوظيفية للغة التي تنطلق من نظرية الامام الجرجاني اللغوية تستوجب دراسة الجملة من حيث بنيتها النحوية (الساكنة) ومن حيث بنيتها الاخبارية (الديناميكية)، لذا فانها تستوجب قبل كل شيء توحيد علمي النحو والمعاني وعدم الفصل بينهما، كما تستوجب أيضا عدم الفصل بين دراسة الاصوات اللغوية وقواعد الصرف من جهة وبين قواعد النحو والمعاني من جهة اخرى . ان الدراسة الوظيفية للغة تدرس اللغة كنظام للاصوات والدلالات يتألف من بنى ذات مستويات مختلفة ، تساهم جميعها في قيام اللغة بوظيفتها الاساسية كوسيلة للاتصال بين الناس .

اننا نعتقد اننا قد دخلنا عصور الانحطاط في مجال العلوم اللغوية حين فصلنا علوم البلاغة عن صرف العربية ونحوها . ويمكننا القول انه قد تم منذ ذلك الحين الفصل بين اللغة العربية الفصحى وبين الحياة . وقد انعكس ذلك سلبيا على فهمنا لخصائص لغتنا العربية وبالتالي على فهمنا لتراثنا اللغوي . ونرى اننا لن نخرج من عصور الانحطاط في مجال العلوم اللغوية الا باعادة توحيد صرف العربية ونحوها ومعانيها في علم واحد هو « علم قواعد اللغة العربية » يشتمل على تمهيد في الاصوات اللغوية . ان « علم قواعد اللغة العربية » سيؤدي حتما الى تسهيل تدريس قواعد اللغة العربية الفصحى لابناء الامة العربية ، وسيعيد ربط اللغة العربية الفصحى بالحياة من جديد ، وسيساهم بالتالي في الخروج بشكل علمي من الازدواجية اللغوية التي نعيشها .

ان دعوتنا الى اعادة توحيد صرف اللغة العربية ونحوها ومعانيها في علم واحد تستوجب اولا اعادة النظر في مناهج التدريس في اقسام اللغة العربية في الجامعات ، وذلك تمهيدا لاعادة النظر في مناهج تدريس « قواعد اللغة العربية » في المدارس .

الحواشي :

(١) « المعرفة » ـ العدد ٢١٦ ، (ص ٧٠ ـ ٧٢) .

(٢) « المعرفة » ـ العدد ٢١٦ ، (ص ٧٨) .

(٣) « المعرفة » ـ العدد ٢١٦ ، (ص ٧٨ ـ ٧٩) .

(٤) « المعرفة » ـ العدد ٢١٦ ، (ص ٨٥) .

(٥) زكي الارسوزي ـ المؤلفات الكاملة ـ المجلد الاول .

(٦) المؤلفات الكاملة ـ المجلد الاول ، (ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩) .

(٧) المؤلفات الكاملة ـ المجلد الاول ، (ص ٣٤١ ـ ٣٤٤) .

(٨) حول محاولات تيسير القواعد العربية انظر :

The modern Arabic literary language, Lescical and stylistic development , By Jaroslar Stetkevych , The university of Chicago press , Chicago and London .

(٩) رجعنا في هذا الموضوع الى كتاب « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي ، دار العلم للملايين (بيروت) ومكتبة النهضة (بغداد) ـ الطبعة الاولى . ونقتبس منه بعض الفقرات كاملة .

(١٠) « المفصل » ـ الجزء الثامن ، (ص ١٨٥ ـ ١٨٦) .

(١١) « المفصل » ـ الجزء الثامن ، (ص ١٨٨ ـ ١٩١) .

(١٢) انظر « محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية » القاها الاستاذ أمين الخولي على طلبة قسم الدراسات الادبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ـ القاهرة ١٩٥٨ .

(١٣) انظر « مقدمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد » للاستاذ عبد الله العلايلي ـ المطبعة العصرية بمصر .

(١٤) انظر « الاحرفية او القواعد الجديدة في العربية » ، يوسف السودا ـ بيروت ١٩٥٩ .

(١٥) انظر مقدمة كتاب « الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي » نشره وحققه الدكتور شوقي ضيف . دار الفكر العربي ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٩٤٧ .

(١٦) انظر « آراء واحاديث في اللغة والادب » للاستاذ ساطع الحصري ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٥٨ .

(١٧) « آراء واحاديث في اللغة والادب » ، (ص ٨٦) .

(١٨) « آراء واحاديث في اللغة والادب » ، (ص ١٠١) .

(١٩) « آراء واحاديث في اللغة والادب » ، (ص ١٠٤) .

(٢٠) « آراء واحاديث في اللغة والادب » ، (ص ١٠٧)

(٢١) « آراء واحاديث في اللغة والادب » ، (ص ١٠٨) .

(٢٢) « آراء واحاديث في اللغة والادب » ، (ص ١٠٩) .

(٢٣) انظر مقالتنا « حول بعض القضايا المتعلقة باللغة العربية وكيفية دراستها » ـ مجلة المعرفة بدمشق ـ العدد ١٧٨ ـ كانون الاول ١٩٧٦ « اللغة العربية والعصر » .

(٢٤) « مفتاح العلوم » للسكاكي ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٧ ، ص ٤٢ .

(٢٥) انظر مثلا كتاب ب. غراندة بالروسية « القواعد العربية في عرض تاريخي مقارن » ، وانظر كذلك :

M. M. Bravmann , Studies in Arabic andgeneral Cyntase , Jmprimerie de l'institut Froncais de' archeologie Orientale, le Caire , 1953 .

وانظر كذلك :

A. F. L. Beeston , The Arabic language today , Hutchinson University library , London , First Published , 1970 .

(٢٦) « الموجز في تاريخ البلاغة » للدكتور مازن المبارك ـ دار الفكر ، ص (٥٠ ـ ٥١).

(٢٧) انظر مثلا : « مدرسة البصرة النحوية » للدكتور عبد الرحمن السيد ـ توزيع دار المعارف بمصر .

(٢٨) انظر « دلائل الاعجاز في علم المعاني » للامام عبد القاهر الجرجاني ـ صحح أصله الامام محمد عبده والشيخ التركزي الشنقيطي ـ علق حواشيه محمد رشيد رضا ـ الناشر مكتبة القاهرة ـ ١٩٦١ .

(٢٩) انظر : « تحرير النحو العربي » ـ قواعد النحو العربي مع التيسير الذي قرره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ الفه الاساتذة ابراهيم مصطفى واخوانه ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٨ .

العربية أقدم اللغات السامية

د . احسان جعفر

قد يُسأل : اي اللغات السامية اقدم . وبالتالي اي اللغات السامية الحية اقرب صلة واقوى شبها باللغة السامية الاولى .

وقد يَعلق هذا السؤال ، ولكن الاكتشافات الآثارية الحديثة اماطت اللثام عن جوانب يمكن ان تصل بنا الى الاجابة عن هذا السؤال المهم . ولقدماء علماء السامية آراء بنيت على اعتبارات تقديسية دينية ونفسية في قدم لغات ابناء سام ، فتعصبت كل طائفة منهم للغتها ، وحملهم هذا على الانزلاق في الاوهام، فزعم بعض الدارسين ، في بادىء الامر ، ان جميع اللغات السامية استلهمت اللغة العبرية* وهم في زعمهم هذا انما كانوا متأثرين بما كان احبار اليهود في العصور القديمة يعتقدونه من ان اللغة العبرية هي اقدم لغة في العالم .

(*) بدأت دراسة الساميات باللغة العبرية ، ولا سيما في اوربا ، فوقعت هذه الدراسات تحت تأثير علماء التلمود ، ولم يمضِ طويل وقت حتى ظهر رد فعل على تهويد هذه الدراسات ، حيث برزت في منتصف القرن الثامن عشر حركة لغوية ترمي الى اعتبار اللغة العربية مفتاح اللغات السامية ، وكان زعماء هذه الحركة من الهولنديين ، على رأسهم شولتنز وابنه وحفيده .

وذهب آخرون الى تقديم اللغة الآرامية على غيرها جاعليها البنت الاولى للسامية الاصيلة ، وانها كانت لغة السيد المسيح ، وثمة من يقول : ان اللغة الآكدية (الآشورية ـ البابلية) بالنسبة الى اللغات السامية كاللغة السنسكريتية بالقياس الى اللغات الهندواوربية(١) .

وقال بعض المستشرقين ان نصف اللغة العبرية الخاص بترتيب الجمل اقدم من العربية ، والنصف الآخر الذي يختص بالكلمات والاوزان احدث منها(٢) .

ثم تنازلوا عن هذه الآراء جميعها ، لأنها لم تستند الى بحث علمي وادلة لغوية مقنعة ، وبخاصة بعد ان رفدتنا اوغاريت ومن ثم إيبلا بحقائق لغوية ، ادت الى انقلاب في الدراسات السامية ، لانه قبل سنة ١٩٢٩ ، وهي السنة التي اكتشفت فيها أوغاريت ، لم يكن لدينا معلومات متكاملة عن اية لغة سامية بائدة الا اكدية القرن العاشر قبل الميلاد ، وكان من المتعذر ان نستشف منها شيئا ما عن اللغات السامية التي كانت سائدة في سورية ولبنان وفلسطين ، واخذ الباحثون بعد ذلك يعضدون الراي القائل بأن هنالك صلة كبيرة بين اللغة العربية واللغة السامية الاولى ، وحجتهم في ذلك أن في العربية آثارا موغلة في القدم تقرب كل القرب من لغة سام ؛ فثمة تشابه في الخواص ، ومقاطع الكلمات ، والالفاظ ، والتراكيب ، وقد احتفظت ، فضلا عن ذلك ، بعدد من الظواهر اللغوية التي تفوق الهجرة الآكدية سنة ٢٥٠٠ ق.م قدما(٣) .

ـ ١ ـ

ومن العلماء الذين دل استقراؤهم وبحثهم العلمي الذي اهتدوا اليه على قدم العربية « اولمستد » الذي يرى : « ان البدو العرب كانوا أول من تكلم باللغة السامية »(٤) وعبد الله فيليبي الذي يعتقد ان : « اللغة العربية اقرب من جميع اللغات السامية الى اللغة الأم الأصلية ... وهي على الاغلب اقدم لغة في العالم ما زالت حية حتى يومنا هذا »(٥)

ويقول « دي جوج » : « ان اللغة العربية تقرب كثيرا من اللغة السامية الاولى ، وتتصل بها اكثر من اللغات السامية الاخرى »(٦) .

ويرى ولفنسون : « ان اللغة العربية تحتوي على عناصر لغوية قديمة جدا بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم بعيدة عما يتوارد عليه من تقلبات وتغيرات »(٧) وفي طليعة المستشرقين الذين تبنوا قدم العربية يقف « اولسهوزن » الذي يقول : « إن العربية هي أقرب اللغات السامية الى اللغة السامية القديمة » ، وايد اولسهوزن رايه هذا بعدة ادلة ارتاح لها الكثيرون من المستشرقين(٨) ، ويؤكد « نولدكة » ذلك فيقول : « واذا تبين الآن اكثر من ذي قبل ان اللغة السنسكريتية لم تكن في المرتبة التي تؤهلها للاحتفاظ بخصائص اللغة الهندواوربية الاولى ــ كما كان يظن منذ زمن قليل ــ فانه لا يجوز للمرء ان يعترف للغة العربية في موضوعنا هذا باكثر من قرب العلاقة بالسامية الاولى . حقا لقد احتفظت العربية اكثر من اخواتها بكثير من الصور الصادقة لعناصر اللغة الاولى مثل الكمية الاصلية تقريبا من الاصوات الساكنة وكذلك الحركات القصيرة في المقاطع المفتوحة ، ولا سيما في وسط الكلمات » (٩) .

ومثله يؤكد فيليب حتي هذا الرأي فيقول : « وعلى الرغم من ان العربية هي احدث اللغات السامية من حيث الادب المدون فقد حافظت اكثر من العبرانية وشقيقاتها من اللغات السامية جميعا على خصائص اللغة السامية الام »(١٠) ، اما جواد علي فيلاحظ ان : « العربية انسب اللغات السامية للدراسة واكثرها ملاءمة للبحث »(١١) ، والى مثل هذه الآراء ذهب فون كريمر وجويدي ورايت واوليناري وآخرون(١٢). . لا بل ان « دوسو » قال بصريح العبارة : ان حمورابي ملك بابل هو عربي (١٣) ، وذلك بعد ان اطلع على المادة اللغوية التي كتبت بها شريعته ، ويقول فيليب حتي بصدد تشابه سفر ايوب من حيث الالفاظ واسماء الاعلام والصيغ مع اللغة العربية : « ان ايوب الذي ابتدع ارقى شعر في العالم السامي القديم لم يكن عبرانيا بل عربيا»(١٤) وهذا يؤكد

أسبقية اللغة العربية على غيرها من اللغات السامية وان الاسرائيليين سرقوا هذا الشعر الحكمي وأضافوه الى توراتهم .

ولعل آخر من اعترف بأن العربية ام اللغات السامية الدكتور انيس فريحة الذي يقول : « تشير اللغة اخيرا الى ان الشعوب السامية جميعها من أصل عربي ، ويشاركني في هذا الراي كبار المستشرقين بناء على ادلة لغوية . لهذا يشدد الالمان في جامعاتهم على تعليم اللغة العربيـة للراغبين في التخصص في اللغات السامية . من يعرف العربية يسهل عليه دراسة اللغات السامية الاخرى لانها قريبة الصرف والنحو والمفردات ، حتى اللغة الحبشية قريبة من اللغة العربية»(١٥). وهـذا مـا كان قـد ذهب اليه سبرنجر : « من ان جميع الساميين عرب » حيث ضمن هذا الراي كتابه : « جغرافية بلاد العرب القديمة » .

ـ ٢ ـ

ولقد أسهمت الدراسات المقارنة للغات السامية من حيث الصيغ والالفاظ والتصريف والاعراب والأصوات في ايضاح جوانب كثيرة من حياة اللغـة العربية في عصرها السحيق ، قبل تدوينها ، والامثلة كثيرة على نتائج هذا البحث المقارن بالنسبة الى العربية ، فاللغة الاكدية(١٦) ، مثلا ، التي وصلتنا مكتوبة بالخط المسماري المقطعي تحتفظ بظاهرة الاعراب القديمة، ومعنى هذا بالنسبة الى تاريخ اللغة العربية ان وجود النهايات الاعرابية يفوق الهجرة الاكدية قدما ، وان الاكديين خرجوا بهذه الظاهرة من مهد الساميين الاول الذي نرجح كونه جزيرة العرب ، فالاعراب في العربية والاكدية اقدم من سنة ٢٥٠٠ ق . م ، وعمره أكثر من خمسة وأربعين قرنا ، هذا مع ملاحظـة اشتراكهما في هـذه الظاهرة مع الاوغاريتية والحبشية ، وتجرد السريانية والآرامية منهـا ، وضآلتها في العبرية القديمة والبابلية القديمة(١٧) ، فضلا عن تجرد جميع اللهجات العربية العامية الحديثة من آثار الاعراب وقوانينه ، وطبيعي ان تجرد اي لغـة سامية من الاعراب يعني حداثتها .

ولنتوقف عند بعض الكلمات الاكدية التي وصلتنا عبر الرقم والنقوش ، فكلمة عين في العربية كتبت بما يقابل صوتيا enu (اين) ، وكلمة حقل في العربية دونت في الاكدية بما يقابل eglu (إيقل) ، ومعنى هـذا الحاء والعين ضمن الاصوات الحلقية التي فقدتها اللغة الاكدية ، وهذا يومىء الى ان العربية تمثل هنا المرحلة الاقدم فاللغات السامية الاخرى الكنعانية والارامية احتفظت مع العربية بالصيغة الاقدم ، والذي اتفق عليه الباحثون بالادلة العلمية ، ان الاكدية تمثل الصيغة الاحدث رغم قدم نقوشها ، وهذا امر طريف للغاية ، فالعربية التي وصلتنا بعد الاكدية بآلاف السنين قد احتفظت ، في عزلتها بالصحراء ، بالدلالات الاعرابية للاسم ، واحتفظت بعدد من الاصوات التي هجرتها بعض اللغات السامية الاخرى(١٨) .

وعندالتعرفعلى اللغة الاوغاريتية وجد علماء الساميات ان هذه اللغة التي تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة بشكل خاص وترجع الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد اي أقدم من العربية ، تحتفظ بظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون انه خاصة عربية ، ومعنى ذلك انه ثبت بين العلماء ان ظاهرة المنع من الصرف قديمة في اللغات السامية ، وان العربية احتفظت بها ، بينما فقدتها مع الزمن اكثر هذه اللغات(١٩) .

ومن ظواهر العربية التي اكدت اللغة الاوغاريتية انه قديم ظاهرة التعريف بال(٢٠) واستعمال الاسم الموصـول (ذو) وبعض استعمالات حـرف العطف الفاء(٢١) .

وكشف العلماء من آثار بلاد النبط بعض حروف الجر التي كانت تستعمل في مثل موضعها من الجملة في اللغة العربية قبل ثلاثة آلاف سنة ، فاذا قدرنا ان حرف الجر عـادة هو اسم أو فعل مختزل لا تتعود الالسنة اختزاله قبل انقضاء مئات السنين ، فلا بد من تقدير زمان سابق لتاريخ تلك الكتابة النبطية ، بعدة قرون ، كانت فيها اللغة العربية لغة تركيب واعراب بقواعدها التي تطورت مع الزمن حتى وصلتنا الى ما هي عليه ، وبلغت فيها قواعدها غاية مداها من الضبط والاستقرار(٢٢) .

ومن مقارنة اللغة العربية والسريانية والعبرية من جهة والاكدية التي هي ـ حسب البحث العلمي ـ اقدم من السريانية والعبرية معا ، من جهة اخرى ، نتوصل الى أن العربية اقدم من السريانية والعبرية ، لان العربية كما يتجلى ذلك تتوافق مع الاكدية أكثر مما نشهده لها من توافق مع السريانية والعبرية ، فصيغ الافعال في الاكدية اقرب الى الصيغ العربية منها الى سائر اللغات السامية، وكذلك ثمة تشابه في الاسماء والمفردات(٢٢)، وظواهر لغوية عديدة ، منها ظاهرة الاعراب ، كما نوهنا ، ومنها ايضا ظاهرة التنوين التي تشترك فيها العربية مع الاكدية والاوغاريتية فقط ، وهي في الاكدية « ميم » ، وفي العربية « نون » ، وهما تتبادلان ، ومنها علامة الجمع التي هي في الاكدية « ون » كما في العربية ، بينما هي في السريانية « ين » ، وفي العبرية « يم » ، وواضح ان علامة الجمع في العربية التي تتخذ شكلين « ون » رفعا و « ين » نصبا وجرا ، هي اللاحقة الاقدم .

وهذا التشاكل والتداخل بين العربية والاكدية لاكبر دليل على قدم اللغة العربية وعلى عروبة اللغة الاكدية ايضا ، وبخاصة في عهدها الاول قبل تأثرها بلغات الاقوام المجاورين ، ومما يذكر بهذا الصدد ان المؤرخين نقلوا عن بروسوس المؤرخ الكلداني : « ان في العراق قد قامت للعرب دولة دام حكمها ٢٤٥ سنة تأتي بعد دولة الكلدان ، وتنتهي بدولة الآشوريين وعدد ملوكها تسعة » .

ويرى الباحثون ان هذه الدولة هي دولة حمورابي ملك بابل ، ونحن نعتقد ان اللغات السامية كانت قبل خروجها من الجزيرة العربية متوافقة ، وما كان بينها من اختلاف لا يعدو الاختلاف الذي شهدناه للهجات العربية التي كانت سائدة في جزيرة العرب قبل الاسلام والتي وصلتنا عبر المصنفات العربية القديمة ، وان الاختلاف الذي تم بعد ذلك كان من جراء التأثر والتأثير بين هذه اللغات السامية وبين اللغات القديمة التي كانت في الشام والعراق من سومرية وحبشية وحورية . . .

- ٣ -

هذا ويجب التنبه الى ان اللغة العربية تنفرد بين مجموعة اللغات السامية بالاصالة والفصاحة والبعد عن المؤثرات الخارجية ، فقد وجد العلماء ان اللغة الاكدية (الآشورية ـ البابلية) انما وصلت الينا بالفاظ قليلة يعسر على ضوئها الحكم على مدى اقدميتها . كما دل البحث العلمي على ان هذه الالفاظ القليلة ليست سامية خالصة ، بل تختلط بها الفاظ سومرية اقتبست من لغات سكان بابل الاصليين بحيث اندمجت بها مشكلة لغة واحـدة(٢٤) .

ووجدوا انه على الرغم من وفرة الآثار اللغوية الآرامية القديمة ليس من المستطاع وضع الاسس الصحيحة لقواعد الآرامية القديمة وكيفية النطق بالفاظها وتصريف أسمائها وافعالها ، لان مجموع تلك الآثار ليس فيه المادة الكافية للركون الى نظرية واحـدة ، فضلا عن ان بعض اللهجات الحديثة المتفرعة منها ، كاللغة السريانية الحديثة ، قد طرأ عليها تغيير كبير مما ادى الى اختفاء كثير من مميزات اللغات السامية فيها بحيث اصبحت بعيدة جدا عن امهاتها القديمة اذ تسرب اليها كثير من الالفاظ العربية والتركية والفارسية والكردية(٢٥) .

اما اللغة العبرية فهي مزيج من الكنعانية والآرامية ، ومنذ نفي بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد اخذت عوامل الفناء تدب اليها ، واخذت الآرامية تحل محلها حتى لقد قام الربانيون اليهود بنشر تعاليم دينهم بين افراد شعبهم عن طريق نقل الكتب المقدسة والمؤلفات الدينية من العبرية التي انقرضت من التخاطب في ذلك العصر الى الآرامية التي غدت لغة اليهود في حياتهم اليومية(٢٦) .

- ٤ -

ثم جاءت الاكتشافات الاخيرة في بعض المواقع الآثارية في سورية والعراق التي جعلتنا امام منعطف جديد يستند على اعتبار اللغة العربية المقياس في فهم اللغـات السامية القديمـة وأساس اي مقارنة لكشف التاريخ

السحيق لكل لغة من اللغات السامية ، وقد اثبتت الندوة العالمية الاوغاريتية التي أقيمت في اللاذقية بمناسبة مرور خمسين عاما على اكتشاف مدينة اوغاريت الكنعانية – ومن خلال الوثائق – ان اللغة العربية هي المرجع والمصدر والمقياس الحقيقي للتعرف على اللغات السامية .

وقد فطن كلود شيفر مكتشف اوغاريت الى هذه الناحية حيث يقول : « ان اللغة الاوغاريتية الكنعانية تؤلف اقدم مصدر للغة العربية »(٢٧) ، ومما يذكر ان العربية استعملت بأشكال شتى في ايضاح معاني الاوغاريتية، فقد كان ثمة اتجاه قوي لاستخدام العربية ، ومن ابرز من ناصر هذا التقليد ج. ر. درايفر و ج. كسراي و ج. اسليتز .

وكنت في دراسة لي عن لغة اوغاريت – قد ذكرت ان اللغة الاوغاريتية التي تنتسب الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد اي اقدم من اللغة العبرية ، « ليست سوى لهجة عربية قدمى وتتضح ذلك اذا اراد الناطق ان يتصرف بالمد والقصر او التفخيم والترقيق او الاشمام او الامالة في اداء الاصوات لكون الابجدية الاوغاريتية خالية من الاصوات القصيرة ، ومن الكلمات المشتركة بين العربية والاوغاريتية التي لا يمكن حصرها برقم ثابت « نهر ، اب ، اخ ، يد ، نعمة ، حلم ، بتول ، كرم ، موت ، يم ، حقل الخ ... »(٢٨) .

وذهبت في تحقيق آخر الى ان اوغاريت احدى دول العرب البائدة ، وان اسم اوغاريت ما هو الا تحريف للاسم العربي « الحُجُرات » بضمتين . وعلى ضوء اكتشاف لغة إيبلا التي تعود الى سنة ٢٤٠٠ ق.م ، وصل العلماء الى « مصدر اللغة العربية » ، فأزيح الستار عن ان اللغة الايبلائية الكنعانية القديمة التي تشاكل العربية وتتداخل معها هي اللغة الام للغات السامية التي ظهرت فيما بعد لا سيما اللغة الكنعانية المؤبجدة التي استخدمها بعد الف سنة اهل اوغاريت (شمالي اللاذقية) واللغة الفينيقية التي عرفها بعد اكثر من الف سنة اهل مدينة بيبلوس (جبيل)، وهذه اللغة لهجة غربية تختلف قليلا عن اللهجة الشرقية الاكدية ، وان

كانت مشاكلة تماما للهجة (ابو صلابيخ) الموقع المكتشف في شمالي العراق والذي يعود الى عصر مملكة إيبلا ، وفي لغة إيبلا نجد كلمات لا تزال حية في اللغة العربية حتى يوم الناس هذا ، مثل كتب ، ملك ، يد ... واسماء مزروعات مثل قمح ، جزر ، تين ، (تينو) ، ومائة (مية) ، وهذا ما يشير الى اصل اللغة العربية ، ومن ثم قدم اللغة العربية التي كانت آخر لغة سامية تنفصل عن اللغة الصحراوية الام .

* * *

لهذا وانطلاقا من ترجيح كون الجزيرة العربية مهد الساميين الاول ، فان الساميين جميعا هم من الاصل العربي ، وان لغاتهم ترجع الى لغة عربية قديمة هي اللغة السامية الاولى ، وان منزلة اللهجات السامية من اللغة العربية هي منزلة الفروع الدانية من الاصل ، ولذلك نجد الفروق اللغوية بين اللهجات السامية جميعها ضئيلة ، والذي نؤثره ونستند في ايثاره على الشواهد المستقاة من اللغة هو تغليب كلمة « العربية » على كلمة « السامية » على اختلاف مدلولاتها ، حيث يرجع الشأن الى اربعة آلاف سنة من تاريخ هذه اللغات القديم أو على الاصح من تاريخ تلك اللهجات كما ينبغي ان تسمى في ذلك الحين لانها كانت قبل اربعين او خمسين قرنا لهجات تتفرع من اصل واحد قديم ، ولان اسم العرب ورد منذ عصر سرجون الاول حوالي سنة ٢٨٠٠ ق.م حيث تذكر الآثار البابلية اسم عرب ملوكة او عرب ملوتة وعرب مجان أو معان . فضلا عن ان الفرس واليونان والرومان اطلقوا اسم العرب على سكان جزيرة العرب منذ الالف الاولى قبل الميلاد .

وما البابليون والآشوريون والكنعانيون والآراميون(٣٠) سوى اسماء سياسية لشعب واحد هو ذلك الشعب العربي القديم الذي خرج من جزيرته ، وهنا يجدر بنا ان نتنبه الى ان العبرانيين طراوا على المنطقة من مكان مجهول ، ثم اختلطوا باهلها ، وهجروا لسانهم الذي كان لهم من قبل ، وتكلموا بلسان جيرانهم من الكنعانيين ، ثم تطور هذا اللسان

الكنعاني المسروق في افواههم ، فكان منه ما سمي باللسان العبري(٢١) بشهادة العبران انفسهم الذين كانوا يقولون انهم « تعلموا شفة كنعان » اي لغة كنعان(٢٢) .

وانطلاقا من ذلك فاننا لن نقبل اصطلاح « السامية » بعد الآن ، هذا الاصطلاح الذي طعن بصحته العديد من العلماء ، على رأسهم نولدكه واوليناري والذي اسقطته ، مؤخرا ، حجارة ايبلا التي تكلمت ، وكان قد وضعه جزافا شلوتسر سنة ١٧٨١م ، مستندا على تقسيم التوراة للامم بنسبتهم الى ابناء نوح الباقين بعد الطوفان : سام وحام ويافث ، حيث قال في « فهارس الادب الشرقي والتوراتي » مجلد ٨ صفحة ١٦١ ، ما نصه : « من المتوسط الى الفرات ، ومن بلاد النهرين الى شبه الجزيرة العربية تسود ، كما هو معلوم ، لغة واحدة . وعليه فالسوريون والبابليون والعبرانيون والعرب كانوا امة واحدة والفينيقيون الحاميون ايضا يتكلمون بهذه اللغة التي اود ان ادعوها سامية » .

وواضح ان هذه التسمية المصطنعة التي وضعت مصادفة ، خطأ لاسباب كثيرة منها انها تعتمد على فكرة الانساب الواردة في التوراة (سفر التكوين ، الاصحاح العاشر) ، وهي فكرة لا ترتكز على اسس علمية وواقع تاريخي ، انما تعتبر اكثر ما تعتبر الحدود الجغرافية والعلاقات السياسية اذ تزعم التوراة :

١ ـ ان عيلم وليديا من الساميين ، مع انه من الثابت علميا ان لغتهم لم تكن سامية .

٢ ـ وتزعم ان الكنعانيين من بني حام (هكذا !) مع انهم هم الساميون العرب سكان فلسطين الاوائل .

٣ ـ وان العبرانيين ساميون مع انهم امشاج مختلفة تضم السومريين والآريين والخوريين .. « عبروا » الى المنطقة من مكان مجهول ، وسرقوا « شفة كنعان » ، كما بينا .

٤ ـ الاضطراب والتحريف في انساب نوح .

وكان منذ ان وضعت هذه التسمية قد تسرب الشك الى الباحثين في صحة ما جاء في جدول انساب نوح بسبب عدم ذكر التوراة للكنعانيين من ابناء سام ، ويعترض (نولدكه) على هذه التسمية بعدة اعتراضات منها :
١ ــ ان هنالك اقواما ساميين بنص التوراة ولكن لا يتكلمون بلغة سامية .
٢ ــ ان هنالك لغات سامية والمتحدثون بها غير ساميين مثل الاحباش الذين هم من الجنس الحامي .

ونرى انه قد ازف الوقت الذي يحتم علينا ان نصحح بلا تساهل هذه التسمية الخاطئة « السامية » . التي تستبطن اعتبارات ثقافية وسياسية واقليمية يمكن ان تستغلها الصهيونية ، وان نطلق اسم اللغات العربية القديمة(٢٢) او اللغات « الاعرابية » بدلا منها ، فنكون بذلك قد لاحظنا عاملين مهمين : عامل القرابة اللغوية والاصل اللغوي ؛ وعامل وحدة المكان « الجزيرة العربية واطرافها » .

وعلينا في الوقت ذاته ان نعيد النظر في تلك التقسيمات التي ورثناها عن المستشرقين الذين كان بعضهم لا يكاد يحسن العربية ، وان يكون ذلك على هدى سنن العربية « الاوسع » و « الافصح » و « الاقدم » ايضا التي احتفظت بكل الاصوات والقواعد الصرفية والنحوية في اخواتها ، فضلا ، عن استئثارها بأوسع ثروة لغوية في المفردات واصول الكلمات مما لا وجود لهذه السعة في اخواتها . لهذا كانت هي اصدق لغات المجموعة « الاعرابية » تمثيلا للغة الام القديمة ، وهذا ما ينفي الزعم الذي وجد من يروج له ، والقائل :

« ان العربية ضمت شتات اللغات السامية بعد الفتح ، ورفعتها الى الكمال الابهى »(٢٥) لان وجود الفاظ ومفردات توافق السريانية او النبطية او الحبشية .. لا يعني اقتباس العربية هذه الالفاظ ، وانما يعني الاشتراك في الاصول اللغوية القديمة ، خاصة وان الصيغة العربية في كثير من الاحايين تكون هي الاقدم بالادلة العلمية والبحث ، على الرغم من تأخر تدوينها .

الحواشي :

(١) انظر كتاب الآداب السامية لمحمد عطية الابراشي .

(٢) محمد بدر ، الكنز في قواعد اللغة العبرية ، ص ٤٣ .

(٣) للعرب اقوال بقدم لغتهم ، واخرج ابن عساكر في تاريخه ، عن ابن عباس ، ان آدم كانت لغته في الجنة « العربية » (انظر فقه اللغة المقارن للدكتور ابراهيم السامرائي الصفحة ١٠) ، واورد ابو حاتم الرازي في كتاب الزينة ان انبياء العرب القدماء هود وصالح وشعيب كانوا يتكلمون العربية « الجزء الاول ص ١٤٢ » ويقول الاخباريون ان جرهم الذي كان في سفينة نوح كان يتكلم العربية .

(٤) المستد ، تاريخ فلسطين ، الصفحة ٣٦ .

(٥) فيلبي ، تاريخ العرب قبل الاسلام .

(٦) ربحي كمال ، دروس اللغة العبرية ، الصفحة ١٤ .

(٧) اسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ، الصفحة ٧ .

(٨) انظر مقدمة كتابه عن العبرية وقارن بولفنسون ، صفحة ١٣ .

(٩) تيودور نولدكه ، اللغات السامية ، الصفحة ١٣ .

(١٠) فيليب حتي ، العرب تاريخ موجز ، الصفحة ١٠ .

(١١) د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٢٥٥/١ .

(١٢) د. احمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ .

(١٣) دوسو ، دخول العرب سورية قبل الاسلام ، باريس ١٩٥٥ ، ونرى ان اسم حمورابي مشتق من لفظي عمو ربي ، عمو أو حمو اسم اله عربي قديم أصابه تطور في الدلالة فاصبح يطلق على الاقارب (عم) و (حم) فيكون معنى التركيب المزجي لهذا الاسم الاله عموربي ، ونرى ان هذا الاسم لا يزال مستعملا في العربية الفصحى بصورة « عمرو » وفي العامية « عمورى » .

(١٤) حتي ، العرب تاريخ موجز ، الصفحة ٣٠ .

(١٥) صحيفة النهار ، بيروت ، نهار الاحد ، العدد ١٤٢١٥ ، ١٩٨٠/٤/٦ الصفحة ٨ ، حديث للدكتور انيس فريحة استاذ الدراسات السامية بالجامعة الامريكية سابقاً .

(١٦) أو اللغة العقدية بتعبير أصح ، ويرى المستشرق انوليتمان كتابة « أكد » عوضا عن آكاد .

(١٧) د. صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة ، الصفحة ١٢٤ .

(١٨) د. محمود حجازي ، اللغة العربية عبر القرون ، الصفحة ٢٦ .

(١٩) د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، الصفحة ١٠٦ .

(٢٠) المصدر نفسه .

(٢١) د. جون هيلي ، الاوغاريتية ودراسة اللغات السامية ، مجلة المعرفة ، دمشق ، العدد ٢١٣ تشرين الثاني ١٩٧٩ ، الصفحة ١١٤ .

(٢٢) عباس محمود العقاد ، اشتات مجتمعات .

(٢٣) ان بعض الاسماء التي سقط بعض حروفها بالاستعمال في السريانية والعبرية لا تزال محفوظة في الاكدية كما في العربية مثل انف فانها كذلك فيها بينما سقطت نونها في العبرية والسريانية .

(٢٤) ربحي كمال ، دروس اللغة العبرية ، الصفحة ١٤ .

(٢٥) ولفنسون ، الصفحة ١٥٩ .

(٢٦) ربحي كمال ، قاموس الكتاب المقدس يشكك في عروبة فلسطين ، مجلة الثقافة العربية الليبية العدد السادس ، نيسان ١٩٧٤ .

(٢٧) مجلة الحوليات الاثرية السورية .

(٢٨) احسان جعفر ، لغة أوغاريت الكنعانية اقرب لغة سامية الى العربية مجلة آفاق عربية بغداد ، العدد الرابع ١٩٧٩ ، وانظر دراستنا (اللغة الاوغاريتية أقدم مصدر للغة العربية) صحيفة البعث ـ ١٩٧٩/٦/٢٢ .

(٢٩) احسان جعفر ، الحجرات لا اوغاريت ، صحيفة تشرين الدمشقية .

(٣٠) البابليون نسبة الى الكلمة العربية بابل (باب إل = باب الاله) ، والآشوريون (الآشوريون = الثوريون) والكنعانيون من الكنعة : البقاء والاستمرار ، بينما العبري من العبور فالكنعاني هو الباقي المستمر والعبري هو العابر البدوي ، والآرامي (الارمي) من إرم المذكورة في القرآن وهي تحريف لكلمة عربي (آرامي = ارمي = آربي = عربي) .

(٣١) محمد الانطاكي ، الوجيز في فقه اللغة ، الصفحة ٢١ .

(٣٢) انظر كتاب الدكتور انيس فريحة « ملاحم واساطير من اوغاريت » وقارن بكتابه الآخر « ملاحم وأساطير من الادب السامي » ، الصفحة ٢١٤ .

(٣٣) هنالك جمهرة من الباحثين العرب لهم آراء بصدد اطلاق تسمية عربي وعربية بدلا من سامي وسامية نذكر منهم جواد علي وطه باقر وعمر فروخ والاخير يقترح اعرابية للتفريق بين عربيتنا اليوم والعربية القديمة .

(٣٤) الشيخ نسيب وهيبة الخازن (من العرب الى الساميين) ، الصفحة ٢١ .

الموسوعة العلمية الميسرة

المجلد الاول – الجزء الاول

تأليف : نخبة من المؤلفين

ترجمة : ابراهيم خوري
أدهم عفصة
زهير شنانة
صموئيل شديد
نجيب جوجور

مراجعة : فؤاد خوري
عبد الكريم ناصيف

■ ■ ■

صالبا

رواية

تأليف : يلماز غوني

ترجمة : فاضل جتكر

علم اللسان البيولوجي (١)

مازن الوعر

قام عديد من الباحثين في اللسانيات البيولوجية بجهود ضخمة في العقدين الفائتين وذلك لوضع الاسس والاهداف الرئيسية الواضحة للبحث البيولوجي اللغوي . وقد اكد الباحثون في هذا المجال ان هناك ابعادا فكرية ونظرية لطبيعة اللغة السيكولوجية وقد تبين ان الاعتقاد القائل بأن الخاصة البيولوجية للغة والتي هي ظاهرة فطرية طبيعية غير خاضعة للمؤثرات المحيطة بها انما هو اعتقاد خاطىء في البحث البيولوجي اللغوي .

لقد اثبتت البحوث الطبية المتعلقة بالنظام العصبي للانسان عن عطاءات ونشاطات عديدة زاخرة تنبىء بكشوفات تشريحية جديدة في علم اللسان البيولوجي وذلك لكشف البنية البيولوجية للمقدرة اللغوية عند الانسان . لقد اعتاد الناس ان يكونوا افكارا عامة حول

---

(١) ادين بهذا البحث الى غالم اللسان البيولوجي الامريكي ايريك لينبرج فقد استفدت كثيرا من كتابة « الاسس البيولوجية للغة » Biological Foundationsof Language كما استفدت ايضا من مقالاته وبحوثه التي القادها في الدورة السنوية للسانيات البيولوجية في جامعة جورج تاون في الولايات المتحدة الامريكية .

هذا وقد نوقش هذا البحث في الورة العالمية الخاصة للسانيات التي عقدت في جامعة دمشق من ٢٠ حزيران وحتى ٢٦ تموز ١٩٨٠ .

حقول المعرفة الانسانية . وهكذا فاذا سئل شخص ما عن اختصاصه واجاب بانه عالم لساني فان السؤال الاول الذي سيواجهه ذلك العالم هو : كم لغة من اللغات العالمية تستطيع ان تتكلم ؟ واذا سئل شخص آخر السؤال نفسه واجاب بانه عالم نفسي فان اشارة التعجب ستبدو واضحة على وجه السائل قائلا : هل يمكنك ان تحللني نفسيا ؟ ولكننا اذا سألنا عالما مختصا في بيولوجية اللغة عن اختصاصه فانه لن يكون هناك جواب مقنع وذلك لان الاعتقاد حول هذا الحقل من المعرفة البشرية هو ان مثل هذه الظواهر البيولوجية للغة انما هي طبيعية فطرية لا داعي للبحث فيها ، وهكذا فان البحث البيولوجي اللغوي لن يشكل اية ردة فعلية او اثارة حقيقية .

وتبدو المشكلة اعظم في حالة الفيلسوف الذي لا يملك جوابا لما يعملْ سوى البحث في الماديات والمعنويات .. في السلوك الفطري والسلوك التعليمي .. في الانطواء على نفسه تارة وفي التامل تارة اخرى .

والواقع ان كل هذه الفرضيات والمفاهيم المتشكلة في اذهاننا والتي كنا قد تعلمناها من الاسرة احيانا ومن المجتمع في احايين اخرى انما هي خاطئة ، ذلك لان كل العلوم البشرية هي جزء من وجودنا الفكري والروحي في هذا العالم الفيزيائي الذي يحيط بنا .

ان الهدف الرئيسي من هــذا البحث هــو توضيح بعض المبادىء الاساسية لعلم اللسان البيولوجي الذي اخـذ طريقه ليكون علما قائمـا براسه له اسسه وقوانينه المطبقة على البنية البيولوجية اللغويةللكائنات البشرية كما يجلى ذلـك في البحوث والدراسات الامريكية المعاصرة .

الاهداف الرئيسية لعلم اللسان البيولوجي

ان الهدف الاولي والاخير في البحث البيولوجي اللغوي **هو دراسة العلاقات القائمة بين الوظيفة اللغوية للانسان وبين الوظائف الاخرى في الدماغ البشري .** ولكن البحث في هذه الظاهرة يتطلب جهدا كبيرا بل يحاج الى وقت طويل ايضا لذلك فانــه يستحسن استخدام امثلة غير

مباشرة لمعرفة التركيب الدماغي للانسان كاستخدام الفصيلة الحيوانية مثلا .

والواقع ليست هناك طريقةمفضلة معينة يمكن الإنطلاق منها لدراسة البنية الدماغية ، بل ليست هناك مواد اساسية ومواد فرعية يمكن الاعتماد عليها في دراسة الدماغ بشكل عام ... ان الدراسة البيولوجية للغة ينبغي ان تكون دراسة مبنية على اساس منطقي ترابطي تسلسلي .

ان من أهم القضايا المتعلقة في الدراسة البيولوجية للغة هي **معرفة فيما اذا كانت الحيوانات قادرة على تعلم اللغة** ، وهذا بالطبع يقتضي معرفة كاملة لكيفية اكتساب اللغات الطبيعية وانتقالها عبر الجماعات البشرية بحيث تصبح مألوفة لديهم وجزءا لا يتجزأ من وجودهم البشري .

هناك قضية اخرى مهمة تهتم بها الدراسة البيولوجية للغة **تلك هي معرفة المراحل** الطبيعية **للتطوير اللغوي عند** الاطفال . كيف يبدأ الاطفال بالتكلم ؟ ما هي العوامل المختلفة التي تسيطر على العملية اللغوية عند الاطفال ؟ ما هي المتطلبات الاولية للتطوير اللغوي عند الاطفال ؟ ما هي انواع المواد اللغوية الاولية المقدمة للاطفال من قبل آبائهم وامهاتهم والمجتمع الذي يعيشون ؟ بل ما هي العوامل السمعية والنطقية التي تمكن الاطفال من اتقان العملية اللغوية ؟ ثم ما هي الاسس البيولوجية الاولى للبنية اللغوية عند الاطفال ؟ كيف يمكننا قياس درجة التطوير الفيزيائي والفيزيولوجي من وجهة نظر لغوية بحتة ؟ واخيرا ما هي الظواهر الفيزيولوجية المسيطرة على السلوك اللغوي عند الاطفال ؟

الحقيقة انه لا يمكن لعالم اللسان البيولوجي أن يدرس الاسس البيولوجية للغة دون دراسة الاسس الدقيقة لطبيعة البنية اللغوية نفسها . وهكذا فان الدراسات اللسانية مهمة جدا في الحقل البيولوجي بشكل عام وذلك لتمكين الباحثين البيولوجيين من معرفة الدرجة التي تشير الى أن المتكلم قد بلغ مرحلة ثابتة من التطور البيولوجي في المقدرة اللغوية ولتمكينهم ايضا من دراسة المشكلات اللغوية الفردية وتعميمها

على الجماعات البشرية كلها ، وذلك لان الفرضية البيولوجية هي ان كل افراد البشرية لا تختلف عن بعضها بعضا في العملية اللغوية المتمركزة في الدماغ البشري والتي تمر بالجهاز النطقي ثم بالجهاز السمعي . ان مثل هذه الفرضية القائلة ، ان الجماعات البشرية كلها سوية تجاه العملية اللغوية إنما هي فرضية حقيقية واساسية في النظرية البيولوجية للغة بل انها تعكس بالتالي الخاصة البيولوجية المشتركة عند بني البشر عامة .

وهذا ما يعطي البحث البيولوجي اللغوي بعدا عالميا ، وذلك لان الاعتقاد هو ان الحقائق البيولوجية اللغوية هي حقائق علمية ليست مقتصرة على لغة معينة فقط بل انها تنجر على سائر اللغات البشرية ولا سيما في ابعادها الفيزيولوجية والدماغية والنطقية والسمعية . وربما هذا ما شجع الباحثين في علم اللسان البيولوجي التحدث عن جميع اللغات البشرية بمصطلح واحد هو مصطلح « اللغة » Language .

والواقع لقد تجاهلت الدراسات الاولية في علم اللسان البيولوجي البعد العالمي في دراسة اللغات البشرية ولاسيما خلال العقدين اللذين سيطرت عليهما الدراسات الانثروبولوجية والبنيوية التي قام بها عالم اللسان الانثروبولوجي الاميركي بوس وعالم اللسان البنيوي الاميركي بلومفيلد والحقيقة انه ما يزال هناك مجادلات شكلية جانبية حتى اليوم حول الطبيعة الدقيقة لعالمية الدراسات اللسانية البيولوجية . على اية حال ان البعد العالمي في الدراسات اللسانية البيولوجية يمكن أن يزودنا بمعارف اوسع وآفاق ارحب من اجل بحث افضل وانجح في الدراسات اللغوية .

هناك منطقة ثالثة تهتم بها الدراسة البيولوجية للغة **تلك هي الامراض اللغوية الموجودة على سطح الدماغ البشري والتي يمكن لها ان توقف العملية اللغوية او تسبب لها اضرارا مؤذية (٢) .**

---

(٢) لمزيد الاطلاع على الامراض اللغوية يمكن للقارىء ان يرجع الى بحثنا « الامراض اللغوية سبر للتجربة الاميركية » المنشورة في مجلة المعرفة الدمشقية الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد القومي العدد ٢٠٤ شباط ص ٢٠٨ .

والواقع ان البحوث التقليدية المتعلقة بالدماغ البشري وبالمناطق القشائية المحركة للعملية اللغوية مازالت محدودة ليست ذا شأن كبير في الدراسات البيولوجية ، من هنا تتبين الاهمية القصوى والحاجة الملحة لدراسة البنية الدماغية دراسة حديثة وكشف العمليات اللغوية والامراض التي يمكن لها أن تشل تلك العمليات اللغوية وتوقفها .

على ان دراسة المرض اللغوي المتمركز في الدماغ البشري هي دراسة ضيقة محدودة ، اذا ما قورنت بدراسة الدماغ بشكل عام وبدراسة السلوك البشري الناتج عنه . من هنا فانه من الضروري على الباحث البيولوجي ان يبحث عن عوامل مساعدة تمكنه من معرفة البنية الدماغية بشكل كلي وذلك من اجل معرفة طبيعة الامراض التي تسبب أضرارا مؤذية للعملية اللغوية .. كعامل السن وكعامل الاختلاف القشائي للدماغ عند الصغار والكبار .

لقد اقيمت دراسات عديدة للبنية الدماغية وذلك من خلال ملاحظة التغييرات اللغوية الناتجة عن استعمال منبهات ومؤثرات كيميائية مساعدة سواء اكان ذلك عن طريق العملية السمعية او العملية البصرية ؛ وقد اعطت مثل هذه الدراسات نتائج ايجابية في معرفة البنية اللغوية المتمركزة في الجانب الايسر من الدماغ البشري .

عمليات الاكتساب اللغوي :

ان الدراسة اللسانية للغات البشرية لا تقود بالضرورة الى اكتشاف الصفات الموضوعية . التي تتألف منها « اللغة » بشكل عام . فعلى الرغم من ان هذه الظاهرة هي مسألة فلسفية فانه يجب علينا ان نواجهها وندرسها بشكل علمي وذلك لتطوير الدراسات البيولوجية اللغوية .

ان الدراسة الفلسفية « للغة » كثيرا ما تقود الى فرضيات ونتائج غير علمية وواقعية . والواقع انه اذا اعتبرنا الفاعلية اللغوية مقدرة معينة لتذكر آلاف الوحدات والرموز اللغوية القائمة على اساس اعتباطي تعسفي

فانه سيكون من السهل علينا ان نحدس الشكل البدائي والاولي لتلك المقدرة اللغوية منذ المراحل الاولى المبكرة لتعلم تلك الرموز والوحدات اللغوية . لقد فهم الباحثون في علم اللسان البيولوجي المقدرة اللغوية على انها فاعلية معينة تتسع لرموز لغوية اعتباطية .. هذه الفاعلية اللغوية تعمل نتيجة مثيرات كيميائية في طرق عالية من التجريد الرياضي والشكلي.

والواقع لقد قارن علماء اللسان البيولوجيين العملية اللغوية في الدماغ البشري بالعمليات الرياضية والشكلية التي تعالج بواسطة الادمغة الالكترونية، وذلك لايجاد الحلول المناسبة لتلك العمليات وربما هذا ما اوضحه عالم اللسان البيولوجي ايريك لينبرج في كتابه « الاسس البيولوجية للغة » فقد أثبت هذا العالم ان الشكل الرياضي البسيط المحلل على الادمغة الالكترونية انما هو شكل ذو علائق نظامية عالية في التجريد.. وهكذا فان العملية اللغوية في الدماغ البشري انما هي شبيهة بالعملية الشكلية الرياضية في الدماغ الالكتروني وذلك لان النشاطات والفاعليات اللغوية في الدماغ البشري تتألف من كمية رموز ووحدات لغوية وربطها مع بعضها بعضا من خلال علاقات منظمة وقوانين مولدة .

والحقيقة ان هذه العلاقات والقوانين الشكلية في الدماغ الانساني انما هي مخفية مستترة غير ظاهرة في البحوث البيولوجية المعاصرة وربما يستدل عليها من خلال الاستعانة بظواهر بيولوجية اخرى كدراسة البنية الدماغية وعلائقها عند الحيوان مثلا . ان صعوبة البحث البيولوجي في اللغة ستزول حتما عندما نعرف البنية الدماغية للانسان من خلالدراسة البنية الدماغية للحيوان ، ان البحث في هذه الظواهر البيولوجية انما هو تحد كبير لعلماء اللسان البيولوجيين . كيف يمكن لنا مثلا ان نعرف ماذا ترى القطة ؟ بل كيف يمكن لنا ان نعرف ماذا يعني المتكلم فعلا عندما يركب رمزين لغويين في دماغه ؟

الواقع انه لا يمكننا معرفة هذا من خلال خطاب انسان لانسان آخر ولكن يمكن التغلب على هذه المشكلة من خلال طريقتين اثنتين :

الاولى : انه يمكننا ان نفترض ان هناك تشابهات اساسية وعالمية بين جميع المخلوقات البشرية يمكن من خلالها ان نحدس التفسير الصحيح لما قد نسمع او نرى في الجماعات البشرية .

اما الثانية فانه يمكننا ان نجمع العينات الاولية من اجل وضع فرضية معينة تتعلق بالعملية الكلامية والسمعية ويمكن بعد ذلك ان نطرح عدة اسئلة تتعلق بتلك العينات اللغوية ونجيب على تلك الاسئلة بشكل واضح حتى يصبح هناك مماثلة ذهنية بين المتكلم والمستمع . ان السلوك الكلامي برمته انما هو جهد بيولوجي مستمر لحل المشكلات الاتصالية المتعلقة بالجماعات البشرية .

البحث البيولوجي سبر للدماغ البشري

ان كل المعارف الفيزيولوجية التي نعرفها عن الدماغ البشري مبنية على البحوث التي اقيمت على الحيوانات بشكل عام . ولكن الحيوانات ـ كما هو معروف ـ ليست لها القدرة اللغوية التي يتمتع بها **الانسان** . من هنا فان كل هذه المعارف الفيزيولوجية للدماغ البشري **لن تكون دقيقة** تماما ولن تكشف بالتالي الاسس التي تنظم الاعصاب الفيزيولوجية المسؤولة عن العملية اللغوية . اضف الى ذلك ان الجهاز الفيزيولوجي وظائف كثيرة غير محددة او مرتبطة بمنطقة معينة وهذا يختلف بالطبع عن الجهاز الفيزيولوجي الحيواني ذي الوظيفة المحددة والمسؤولة عن مناطق معينة .

والواقع ان المنهج الذي يستخدمه العلماء في وصف السلوك البشري كالتعلم والمفهوم والذاكرة والادراك هو مختلف عن المنهج الذي يستخدمونه في وصف السلوك الحيواني ، وذلك لان كثيرا من الظواهر العصبية عند الانسان كالعمل الفكري والاهتزاز العاطفي والتغيرات الشخصية ليست موجودة في الحيوان وهكذا فانه ليس من الدقة العلمية ان نقارن البنى

البيولوجية اللغوية بين الانسان والحيوان . ولكن رغم ذلك فان العلماء يقيمون مثل هذه المقارنات بين البنية الدماغية للانسان وبين البنية الدماغية للحيوان **وذلك لكي يكونوا قادرين على تطوير البنية الدماغية عند الانسان عندما يصاب بضرر او اذى لغوي .**

ان اهمية البحث الدماغي تتعلق بكشفنا ومعرفتنا للاغشية الشبكية الكهربائية الموجودة على سطح الدماغ البشري ونعني بذلك المراكز اللغوية المتمركزة على الجانب الايسر من الدماغ ، ثم أن تلك الاهمية تتعلق بمعرفتنا للبنية الدماغية السفلى التي لها وظائف اخرى مختلفة . والواقع ان المفاهيم الخاصة المتعلقة بالمراكز اللغوية مبنية على مناهج وأساليب معينة لذلك لا يمكننا تركيب البنية الفيزيولوجية العصبية الا باستعمال تلك المناهج والاساليب التي يمكن لها أن تقدم لنا المواد الاولية النظرية البيولوجية .

ان الآفات والامراض اللغوية التي توجد عادة على سطح الدماغ البشري انما تسبب اضطرابات في العملية اللغوية ، لذلك فانه من المستحسن أن نرسم خارطة مفصلة ودقيقة للقشرة الدماغية لكي نبين النتائج المرضية التي يمكن ان تظهر نتيجة العطل والضرر اللغوي .

ولكن الامر يختلف في البحث الدماغي عند الحيوان وذلك لان المراكز الدماغية المصابة هنا تؤثر على السلوك الحيواني كله وربما هذا ما جعل الباحثين لا يولون الاهتمام البالغ في مراكز الضرر الدماغية عند الحيوانات. لقد اثبت البحث البيولوجي اللغوي أن هناك مناطق مختلفة في دماغ الانسان وان كل منطقة من هذه المناطق تختص بوظيفة معينة لها قوة فيزيولوجية واتزان مضبوط . هذه القوة الفيزيولوجية تؤثر على السلوك الخارجي للانسان . من هنا فان العطل والضرر الدماغي يختلف في طبيعته عن الامراض الجسمية الاخرى . انه من الممكن مثلا ايقاف عملية التنفس الانسانية من خلال ضرر واحد فقط ولكن الامر يختلف في حالة وجود مرض او آفة على سطح الغشاء الدماغي . ان اي ضرر او آفة تحصل في منطقة « بروكا » « Broca »في دماغ الانسان تسبب اضطرابا في حركة الدماغ الدينامية ، ولكن مثل هذا الضرر الدماغي لن يكون له تأثير على

القدرة اللغوية المتمركزة في منطقة اخرى من الدماغ . فاذا حدث ضرر في المنطقة الجانبية من الدماغ فان ذلك سيسبب للمريض اضطرابا في عملية الفهم سواء اكان ذلك عن طريق السمع او القراءة ؛ بل يمكن ان يجعل ذلك المرض الانسان ينطق نطقا غير مفهوم ، ولكن ذلك لن يؤثر على عملية التفكير الموجودة في منطقة اخرى من مناطق الدماغ البشري ايضا . **من هنا فان القدرة اللغوية في الدماغ لن تؤثر على بقية المناطق الاخرى القشائية المرتبطة بعضها ببعض اذا ما اصيبت بآفة او مرض معين** ، والواقع ان كل هذه الفرضيات العلمية والبيولوجية حول الدماغ البشري لا تخضع لمعيار الدقة المتناهية . انه من الصعب على العلماء اليوم ان يثبتوا ان هناك بنية وصياغة معينة موجودة في الدماغ البشري غير موجودة في الدماغ الحيواني مثلا .

ولكن العلماء على اية حال قد اثبتوا ان الآفات والاضرار المرضية للدماغ ولاسيما في مراحل الطفولة المبكرة يمكن لها أن تسبب خللا أو اهتزازا للقشرة اللحائية . ولكن البحث البيولوجي اللغوي في الوقت نفسه ما زال عاجزا عن معرفة مثل هذه الاضطرابات والاهتزازات بل هو عاجز ايضا عن معرفة الوظيفة الفيزيولوجية المنظمة للعلاقات الموجودة في البنية القشرية المصابة بخلل او مرض معين . ان الاتصالات الشبكية الكهربائية المرسلة من منطقة الى اخرى داخل الدماغ البشري لا تتم عادة من خلال الحدود الفاصلة بين المناطق الدماغية بل انها تتم من خلال محطات قشرية عميقة كائنة في منتصف الدماغ . لذلك فان أي ضرر او آفة مرضية تصيب مثل هذه المحطات القشرية تسبب الغاء قدرة التعلم عند الانسان بل انه يصبح من المستحيل عليه أن يتعلم لغة جديدة .

والواقع ان قدرة التعلم اللغوية هي عمليةمرتبطة بالانسجام والتعاون بين المثيرات المرئية وبين المثيرات السمعية . ان معرفتنا بأن العملية اللغوية عبارة عن مجموعة العمليات الدماغية الآلية لا يمنع ان نبحث في العلاقات العصبية العامة التي تحدد بدورها نوع السلوك اللغوي وذلك لان الفاعلية اللغوية هي عبارة عن وظائف ونشاطات متنوعة اكثر من كونها صياغات وتركيبات يمكن دراستها وفحصها .**انه يجب على البحوث البيولوجية ان تركز اولا على فحص الاعراض المرضية في الدماغ البشري وذلك من خلال وضع صياغات وخرائط معينة لذلك الدماغ من اجل القضاء عليها ومعالجتها معالجة علمية . ويجب على البحث البيولوجي**

اللغوي ان يركز ثانيا على دراسة الطرق التي من خلالها يمكن للوظيفة اللغوية أن تصاب بضرر او آفة مرضية وان يركز على دراسة الوظائف العقلية المنظمة للعمليات الحسابية والاحصائية في الدماغ .

ان مثل هذه الدراسات البيولوجية اللغوية يمكن ان توضح الاسس الفيزيولوجية لعملية التفكير ويمكن ان تقود بالتالي الى اكتشاف اساليب تشريحية جديدة للبنية البيولوجية اللغوية في الدماغ الانساني .

الشمبانزي والتجربة اللغوية

لا يمكن لعالم اللسان البيولوجي ان يعطي تعريفا محددا للغة فاذا فعل ذلك فانه سيقع في مشكلات عديدة . فاذا عرّف اللغة مثلا على انها علاقات ارتباطية اعتباطية ، فان هذا التعريف سيقوده الى الاعتراف بأن جميع الحيوانات تملك القدرة اللغوية الى درجة معينة ، وبهذا فان مثل هذا التعريف سيكون تعريفا غامضا يمكن ان يحمل بعض الحقائق العامه ولكنه في الوقت نفسه يحمل بعض الاخطاء المستترة . واذا عرف اللغة مثلا على انها ظاهرة حياتية تساعد على حل المشكلات العامة ومعالجتها نحو الافضل فانه يمكن القول من جهة اخرى بأن الحيوانات تستطيع ان تحل بعض المشكلات المتعلقة بها ، على الرغم من وجود بعض المشكلات المتعلقة بالانسان وحده .

ان الكلب مثلا يستطيع ان يفهم الاشارات الجسمية او اللغوية المعينة ولكن هذا الفهم يعادل التذكر الغامض لما يمكن ان يكون في الاسماء التي تدل على اشياء معينة وذلك لان الشيء الواحد المسمى في العملية اللغوية يمكن ان يكون له عدة تسميات حسب موضعه من السياق اللغوي ، فاذا كان يعني شيئا معينا في سياق وتركيب لغوي ما فانه قد يعني شيئا اخر في سياق وتركيب لغوي آخر . . .

وهذا ما يجعلنا نؤكد على حقيقة مهمة جدا فيّ مجال البنية الشكلية للغة **وهي ان الكلمات الدالة على اشياء معينة تخضع لاعتبارات علائقية تنظيمية وتخضع ايضا لقوانين توليدية للوحدات اللغوية** . . وربما يعتبر هذا المعيار من أهم الاختلافات بين لغة الانسان ولغة الحيوان . فاذا كان

لنا ان نقيم المقدرة اللغوية لفصيلة الشمبانزي التي هي اذكى الحيوانات تعلما للغة فان علينا الا نقيس تلك المقدرة من خلال عدد المواضيع والاشياء المرئية المسماة بواسطة الكلمات بل يجب علينا ان نقيس تلك المقدرة اللغوية من خلال معيار الفهم والاستيعاب لتلك المسميات. ان عدد الكلمات لايمكن ان يتخذ معيارا لمعرفة البنية البيولوجية عند الانسان والحيوان .

لقد اقيمت تجربة تعليمية على ثلاثة قرود في الولايات المتحدة وقد وضعت هذه القرود ضمن برنامج لغوي مكثف في جامعة كاليفورنيا (سانت بربارة) وقد كان استاذ هذه القرود الثلاثة ينتظر بشغف اليوم الذي يمكن فيه لهؤلاء القرود ان يصيغوا بعض الكلمات لينتجوا جملة معينة ولكن التجربة فشلت مع اثنين من هؤلاء القرود ونجحت التجربة نجاحا محدودا مع قرد واحد .. هذا النجاح لايمكن ان يتخذ اساسا لنظرية بيولوجية لغوية (٢) .

ان عملية جمع الكلمات وصياغتها حسب تركيبات لغوية معينة لاتخضع الى نظام بالضرورة . **ان عملية الصياغة اللغوية تشبه العمليات القائمة في الادمغة الالكترونية والرتابات الحاسبة التي يمكن لها ان تولد عددا من الكلمات العشوائية ذات نظام اعتباطي ولكنه في الوقت نفسه يمكن لهذه الادمغة ان تركب رموزا لغوية وان تصيفها اعتمادا على مبدأ ونظام علائقي معين .** على اية حال ان تركيب الرموز اللغوية على اساس من العلاقات المنظمة ليس شرطا مطلوبا في جميع اللغات .

ان التركيب اللغوي ذا العلاقة التنظيمية يمكن ان يوضح من خلال هذه الكلمات العربية [زيد عمرو سافر] . ان النطق اللغوي لهذه الكلمات العربية لايمكن ان يعطي معنى كاملا في اللسان العربي وذلك لان المعنى المطلوب لعملية الاتصال والتبليغ والبيان(٤) في كلام العرب انما توجب استعمال حرف العطف [و] الذي ينظم بدوره تلك العلاقة بين هذه الرموز

(٢) لمزيد الاطلاع حول هذا الموضوع يستحسن بالقارىء الرجوع الى مقالتنا « شمبانزي يتفاهم بالالوان » المنشورة في مجلة الثقافة العربية الصادرة في ليبيا العدد السادس ، السنة الخامسة ١٩٧٨ ص ١٢٠ .

اللغوية ، وبهذا يصبح عندنا تركيبات صوتية ورموز لغوية لها علامة تنظيمية فائقة :

١. # زيد + عمرو + زمن + سفر # (٥)

٢. # زمن + سفر + زيد + ∅ + عمرو #

٣- # ماضي + سفر # زيد # ∅ # عمرو #

٤ # سافر # زيد # و # عمرو #

٥ ــ سافر زيد وعمرو .

صحيح ان مثل هذه العلاقات اللغوية في بعض اللغات البشرية مثل العربية لها وظيفة دلالية واضحة ولكن هذه الوظيفة الدلالية مفقودة في بعض اللغات الاخرى **ان الفكرة الرئيسية هنا هي انه يمكن ان نحصل على معنى لغوي دون وجود علاقات تنظيمية في بعض اللغات ولكنه من جهة اخرى هناك علاقات تنظيمية عالية يمكن من خلالها صياغة رموز لغوية من كل اللغات البشرية** بل هناك علاقات تنظيمية متعلقة بلغات الحيوانات ايضا يمكن من خلالها ان تتم عملية الاتصال .

اما من حيث العلاقات التنظيمية العالمية فانه يمكن القول بان العلاقة اللغوية المنظمة للمبتدأ ثم الخبر هي علاقة عالمية في جميع اللغات الانسانية فكل اللغات العالمية تتركب جملها من عنصرين لغويين اثنين الاول يوصف

---

(٤) يحب استاذنا العلامة راتب امجد النفاخ ان يطلق على العملية اللغوية اسم « البيان » لانك اذا اردت ان تعبر عن نفسك فانك تبين عنها ، والبيان في رايه اقوى واوسع من مصطلح التبليغ الذي اخذ به الاستاذ الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح رئيس معهد اللسانيات والصوتيات بجامعة الجزائر .

(٤) # حدود تفصل بين رمز لغوي ذي معنى .

\+ اضافة زائدة لرمز لغوي على رمز لغوي اخر لاكتمال المعنى .

∅ علامة تدل على الصفر .

على انه رمز لغوي يدل على المبتدا او الفاعل والثاني يوصف على انه رمز لغوي يدل على الخبر او الفعل .

ثم ان العلاقة المنظمة لحروف الجر والعطف وعلاقة التماثل والتشابه في المكان والزمان انما هي علاقة عالمية في التركيب اللغوي ايضا .

ولكن السؤال هنا هو كيف يمكننا معرفة مافي ذهن المتكلم عندما يركب رمزين لغويين او اكثر ؟ بل كيف يمكننا معرفة طبيعة العلاقات التنظيمية الموجودة بين تلك الرموز اللغوية ؟ والواقع ليس هناك طريقة لمعرفة تلك العلاقات كما انه ليس هناك طريقة لمعرفة العلاقات اللغوية في ادمغة الاطفال ولاسيما في المراحل الاولى من تعلم اللغة ، ولكنه رغم ذلك فان الباحثين في هذا المجال يعرفون ان الاطفال يدركون العملية الكلامية من خلال طريقتهم في التكيف مع المحيط الخارجي لهم ومن خلال السلوك اللغوي المختلف عن سلوك الجماعات البشرية الاخرى .

ان المسالة تختلف في حالة الشمبانزي ... فلا يستطيع عالم اللسان البيولوجي ان يفترض ان الشمبانزي يتكلم اللغة وذلك منذ ان كان سلوك هذا الحيوان يختلف عن سلوك الكائنات البشرية الاخرى . ان المسالة هنا متعلقة بايجاد الطرق المناسبة التي من خلالها يمكننا معرفة الاختلاف البنيوي بين دماغ الانسان ودماغ الشمبانزي فاذا رأينا ان حيوان الشمبانزي يستطيع ان يركب بعض الكلمات المبنية على علاقة معينة فان هذه العملية هي انعكاس لتركيباتنا وصياغاتنا اللغوية لتلك الكلمات والتي اردنا من الشمبانزي ان يتعلمها .. وحتى لو عرف حيوان الشمبانزي المعنى المراد من تلك التركيبات والصياغات اللغوية فانه يعكس المعنى الذي اردناه .

والحقيقة ، هناك طريقة واحدة لمعرفة المشكلة اللغوية عند الشمبانزي وذلك بان نمتحن قوة هذا الحيوان على الاستيعاب والفهم اللغوي من خلال استعمال الكلمات وصياغتها في طرق مختلفة(٦) .

---

(٦) لمزيد الاطلاع حول التركيبات اللغوية وتعليمها لحيوان الشمبانزي يستحسن بالقارىء الرجوع الى مقالتنا « شمبانزي يتفاهم بالالوان » المنشورة في مجلة الثقافة العربية الصادرة في ليبيا العدد السادس من السنة الخامسة ١٩٧٨ ص ١٢٠ .

ان الطريقة الجيدة لفحص المقدرة الذكائية والفهمية عند حيوان الشمبانزي هي ان نأمر هذا الحيوان ان يضع المحبرة على الطاولة مثلا او ان يؤشر على المحبرة تحت الطاولة او ان يؤشر على المحبرة والطاولةمعا .

ولنفرض ان هذا الامتحان قد نجح واظهر ان هذه المخلوقات غير البشرية تملك الشكل البدائي للغة فان اكتشافا اذا تم سيدل على ان المقدرة الدماغية البدائية للانسان انما هي مشابهة للمقدرة الدماغية لحيوان الشمبانزي على حد زعم عالم اللسان البيولوجي ايريك لينبرج والواقع ان هذه الفرضية ستكون مفاجأة ، كبرى للكائنات البشرية فليس هناك باحث حتى ان استطاع ان يمتحن العلاقة بين المقدرة الدماغية للانسان والمقدرة الدماغية لحيوان الشمبانزي سوى بعض التجارب المخبرية اللغوية التي اجراها بعض العلماء اميركيين على حيوان الشمبانزي في ولاية كاليفورنيا (سانت بربارة) .

والحقيقة انه رغم كل هذه التجارب فان التطور الطبيعي والتدريجي للغة عند الانسان انما هو مختلف عن التطور اللغوي عند حيوان الشمبانزي وهذا ما ابدته البحوث اللغوية المطبقة على الاطفال وحيوان الشمبانزي على اية حال ليست البحوث العلمية الجارية على حيوان الشمبانزي الهدف الاساسي للبحث البيولوجي اللغوي ، على الرغم من ان هذه البحوث العلمية قد كشفت لنا السلوك الحيواني من وجهة نظر بيولوجية بحتة .

ان البحث البيولوجي عند حيوان الشمبانزي انما هو ضوء يستنار به لمعرفة البنية البيولوجية للدماغ الانساني تلك البنية التي تعتبر المحرك الباعث للفاعلية اللغوية في الكائنات البشرية .

التطوير اللغوي والتجربة البيولوجية :

لنفرض اننا وضعنا بعض الاطفال في جزيرة بعيدة ، نائية ولنتخيل اننا عزلنا هؤلاء الاطفال لمدة طويلة من الزمن فان السؤال الذي يحب علماء اللسان البيولوجيين ان يوجهوه هو : هل يمكن لهؤلاء الاطفال ان يطوروا لغتهم ويحسنوها بشكل طبيعي فطري ؟

ان النظرة البيولوجية التي تعتقد ان التطور البيولوجي هو تطور طبيعي . انما هي نظرة خاطئة لا تثبت امام الواقع العلمي وامام الحقيقة القائلة بأن التطور البيولوجي هو تطور مؤثر ومتأثر بالواقع المكاني والزماني. فليس هناك سبب يجعل علماء اللسان البيولوجيين يعتقدون ان هؤلاء الاطفال المعزولين في تلك الجزيرة البعيدة النائية يمكن ان يطوروا لغتهم ويحسنوها من الناحية البيولوجية . **ان العامل الضروري والاساسي في عملية التطور اللغوي انما هو اللغة نفسها ...** فالتطور البيولوجي للعملية اللغوية لا يتم الا بالاتصال الاجتماعي الذي هو عامل ضروري جدا لكسر الصمت اللغوي وتهذيبه . ان حالة التطور هذه تشبه حالة التطور البيولوجي في الجهاز الهضمي ذلك الجهاز الذي يركب العناصر الاولية للمواد البروتينية علما ان ذلك الجهاز مؤلف من المواد البروتينية نفسها وهكذا نلاحظ في كلتا الحالتين انه ليس هناك نظرية بيولوجية علمية تثبت الاصول الاولى للتطور العضوي في جسم الانسان ، من هنا فان السؤال عن اصل اللغة انما هو سؤال غير علمي وانه من العبث ان نبحث فيه ،انه سؤال يشبه البحث عن اصل الانسان وعن اصل المواد البروتينية المكونة للجهاز الهضمي . فليس هناك حدود فاصلة تمكننا من معرفة اصل اي عضو من اعضاء الجسم البشري من الناحية البيولوجية . **فكل عضو بيولوجي في جسم الانسان انما هو تطور تدريجي لعضو آخر وهكذا** فان بدايات التطور البيولوجي ليست بدايات مفاجئة وهذا ما يدحض الاعتقاد السائد والقائل بأن المنهج البيولوجي في دراسة اللغة هو منهج منكر للتطور التدريجي للقدرة اللغوية .

ان المنهج البيولوجي هو من اهم المناهج العلمية المهتمة بالتطور البيولوجي المرحلي . والواقع ان كل شيء هو سابق للواقع (المكان) وللتاريخ (الزمن) ولا يمكن للظاهرة اللغوية ان تعد استثناء في هذا القانون العلمي .

ان الدراسة البيولوجية اللغوية اليوم تبحث عن وسائل علمية تمكن العلماء من اكتشاف البدايات الاولى للبنية البيولوجية المنظمة للعملية اللغوية في الدماغ البشري ولكن المواد الاولية الضرورية لمثل هذه الوسائل

مفقودة في البحث البيولوجي العلمي في الوقت الحاضر . والواقع ان المحاولات الاولى للبحث البيولوجي اللغوي في اعادة التركيب البنيوي البيولوجي للقدرة اللغوية عند الانسان انما تتجلى في كتاب « الاسس البيولوجية للغة » « Biological Foundadions of Language » لعالم اللســان البيولــوجــي الاميركــي ايريــك لينبــرج . فقــد تحدث هذا الرجل في كتابه عن تلك المحاولات من خلال النظرية المتقطعة للتطــور البيولوجي للغــة . وربمــا كــان اختياره لكلمــة (متقطعــة) « Discontinuity »ليس اختيارا في محله وذلك لان مثل هذه الكلمة تعني التقطع او عدم الاستمرارية التاريخية للتطوير البيولوجي .. وهذا يناقض ما جــاء في نظريته البيولوجية للغة والتــي تعترف بالتطــور البيولوجي القائم على اسس تاريخية تدريجية . وربما عنى الباحث في ذلك التقطع وعدم الاستمرارية الزمنية بين الكائنات الحية وهذا ما كان قد اوضحه في بحث آخر منفصل القــاه في الدورة السنوية للسانيات التطبيقية في جامعــة جورج تاون في الولايات المتحدة . والحقيقــة ان الشواهد والمواد العلمية قليلة جدا وهي غير كافية لان تجعلنا نعتقد بان السلوك الاتصالي للكائنات الحيوانية انما هو الشكل البدائي لاشكال السلــوك اللغــوي . فالباحــث ايريــك لينبــرج ، يعتقــد ان السلوك الاتصالي لحيوان الشمبانزي هو سلوك متقطع غير مستمر زمنيا اذا ما قورن بالسلوك اللغوي عند الانسان . ولكن الخطأ الفادح الذي وقع فيه باحثون غير مختصين بالحقل البيولوجي هو الاعتقاد بان الحيوانات الحالية انما هي تطوير استمراري للشكل البدائي للانسان من وجهة نظر لغوية خالصة . من هنا فان المناقشات الحادة التي دارت بين النظرية التركيبية للكائنات الحية وبين النظرية الطبيعية لها انما هي مناقشات غير مثمرة حقا وليست ذات اهمية كبيرة ولا سيما في العلوم الاجتماعية .

فبعض الباحثين يعتقدون ان العامل الوراثي يرتبط بخلايا جسمية محددة تنظم بدورها المثيرات الكيمائية عند الانسان وبالتحديد العملية الكلامية التي هي عبارة عن مثير داخلي لسلوك لغوي خارجي .

والواقع ليست هنــاك سمات سلوكية تعود مباشــرة الى العملية

الوراثية .. اننا نلاحظ في بعض الامثلة وجود بعض الصبغيات التي تربط بين العامل الوراثي والعامل السلوكي للانسان ولكننا من جهة اخرى نرى امثلة كثيرة تؤكد ان هذه العلاقة بين العامل الوراثي والعامل السلوكي انما هي علاقة واهية بل هي غير مباشرة .

ان العوامل الوراثية هي عوامل مهمة يمكن لها ان تحدد ميولنا وسلوكنا في محيط خارجي معين ولكن هذه العوامل الوراثية ليست عوامل كافية لتطوير السلوك الانساني وتحديد سماته اللغوية . ان العامل الخارجي هو عامل مهم ايضا في تحديد السلوك اللغوي .. وهكذا فان العوامل الوراثية لا تقف معارضة للعوامل الخارجية .. ان العلاقة هنا هي علاقة متشابكة وديناميه تسعى الى تطوير السلوك اللغوي عند الانسان .

البعد العالمي في علم اللسان البيولوجي

منذ ان اصبح للبحث اللساني بعد عالمي انساني كعلم قائم براسه يمكن تطبيقه على اية لغة من لغات العالم، فقد اصبح للبحث البيولوجي علاقة وثيقة بذلك العلم الجديد ولاسيما في السنوات العشرين الفائتة . لذلك يجب على البحوث البيولوجية أن تعيد النظر في اكتشافاتها وبحوثها العلمية بغية مناقشة البحث اللساني مناقشة بيولوجية قائمة على العلاقات الوشيجة التي تربط علم اللسان بالبحوث البيولوجية الحديثة.

والواقع ان دراسة العلاقات التنظيمية للدماغ البشري بشكل عام انما تنجر على البنية البيولوجية اللغوية الموجودة في القسم الايسر من دماغ الانسان وهكذا فان دراسة البنية اللغوية في الدماغ البشري متعلقة تماما بدراسة البنية البيولوجية المنظمة للعملية اللغوية . واذا كان لهذه العلاقات اهمية قصوى في ربط البنية اللغوية بالبنية البيولوجية فانه يتوجب على علماء اللسان البيولوجيين ان يحددوا طبيعة هذه العلاقات المنظمة للعمليات الدماغية في الكائنات البشرية عامة ... من هنا ياتي معيار العالمية في الدراسات البيولوجية اللغوية .

ففي مجال **الصوتيات الفيزيولوجية** مثلا فان البحث البيولوجي اللغوي

يمكن ان يحدد الاصوات اللغوية في كل اللغات البشرية ويمكن لذلك البحث ايضا ان يحدد الكمية العددية لتلك الاصوات . فقد اثبت البحث الفيزيولوجي الحديث ان العملية الفيزيولوجية في الجهاز النطقي عند الانسان لاتستطيع ان تنتج اكثر ، من خمسين صوتا او ما يقارب ذلك. وربما هذا ماوضحه عالم اللسان الروسي رومان جاكبسون في نظريته « الصفات الصوتية المميزة »(٧) .

ويبدو لعالم اللسان البيولوجي الاميركي . ايريك لينبرج ان التسمية ينبغي ان تكون « الاماكن الفيزيولوجية الصوتية المميزة » التي هي قائمة على اساس من التصنيف البيولوجي اكثر من التصنيف التمييزي للقيم والصفات الصوتية .

والواقع ان ما ذهب اليه الباحث لينبرج يحمل شيئا من المعقولية وذلك لاننا نستطيع ان نحدد الاصوات الانسانية حسب تصنيفاتها ومواقعها في الجهاز النطقي اكثر من تحديدنا لصفاتها القائمة على اساس تذوقي سمعي .

---

(٧) See Jakobson . Roman . and Halle , M. Phonology and phonetics . In Roman Jakobson : Selected writings . Vol . 1 . The Hague : Mouton , 1971 PP. 464 - 504 .

مراجع البحث :

١ ـ المراجع العربية :

١ ـ الوعر . مازن « الامراض اللغوية : سبر للتجربة الاميركية » مجة المعرفة الدمشقية العدد ٢٠٤، شباط ١٩٧٩ .

٢ ـ الوعر . مازن « شمبانزي يتفاهم بالالوان » مجلة الثقافة العربية الصادرة في ليبيا العدد السادس حزيران ١٩٧٨ من السنة الخامسة .

٢ ـ المراجع الاجنبية :

1 ... Jakobson . Roman, and Halle, M. Phonology and phonetics . In Roman Jakobson : Selected writings . Vol I . The Hague : Mouton , 1971 .

2 — Lenneberg, Eric. H. 1967 . Biological Foundations of Language New york , wiley .

3 — Lenneberg , Eric , H. 1970 . Brain Correlates of language . In the neurosciences . Second study program .
Francis . O. Schmitt , editor . New york .
Rocke feller University Press .

4 — Lenneberg , Eric . H. of language knowledge , apes and brains . In Early Childhood : the development of self - regulatory Mechanisms .
D. N. walcher , editor . New york . Academis Press .

5 — Premack , David . 1970 . Afunctional Analysis of Language. J. Exper . Anal , Behav .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق يا بسمة الحزن

تاليف : ألفة الادلبي

■ ■ ■

من المساعدة الى عودة الاستعمار

تأليف : تيبور مانه

ترجمة : منير زيدان

■ ■ ■

عصر التنوير

تأليف : ايسايا برلين

ترجمة : فؤاد شعبان

مراجعة : ناظم الطحان

الحقيقة كاملة التشخيص

تيسير شيخ الأرض

حينما نبدأ بالتفكير ، نكون قطعنا مرحلة متقدمة من العمر ، حللنا فيها الى درجة معينة ، كل ما يحيط بنا ، وحولناه الى جزئيات ومجردات ، ثم الفنا هذه الجزئيات والمجردات ، حتى ليخيل الينا ، انها الحقائق التي لا يمكن الشك فيها ، فهي مختلفة عن حقيقتي انا ذاتي ، ومختلفة فيما بينها هي ذاتها ، بحيث لا يمكن رد ذاتي اليها ، او رد بعضها الى بعض الا بشيء من التعمل والاصطناع ! وهكذا تبدو الحقيقة كلمة متعددة المعاني ، تحمل مضمونات مختلفة ، وتقال باشتراك او تشكيك ، على الحقائق كلها ، فقد استخدمها ((الفلاسفة)) للتعبير عن اغراض مختلفة ، حتى اننا لانجد لها معنى واحداً عند ((الفيلسوف)) الواحد ، فما بالك بين ((الفلاسفة)) على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم! ويكفينا ان نرجع الى اقوال ((الفلاسفة)) حتى نجد انفسنا امام مسائل متباينة ، وحلول متضاربة . وفي هذه الحال ، لابد للمرء ان يتساءل : هل هناك حقيقة واحدة او حقائق متعددة ؟ واذا كانت الحقائق متعددة ، فما الذي يجمعها ؟ وكيف يمكن ان تكون هناك حقائق ، من دون حقيقة مقابلة لها ، ندركها بها على انها حقائق ؟ او من دون حقيقة تجمع حقيقة من يدرك بحقيقة مايدرك ؟

لقد تكلم « الفلاسفة » على حقيقة كلية ، واخرى جزئية ؛ على حقيقة وجودية واخرى منطقية ، على حقيقة مطلقة واخرى نسبية . وقد فرقوا في الحقيقة المنطقية بين جانبين مختلفين : جانب مادي وآخر صوري ، وعدوا كل جانب حقيقة قائمة براسها ، فكانت هناك حقيقة مادية واخرى صورية . اما الحقيقة الجزئية فلم تكن واحدة ، بل كثيرة لاتحصى ، تابعة لدرجة التحليل والتجريد ؛ وقد عدوا منهـا الحقـائق التاريخيـة . وكذلك كانت الحقائق المجردة ، وعدوا فيها الحقائق الفيزيائية والكيميائية والحيوية والنفسية والاجتماعية والرياضية والفلكية الخ .. ولكنهـم لاحظوا ان الحقائق الجزئية تبدو في صورتين مختلفتين: صورة ذاتية واخرى موضوعية ؛ فتكلموا على حقائق ذاتية واخرى موضوعية . ولم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل لاحظوا ان الحقائق الجزئية والمجردة كثيرا ما تكون نسبية ؛ فهي نسبية الى الافراد والازمنة والامكنة ؛ فتكلموا على حقائـق نسبية . ثم مالبثوا ان وضعوا الحقائق المشخصة في مقابل الحقائـــق المجردة ..

وهكذا تعددت الحقائق تعددا كبيرا لم نات على جوانبه كلها . وكان هذا التعدد وليد الحركات الفكرية والعلمية . ويكفينا ان ننبه بهذا الصدد على ظاهرتين فقط : ظاهرة التحليل الفلسفي ، وظاهرة التفرع العلمي ، حتى نتصور عدد الحقائق التي بامكان المرء ان يتحدث عنها . وبازاء ذلك ، فهو لابد له ان يضيع ، وان يتساءل : ترى اليست هناك حقيقة واحدة تمت اليها الحقائق كلها ؟ واذا هي وجدت ، فماذا عساها ان تكون ؟ اولا يمكننا ان نرى ، ان الحقائق الفلسفية والعلمية كانت قبل تفرعها حقيقة واحدة يدرسها علم واحد ؟ واذا وجد مثل هذا العلم ، فماذا عساه ان يكون ؟

وعلى هــذا النحو ، ترجح العقل البشري بين حقائق علمية وحقيقـة فلسفية . ولكن ، اذا كان العلماء يسلمون بتعدد الحقائق واختلافهـا ، ولا يفكرون ـ بماهم علماء ـ بحقيقة أم تقوم وراءها ، فان الفلاسفـــة ماكانوا يقبلون بتعدد الحقائق واختلافها ، من دون ردها الى حقائق قليلة معدودة ، او حقيقة واحدة . ولكن « الفلاسفة » لم يهتدوا الى الحقيقـة الواحدة كاملة التشخيص ، بل انطلق كل منهم ، من حقيقة مجردة او

حقائق جزئية ، ورد اليها الحقائق الاخرى كلها . وبذلك لم يتفقوا على تحديد عدد حقائقهم وانواعها واولياتها . فقد يتفق بعضهم في عددها ، ويتفق آخرون في انواعها ، ولكنه لم يحدث قط ، ان اتفقوا على أولياتها ، لان مجرد الاتفاق على اولياتها ، يعني الاتفاق في النظرة الفلسفية . وهذا يعني ، ان الاختلاف على الاوليات هو مصدر الاختلاف بين « الفلاسفة » : فما يعده احدهم الحقيقة الاولى التي ترتد اليها الحقائق جميعا ، يعده الآخرون حقيقة ثانوية تستند هي ذاتها الى حقيقة اولى في نظرهم . وهكذا نشأت المذاهب « الفلسفية » المختلفة ، وضاع « الفلاسفة » في متاهات « الحقائق » ولم يخرجوا منها الى حقيقة اولى يجمعون عليها ! ومع ذلك ، ظل كل منهم يزعم ان ما اتى به ، هو الحقيقة التي لا بد من التسليم بها !

ووقف العقل متسائلا عن صدق ما اتت به هذه المذاهب ، التي يدعي كل منها ، انه وصل الى الحقيقة التي لا حقيقة سواها . وكثيرا ما كان الامر ينتهي ببعضهم الى الاضراب عن كل بحث ، معتقدا ان الحقيقة امر لايمكن الوصول اليه . ولكن الامل سرعان ماكان يعاود بعضهم الآخر، في الاهتداء الى الحقيقة ، فيأخذ بالبحث من جديد ، ويضع مذاهب « فلسفية » يصدق عليها ما صدق على المذاهب السابقة ، على الرغم من اختلاف مضمونات هذه عن مضمونات تلك !

وقد خلق هذا الاعتقاد بعقم البحث الفلسفي ، وادى الى انكار الحقيقة الواحدة ، او الحقيقتين الاثنتين ؛ وصرف الناس الى الاعتقاد بحقائق كثيرة مختلفة لايحصيها عد . وقد بدا القول بحقائق متعددة مختلفة ، في أوضح صوره ، لدى العلماء الذين قسموا العالم الى مجالات وظواهر ، واخذوا يقررون الحقائق فيها ، كل منهم بمعزل عن الآخر ، فنشأت العلوم المختلفة التي تحدثنا عنها ، العامة منها والخاصة . وقد شعر العقل في هذه المجالات بانتصاره ،ودفعه هذا الانتصار الى الاعتقاد بأن البحث عن الحقيقة الواحدة امر لا طائل وراءه ! واننا لنتساءل : الا يؤدي انكار الحقيقة الواحدة ، الى انكار كل حقيقة كائنة ماتكون ؟!

هذا مافعله « الفلاسفة » انفسهم ، مع فارق واحد ، وهو انهم تناولوا هذه الحقائق المتعددة ، وحاولوا رد بعضها الى بعض ، وفق سلالم من الاوليات ، كانت تميز بعضهم من بعض . فكانت لهم « حقائقهم »الفلسفية المتعددة ، شانهم في ذلك شان العلماء !

ولكن هذه « الحقائق » الفلسفية المتعددة المختلفة ، مرتبة في سلالم مختلفة من الاوليات ، كانت صورا متعددة مختلفة لعالم واحد ! فلماذا هذا التعدد ؟ واختلفت هذا الاختلاف ؟

— ١ —

يمكننا ان نقول بادىء ذي بدء : ان « الفلاسفة » اتخذوا لهم مواقف « من » العالم ؛ ولم يتخذوا لهم موقفا « في » العالم . وهذا يعني انهم لم يدركوا الموقف الفلسفي ، وظلوا متعلقين بالنظرة الفلسفية . ولكن الموقف الفلسفي هو المعبر عن الحقيقة الوجودية ، لان كلا منهم ، حينما يتفلسف ، يكون في العالم : فهو لايمكن له ان يكون خارجه ، ينظر اليه ويتامله ، كما ينظر العالم الى موضوع علمه ، ويتامله ، فيحوله الى مفهومات وماهيات(١) !

ولكن جهل الموقف الفلسفي ، والاخذ بالنظرة الفلسفية ، ترتبت عليهما نتائج سيئة بالاضافة الى البحث عن الحقيقة ، اذ ان الاخذ بالنظرة الفلسفية — لانه تامل للموضوع من خارجه — من شانه ان يجعل هذا الموضوع خاضعا لوجهة النظر ، فيصبح محدودا بالذات الناظرة اليه ، والتي هي خارجه ، كما من شانه ان يجعل النظر اليه من زاوية معينة ، إمكانا لا ينفي امكان النظر اليه من زاوية اخرى ، فتتعدد وجهات النظر وتختلف ، ولا سيما ان « الموضوع » هنا موضوع مشخص ، تختلف جوانبه فيما بينها ، وليس موضوعا مجردا تتساوى فيه هذه الجوانب ، وتؤدي الى تساوي وجهات النظر !

---

(١) دراستنا : الموقف الفلسفي ، في كتابنا : دراسات فلسفية ، محاولة ثورة في الفلسفة ، دار الانوار ، بيروت ١٩٧٣ .

وفضلا عن ذلك ، فمادامت الذات التي تنظر اليه وتتامله ، واقعة خارجه، كان لابد من اقامة الجسور بينها وبينه ، لتتمكن من معرفته ، وفي هذه الحال ، تصبح المعرفة بحاجة الى تأسيس فلسفي . وهذا ما حدث في تاريخ « الفلسفة » بالضبط ، اذ كيف يمكن لما هو بعيد عنا ، وليس بيننا وبينه صلة مباشرة ، ان يكون موضوعا لمعرفتنا حقا ؟! في هذه الحال ، لابد للعالم من ان يصبح ظاهرة ، ولابد للوجود من ان يصبح فكرة . وهذا ما حدث ايضا في تاريخ « الفلسفة » بالضبط !

ولكن الحقائق المتعددة المختلفة لابد لها من ان تضمها حقيقة واحدة مادام العالم واحدا . انه واحد لا من حيث ظاهرة او فكرة ، بل من حيث هو كل مشخص ، له وجود مستقل عني ، وقائم بمعزل عن فكري وارادتي حتى في حالة التجريد . انه بهذا المعنى حقيقة الحقائق كلها .. الحقيقة التي هي سند كل ماعداها ، والتي استمد منها حقيقتي انا ذاتي ، لامن حيث انا حقيقة جزئية ، بل من حيث انا الحقيقة التي تعيه ، وتتمسكه في الوجود بالجسد ، وتقيم حوله شبكة من العلاقات العقلية بالذهن ، في محاولة لفهمه والتأثير فيه ، ولكن ، من دون ان تستغرقه ابدا ، لا نظرا ولا عملا !

ومع هذا كله ، ظلت الفلسفة المواطنة الاولى في عالم الفكر والثقافة، وظلت تطالب بالبحث عن حقيقة واحدة ترتد اليها الحقائق كلها ، والواقع ، ان الحقائق الجزئية حقائق مصطنعة ونتيجة تحليل ناشيء عن اهتمامنا بما هو قريب منا ، وما يلبي حاجاتنا الحيوية ، في غفلة عن الحقيقة كاملة التشخيص التي تشملها جميعا ، وتمسكها جميعا ! فالحقيقة كاملة التشخيص هي الحقيقة التي ترتد منها الحقائق جميعا . وما يدل على ذلك دلالة جزئية ، هو نسبية العلم ذاته ، حينما ينشيء قوانينه ، التي ليست في حقيقتها غير ظواهر جزئية ارتبطت فيما بينها نوعا من الارتباط ضمن حدود معينة ليست في حقيقتها حدودا ، الا لان العلم شاءها ان تكون كذلك ، اذ انه ربط الظواهر بعضها ببعض ، يمكن ان يستمر الى مالا نهاية له ، بالفا في ذلك سعة الكون كله .

ولكن العلماء كثيرا ما كانوا يرون في هذا النوع من التفكير ، امرا يخص الفلاسفة وحدهم ، وانه ليس من اختصاصهم – بما هم علماء – البحث عن حقيقة كلية تنظم الحقائق الجزئية كلها . وقد مضوا في هذا السبيل ابعد من ذلك ، فاصبحوا في مجالات العلوم الجزئية ذاتها ، يقتصرون على مجال واحد ، يعتقدون انه مجالهم ، تاركين المجالات الاخرى لغيرهم من العلماء ، معترفين انها ليست من اختصاصهم . اما الفلاسفة وحدهم ، فكانوا يرون ان هذه الحقائق بحاجة الى اعادة النظر والمراجعـــــــــة وتمحيص اسسها ، والتدقيق في طرائقها ، والفحص عن تماسكها مع ذاتها ، ومع الحقيقة الكلية !

بيد انهم – وا اسفاه – ظلوا يفكرون كما يفكر العلماء ؛ كأن ماهم بصدده حقيقة جزئية ، وان كانوا يطلقون عليها اسم الحقيقة الكلية ، غافلين عن ان مجرد التفكير « في » الكل ، يغير من الحقيقة ، فيتغير بذلك كل ما اعتاده العقل من مبادىء ومناهج و « مفهومات » !

ولكن ، كيف يمكن للفيلسوف ان ينظر الى الحقائق الجزئيه او المجردة او النسبية ؟ هل يهملها كما اهمل العلماء الحقيقة الكلية او الوجودية او المطلقة ، مدعيا انها تدخل ضمن اطار بحثه الفلسفي ؟ لنلاحظ بهـــذا الصدد ، انه اذا حق للعلماء ان يعتذروا عن البحث في الحقيقة الكلية او الوجودية او المطلقة ، لانها لاتدخل ضمن اختصاصهم : فليس من حـــق الفلاسفة ان يعتذروا عن البحث في الحقائق الجزئية او المجردة اوالنسبية التي اتى بها العلماء ، لسبب بسيط ، وهو ان من يتكلم عن الحقـــائق الجزئية او المجردة او النسبية ، يمكن له ان يقتصر في كلامه على هذا النوع من الحقائق ، من دون ان يمس بكلامه الحقيقة الكلية او الوجودية او المطلقة ، بالضرورة . وهذا يعني ، ان هناك صلة وثيقة بين الحقيقة الكلية او الوجودية او المطلقة ، والحقائق الجزئية او المجردة او النسبية . ولكن الحقيقة الكلية تتضمن الحقيقة الجزئية ، والحقيقة الوجودية تتضمـــن الحقيقة المجردة ، والحقيقة المطلقة تتضمن الحقيقة النسبية ، بالضرورة ، وليس العكس صحيحا . ومن هنا فان الصلة بين نوعي هذه الحقائق تلزم العالم بما تلزم به الفيلسوف ، الا اذا شاء ان يخرج من صف العلماء

كي ينضم الى صف الفلاسفة ، فيربط الحقائق الجزئية او المجردة او النسبية التي توصل اليها ، بالحقيقة الكلية او الوجودية او المطلقة ، التي هي حقيقة فلسفية بالضرورة ! في هذه الحال فقط ، يمكن للفيلسوف سواء اكان ذلك بالتحليل او التأليف ، ان يلجأ الى ما اعتاده من مبادىء ومناهج و « مفهومات » ، لان هذه جميعا لاتصدق الا على الحقائق الجزئية! كل هذا يضعنا امام نتيجة واضحة ، وهي ان هناك صلة وثيقة بين الحقيقة الكلية او الوجودية او المطلقة ، والحقائق الجزئية او النسبية او المجردة ؛ وان « الفلاسفة » يهملونها بعض الاهمال ، باقتصارهم على ما هو كلي او وجودي او مطلق ؛ وبانصرافهم عما هو جزئي او مجرد او نسبي بما هو كذلك ؛ وعدم النظر اليه الا من خلال ما هو كلي او وجودي او مطلق ؛ في حين يهملها العلماء ، بانصرافهم فقط الى ماهو جزئي او مجرد او نسبي . هذه الصلة الوثيقة هي ما نريد ان نقف عنده ، ونلح على خطورته الفلسفية ؛ لكي ننطلق بثورتنا الفلسفية التي ترد الجزئي الى الكلي ، والمجرد الى الوجودي ، والنسبي الى المطلق ؛ وتجعل ما كان وهما وقبض الريح ، حقيقة ملموسة ! اذ عند هذه الصلة ، نجد مفترق الطرق في التفكير وفقا لما اعتدناه ، وفي الثورة عليه : التفكير وفقا له في الحقائق الجزئية ؛ والثورة عليه في الحقيقة الكلية !

- ٢ -

لهذا قلنا : ان « موضوع » الفلسفة هو الكل لا الكليات(٢) . بيد ان هذا مخالف لما حدث في تاريخ « الفلسفة » ؛ حيث اتجه البحث الى المجردات والجزئيات ؛ فكان سبيلا الى اقامة الميتافيزيقا ، هذه الفلسفة الاولى ، التي غايتها دراسة ماهو مفارق للطبيعة .

ومما يدل على ذلك دلالة واضحة ، تاريخ كلمة ميتافيزيقا (= إطبيعي) . انها تدل على بعض مباحث ارسطو الفلسفية ؛ وان كان هو ذاته لم

(٢) دراستنا : مسالة المنهج الفلسفي ، ف ٦ ، في كتابنا المذكور .

يستعملها . وتفسير ذلك ، ان اندينيقوس الرودسي ، احد نساخ كتبه في القرن الاول قبل الميلاد ، وضع بعض مباحثه الفلسفية ، بعد المباحث الطبيعية ، واطلق عليها اسم « ميتافيزيقا » وعنى بها المباحث التي تأتي بعد الطبيعيات ؛ اي التي تليها في الترتيب . ولكن هذه المباحث التي أتت بعد الطبيعيات ، كانت تتطرق الى البحث فيما يتجاوز العالم الطبيعي ؛ ولهذا اقترن بكلمة ميتافيزيقا معنى ما بعد الطبيعة ، أي ما يتجاوزها .

وهكذا نلاحظ ، ان الا طبيعي ــ بما هي مبحث « فلسفي » ــ تلي الطبيعيات ، اي المباحث التي تتطرق الى دراسة الطبيعة . ولعلنا لانستطيع ان نفهم ماتدرسه الاطبيعي ، مالم نعرف ما تدرسه الطبيعيات؛ وبالتالي مانعنيه بالطبيعة . وهنا لابد من ملاحظة ان اشتقاق كلمة « طبيعة » في العربية ، يشير الى هذا « المابعد » . والحقيقة ، انها مشتقة من « طبع » على فعيلة ؛ و « طبع » كما يقول ابن فارس : اصل صحيح ، وهو مثل على نهاية ينتهي اليها الشيء ، حتى يختم عندها(٣). اما فعيلة فقد تعني فاعلة ، وقد تعني مفعولة : فاذا عنت فاعلة ، كان معنى هذا ، انها هي التي طبعت الاشياء ، فكانت على ماهي عليه ؛ اي انتهت الى نهاية ختمت عندها . وهذا معناه انها هي هذا « المابعد » القائم بعد الاشياء . واذا عنت مفعولة ، كان معنى هذا ، ان هناك طابعا جعلها مطبوعة ؛ فانتهت الى نهاية ختمت عندها ؛ وان هذا الطابع هو هذا « المابعد » . وفي كلتا الحالتين ، تشير كلمة « طبيعة » الى « المابعد » والاعتقاد به . وهذه نزعة تشبيهية كما لايخفى !

ولكن الطبيعة قد تؤخذ بمعناها المشخص ؛ فتعني حينذاك الحوادث التي تطرأ على العالم المادي والحيوي . وبهذا المعنى انصرفت العلوم الطبيعية الى دراسة هذه الحوادث على اختلافها ، مستندة الى المبادىء العقلية التي تكلمنا عليها ، والتي لابد من التسليم بها بعدها . فاذا اقتصرنا على

---

(٣) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ج ٣ ، ص ٣٨) ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٦٨ هـ .

دراستها بما هي حوادث ، كنا بصدد الطبيعيات بمعناها العلمي حصرا ؛ وهي ما نعرفه اليوم باسم الفيزياء والكيمياء والحيَّياء (البيولوجيا) الخ ... واذا تجاوزنا هذه الحوادث الى المبادىء التي تقوم وراءها ، كنا بصدد الطبيعيات بمعناها الفلسفي ضبطا ؛ وهي ما نعرفه باسم الإطبيعي.

وعلى هذا النحو ، ادى فهم الحوادث الطبيعية الى تجريد بعض المبادىء بالعقل ؛ وهي مبادىء كان لابد منها لفهم هذه الحوادث وتفسيرها . وهذا عمل مشروع دون ريب . ولكن « الفلاسفة » تجاوزوا المنحى التفسيري الى المنحى الوجودي ، وخلعوا على هذه المبادىء صفة الوجود ؛ وان فهموا الوجود « هنا » فهما عقليا خالصا . وهم حينما فعلوا ذلك ، ما لبثوا ان اقاموا عالما اطبيعيا (ميتافيزيقيا) ما وراء العالم الطبيعي ؛ على شاكلة عالم المثل الافلاطوني ، الذي أصبح عالم الوجود وحده ، وما عداه من موجودات جزئية عالم الظلال . وما اسطورة الكهف ببعيدة عن اذهاننا ! ولعل الانصاف يقتضينا — ونحن نذكر افلاطون — ان نذكر ارسطو الذي كان اول من ثار عليه في هذه النقطة ، ونقده ؛ فحاول ان ينزل المثال الافلاطوني من عليائه الى الواقع الوجودي . ولكنه على الرغم من هذا كله ، لم ينج من اثر افلاطون الذي طبع فلسفة ارسطو بطابعه : اذ انه لابد لنا — عند التحقيق — من ان نرى الصورة الارسطية — وهي محور المذهب الارسطي كله — ليست الا بديلا من المثال الافلاطوني . ومتى علمنا ، ان تاريخ الفلسفة كان ترجحا بين الافلاطونية والارسطية ؛ حتى ان الفيلسوف — اي فيلسوف — اما ان يكون افلاطونيا او ارسطيا، كان لنا ملء الحق في ان نعمم ما قلناه ؛ فنرى انه كان هناك خلط مستمر بين مبدا التفسير ومبدا الوجود . وهذا يعني ، ان « الفلاسفة » فهموا الوجود فهما متواطئا ؛ فوحدوا بين الوجود والمعقول ؛ او بين الوجود في الاذهان والوجود في الاعيان ، على حد تعبير الاسلاميين !

ولكن في هذا خطأ اي خطأ : فاقامة العالم الاطبيعي (الميتافيزيقي) على جريدات العقل ، ابتداء من العالم الطبيعي (الفيزيقي) ، وعده وجوديا مثله ، بل سببه واصله ، كان خطأ ران على التفكير « الفلسفي » قرونا

طويلة ؛ وكان من حصاده هذا الضلال الذي تاه « الفلاسفة » في متاهاته. والحقيقة ، ان الإطبيعي نتيجة تجريد عقلي . واذا كان لابد لنا من تقبله، كان لا بد لنا من عده الجانب المجرد من الحقيقة الاولى . وهذا يعني ، ان الاطبيعي هو الجانب المجرد من الوجود المشخص . أي الجانب المعرفي؛ وهو عقلي لاقيمة له بحد ذاته ؛ ولايكتسب قيمته الحقيقية ــ بما هو عقلي ــ الا من الوجود المشخص ذاته !

ولكن معنى « اطبيعي » مالبث ان تطور في اتجاه الشمول ؛ فبدلا من ان يقتصر على مابعد الحوادث الطبيعية ، تعداها الى « المابعد » عموما . وعلى هذا النحو ، اصبحنا بازاء إطبيعي عامة وإطبيعي خاصة ؛ اطلق على العامة منها اسم الاجدياء (الانطولوجيا) ؛ وهي تبحث في الوجود بما هو وجود . اما الإطبيعي الخاصة ، فقد قسمت الى ثلاثة اقسام ، يبحث كل قسم منها في موضوع خاص غير الموضوع الذي يبحثه القسم الآخر . فكانت الكينياء (الكوسمولوجيا) العقلية هي البحث في الكون من حيث هو مادة وحركة ومكان وزمان وحياة ؛ وكانت النفسياء (البسكولوجيا) العقلية هي البحث في الكون من حيث هو مادة وحركة ومكان وزمان وحياة ؛ وكانت النفسياء (البسيكولوجيا) العقلية ، وهي البحث في النفس من حيث هي مبدأ جوهري قائم وراء الحوادث النفسية على اختلافها ؛ وكان اللاهوت العقلي ، وهو البحث في الالوهية من حيث هي المبدأ الاعلى للتوفيق بين المادة والروح ، بين الجسد والنفس ، بما هما حقيقيتان متمايزتان ومستقلتان ومنفصلتان كليا .

ولكن ، ماذا يرى النظر المدقق في مثل هذه التقسيمات ؟ انه يكفينا قليل من انعام النظر ، حتى نرى في الإطبيعي ــ بما هي هذه الاقسام المختلفة ــ تقطيعا لاوصال الحقيقة من جهتين :

اولا ــ انها من جهة اولى ، فصل للحقيقة عن جذورها الوجودية ، ولاسيما ان الوجود أصبح صفة عامة مشتركة بين الموجودات ؛ نصل اليها بالتجريد ، ابتداء من تجربة الموجودات الجزئية . وهذا مايشهد عليه

قول ارسطو ، حينما جعل البديهيات تنطبق على الموجودات ، من حيث ان الوجود هو الصفة المشتركة بين الموجودات . يقول : « وفضلا عن ذلك ، فقد كانت دراسة هذه الحقائق ترتقي ايضا ، الى معرفة الوجود بما هو وجود ؛ لان من البديهي ، ان تنطبق البديهيات على الموجودات جميعا ، من حيث هي موجودات ؛ (اذ ان الوجود هو المشترك بين الاشياء جميعا)(٤) » .

وهذا يفسر لنا لماذا رأى بعضهم في الاستقراء المنهج الفكري الملائم للدراسة الموضوعات الفلسفية .

ثانيا ـ وهي من جهة اخرى ، تقسيم لها الى وجود وطبيعة ونفس واله، تقسيما لايخلو من الجزافية ؛ ويحمل تراث الشعوب الابتدائية في العقائد . وهذا يفسر لنا فوضى « الفلاسفة » واضطرابهم في تفسير علاقات الاثر والتأثير بين هذه « الحقائق » التي افترضوها منفصلة منذ البداية ، وعجزوا عن تبيان تواصلها بالعقل ، فيما بعد .

ولعل هذا هو الذي دفع كنط الى ابطال الاطبيعي بالعقل النظري ، في محاولة لاقامة اطبيعي اخرى بالعقل العملي ، بدلا منها !

- ٣ -

وقد شعر بعض « الفلاسفة » المعاصرين بحرج هذا الموقف ؛ فارادوا ان يهربوا من الاطبيعي بمعناها التقليدي، ليرتموا في احضانها بما هي اطبيعي غير ذات معنى ؛ فيمعنوا في الضلال ، ويزدادوا ضياعا .

فلنأخذ مثالا على ماتريده هيديغر . يقول في مطلع مقاله الشهير « ما الميتافيزيقا ؟ » ما يلي : « ما الميتافيزيقا ؟ ما يكاد يطرح هذا السؤال،

---

(٤) ارسطو : ما بعد الطبيعة (الترجمة الفرنسية) ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، منشورات Vrin ، الطبعة الثانية ، باريس ١٩٤٠ .

حتى يتوقع الانسان حديثا « عن » الميتافيزيقا . غير ان هذا ليس في نيتنا ؛ بل إننا سنناقش سؤالا ميتافيزيقيا محددا ، بدلا من ذلك . واذا سرنا على هذا النحو ، انتقلنا الى قلب الميتافيزيقا انتقالا مباشرا . وعلى هذا النحو فقط ، نتيح للميتافيزيقا الفرصة الملائمة لتقديم ذاتها . اما خطتنا فتنطوي على البدء بـ « طرح » سؤال ميتافيزيقي ، لكي نحاول فيما بعد ، « توضيح » هذا السؤال ، وتنتهي بـ « تقديم » اجابة عنه (٥) .

اذا تاملنا هذا الكلام بعض التأمل ، لم يصعب علينا ان نكتشف ان صاحبه يريد الهرب من تحديد « العلم » الذي هو بصدده . يقول : انه ليس في نيته ان يتحدث عن « الميتافيزيقا » ؛ وانه سيناقش سؤالا ميتافيزيقيا محددا ، تتيح مناقشته للميتافيزيقا ان تقدم نفسها . واننا لنتساءل : كيف عرف هيديغر ان سؤاله ميتافيزيقي اولا ، وانه مثال مناسب لتقدم به الميتافيزيقا نفسها ، ثانيا ؟ اننا اذا تابعناه في مقاله هذا ، وجدنا أن السؤال الذي تقدم الميتافيزيقا نفسها به ، يدور حول العدم . واذا سألنا هيديغر كيف عرف ان السؤال عن العدم سؤال ميتافيزيقي ، لم نجد جوابا لديه ؛ لان جوابا من هذا النوع ، يتطلب منه الحديث « عن » الميتافيزيقا ؛ وهو يحاول الهرب منه ، منذ البداية . ولكن الهرب من الحديث « عن » الميتافيزيقا ، يعني الهرب من تحديد موضوعها . وعندئذ ، الا يحق لنا ان نتساءل : كيف يمكن لهيديغر ان يعرف المدى الذي يمكن له فيه ، ان يتحدث عن العدم ، من دون أن يخرج « على » الميتافيزيقا ، التي جعلها عنوانا لمقاله ؟ ! لقد ترك لنفسه الحرية في أن يبحث مايرغب في بحثه ، وان يتجنب ما لا يريد ان يتطرق اليه ؛ وان يتقدم حيث يريد التقدم ؛ وان يقف حيث يحلو له التوقف ! وهذا يعني ، ان الميتافيزيقا التي نحن بصددها في هذا المقال ، هي الميتافيزيقا الهيديغرية ، وليست

---

(٥) في مجموعة مقالات لمارتن هيديغر : ما الفلسفة ؟ ما الميتافيزيقيا ؟ هيلدرلن وماهية الشعر ، دار النهضة العربية ١٩٦٤ .

الميتافيزيقا كما يفهمها الاخرون ؛ الميتافيزيقا كما نستخلص خصائصها من هذا المقال ، لا الميتافيزيقا كما هي دراسة لموضوع معين

وهكذا نلاحظ ان الاطبيعي ، بعد ان قطعت اوصال الحقيقة الاولى لدى « الفلاسفة » التقليديين ؛ اضاعتها في عدم التحديد ، وجعلت العدم ممثلا لها ، لدى هيديغر . لهذا لابد لنا من محاولة الخروج من ضباب عدم التحديد هذا ، والانكفاء الى الحقيقة الاولى ، بل الحقيقة كاملة التشخيص . انه لابد لنا من تجاوز تفرعات النهر المختلفة ، الى النهر ذاته ، قبل تفرعه ؛ لنرى مياهه المشتركة النابعة من قلب الغابة العذراء ؛ فوراء « الحقائق » الجزئية المجردة ، حقيقة كاملة التشخيص ، اخفتها عنا المجردات الناشئة عنها .

وفي ضوء هذا ، يمكننا ان نفهم محاولة كنط ، في فحصه عن قيمة العقل ، وجعله نظرية المعرفة مدخلا لكل اطبيعي يمكن ان تصبح علما في المستقبل ؛ وهو مادعاه بالمسالة النقدية . بيد ان الحل الكنطي اتى سلبيا في « نقد العقل النظري الخالص » ؛ وادى الى انكار الاطبيعي من الناحية النظرية ؛ واتى ايجابيا في « نقد العقل العملي الخالص » ؛ وادى الى اقامة الاطبيعي على مسلمات العقل العملي . وقد راينا العقل النظري، في « نقد العقل النظر يالخالص » يعمل بمعزل عن الحواس ، وفقا لمبادئه المفارقية (الترنسندنتالية) التي تطبع ماتقدمه الحواس بطابعها ؛ وان دور الفلسفة هو تحديد نصيب الذات ، لانصيب الموضوع ، في المعرفة . ولكن المعرفة الحقة كانت في نظره ، هي المعرفة التي تنتج عن التقاء العقل والموضوع في التجربة ، نتيجة مادة تنقلها الحواس من الموضوع ، وصورة يطبع العقل بها هذه المادة ، وفقا لمبادئه المفارقية . اما المعرفة الإطبيعية ، المعرفة الواهمة ، فهي التي يعمل العقل بها ، من دون مادة تنقلها الحواس اليه ؛ وذلك حينما يريد ان يطبق في مجال ماوراء الحس ، ما سبق ان طبقه في مجال الحس . لهذا كانت المعرفة الإطبيعية غير ذات قيمة ؛ لانها

نتيجة العقل النظري الخالص ؛ اي العقل وهو يعمل في الفراغ من دون مادة تأتيه من التجربة (٦) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان كنط يؤمن بعالم ما وراء الحس ! وهذا ما عبر عنه في « نقد العقل العملي الخالص » . كانت النتائج التي وصل اليها في « نقد العقل النظري الخالص » كافية لتقويض دعائم الاطبيعي . ولكنه عز عليه ان يراها مقوضة بيديه ، فحاول ان يقيمها من جديد ، بالعقل العملي ، على اسس جديدة ؛ لان هناك امورا كان يريد ان يستبقيها ، على الرغم من ان العقل النظري الخالص لايستطيع اثباتها ؛ وهي حرية الارادة ، وخلود الروح ، ووجود الله .

وهنا لابد لنا من ابداء ملاحظتين على رأي كنط :

اولا — لقد آمن كنط بعالمين : عالم طبيعي وعالم إطبيعي ؛ وجعلهما موضوعين لعقلين : عقل نظري وعقل عملي . اما العقل النظري فموثوق في ادراكه الظواهر في عالم التجربة ؛ ولكنه عاجز عن ادراك الاشياء في ذاتها . ومع ذلك ، لابد من افتراض الاشياء في ذاتها وراء الظواهر ؛ حتى لو لم يستطع العقل النظري اثباتها . وهكذا يتدخل الايمان ، ليعمل من وراء العقل النظري . واما العقل العملي فموثوق عمليا ايضا ، في مجال الاخلاق ؛ ولايمكننا ان نشك في شرعية اوامره . ولكن ، ماقيمة هذه الشرعية ؟ انهامرتبطة بمسلمات العقل العملي الثلاث ، ولاسيما مسلمة وجود الله ، التي تعتمد مسلمتا حرية الارادة وخلود الروح عليها . وهكذا يتدخل الايمان هنا ايضا ؛ ليعمل من وراء العقل العملي ، كما عمل من وراء العقل النظري .

ثانيا — ولكن ايمان كنط شيء ، وما تؤدي « فلسفته » اليه ، شيء آخر . والحقيقة ، ن الإطبيعي التي بناها بالعقل العملي ، لا تختلف كثيرا عن

---

(٦) راجع كتابه : نقد العقل الخالص Kritik der reinen Vernunft وهو الجزء الثاني في مجموعة «مؤلفاته ، منشورات مطبعة انزل Insel في فيسبادن ١٩٥٦ .

الاطبيعي التي هدمها بالعقل النظري . الا كاختلاف الاثبات والنفي بازاء قضية ترجيحية ! ولكنه هدم بالعقل النظري ، وبنى بالايمان ، فكان هدمه اقوى بكثير من بنائه : كان هدمه اقوى ؛ لانه اعتمد على تحليل العقل النظري ، وتحديد قدرته ، التي وجد انها لاتتجاوز عالم الظواهر ، وتقف عاجزة امام الاشياء في ذاتها ، وتحار بين النقائض في عالم مابعد الطبيعة ؛ في حين كان بناؤه اضعف ؛ لانه اعتمد على مسلمات العقل العملي، التي لاتخرج عن كونها مسلمات ؛ اذ يكفي هدم هذه المسلمات ، حتى يتقوض البناء الاخلاقي كله ؛ شأنه شأن بيوت الرمال ، التي يبنيها الاطفال على شاطىء البحر ؛ فتأتي الامواج لتجعلها اثرا بعد عين . وهذا يدعونا الى القول : ان الاطبيعي الكنطية ، التي اقامها العقل العملي ، كانت وليدة نزعة دينية . وهذا وحده كاف لاطراحها فلسفيا . وهكذا يبدو انه لا العقل النظري ولا العقل العملي بامكانهما ان يقيما دعائم الاطبيعي على اسس ثابتة ، من وجهة النظر الكنطية .

ومن تأمل محاولة كنط ، نستطيع ان نتساءل : تراه الم يرتكب خطأ وهو يحاول ان يصلح الخطأ الذي وقع فيه اصحاب مابعد الطبيعة ؟ في رأينا ، انه ارتكب هذا الخطأ ؛ لانه لم يفطن الى طبيعة الخطأ الذي حاول اصلاحه . لقد علمته تربيته الدينية ، ان هناك حقائق اطبيعية . ولكن تفكيره (عقله النظري) انتهى به الى استحالة اثبات هذه الحقائق. وبدلا من ان يطرحها ظهريا ، عمد الى اقامتها على مسلمات ضميره (عقله العملي) .

ولكن ، ما الدرس الذي نستطيع ان نخرج به من محاولة كنط ؟ — ليس هناك عالم اطبيعي ؛ واذا كان لابد من اقامته ، فنحن لانستطيع اقامته الا على مسلمات ! شيء رائع ! ولكن ، ما معنى ان نقيم شيئا على مسلمات ؟ هذا يعني في رأينا ، ان لا نقيمه على شيء ، بل ان لا نقيمه اطلاقا ! وهذا يجعلنا نتساءل : هل يمكن لنا ان نعد شيئا ، هذا الذي لا تمكن اقامته على شيء ؟ او هذا الذي لا يمكننا ان نقيمه اطلاقا(٧) ؟

---

(٧) لمزيد من فهم نقدنا للفلسفة الكنطية ، ننصح بمراجعة الفقرة السابعة من دراستنا : الموقف الفلسفي ، في كتابنا المذكور .

ولكن ، لنتوقف قليلا عند الوجود ؛ لان المسألة التي تتطرق اليه ، هي حجر الزاوية في مسائل مابعد الطبيعة . فكيف كان موقف « الفلاسفة » منه ؟ وكيف فهموه ؟ هنا لابد لنا من الاشارة الى انهم استعملوا كلمة « وجود » بمعنيين مختلفين : الوجود في الايمان والوجود في الاذهان . وهذا الاستعمال يدخل في رأينا في معاني التشكيك ، لا في معاني الاشتراك او التواطؤ ، بحسب تعبير الاسلاميين ؛ لانه ما من اشتراك او تواطؤ بين الوجود في الاعيان والوجود في الاذهان !

والحقيقة ، فقد كان استعمال « وجود » بالمعنى المجرد ؛ اي بما هو وجود في الاذهان ، هو سبب تورطهم في ذلك ، لقد احالوا الوجود الى مفهوم ؛ بل جعلوه اعم الموجودات واكثرها خواء ؛ لان الوجود هو المشترك بين الاشياء جميعا ، منذ أرسطو . وهذا ما جعل ابن سينا يقول عنه : انه لا يعرف بغير الاسم ؛ فهو مبدأ اول لكل شرح ، ولا يمكن ان يكون له اي شرح ؛ بل يكفي ان يذكر اسمه ، حتى ترتسم صورته واضحة كل الوضوح في النفس ، دون توسط شيء من الاشياء(٨) . لهذا ليس للوجود تعريف ؛ لان التعريف يكون بالجنس والفصل النوعي ؛ والوجود ليس له جنس ولا فصل نوعي . وهذا يعني ، انه كما يقول هيديغر : يمتنع عن التعريف ؛ فالمفهوم الاعم والذي لا يمكن حده من جراء ذلك ، ليس بحاجة الى التعريف ؛ فكل فرد يستعمله على الدوام ؛ وهو يعرف تمام المعرفة ماذا يعني . وعليه ، فالسر الذي كان يثير قلق الفيلسوف القديم باستمرار ، اصبح « بداهة » تعشي الابصار ؛ حتى ان من ظل يطرح الاسئلة بصدده ، راى نفسه متهما بارتكاب خطأ منهجي(٩) . ولكن ، هل يمكننا ان نتقبل راي ابن سينا من ناحية ، وراي هيديغر من الاخرى ؟

---

(٨) النجاة ، الطبعة الثانية ، ص ٢٠٠ ، طبعة محيي الدين صبري الكردي ، القاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٩) الترجمة الفرنسية لكتابه « الوجود والزمان » L'être et le temps ، منشورات غاليمار في باريس عام ١٩٦٤ .

لنلاحظ ان الوجود اصبح مفهوما ومعنى لدى كل منهما ؛ فهل هو كذلك ؟ في راينا ، ليس الوجود مفهوما ومعنى ؛ بل الاصل الذي يستخرج منه العقل كل مفهوم ومعنى . انه ينبوع المفهومات والمعاني بالاضافة الى العقل ؛ ولكنه ليس بذاته مفهوما ومعنى . انه ليس شيئا ما وراء الحس ، بل الشيء الذي يظل حاضرا لكل حس وعقل : انه الوجود في التشخيص ؛ وهو المعرفة في التجريد . لهذا كانت المعرفة تجريدا للوجود المشخص . واذا توصلنا الى هذا الحد ، كان معنى ما نقوله ، هو أن الوجود لا يمت الى العالم الإطبيعي ، فهو اقرب ما يكون الينا . واذا كان بالامكان تحويله الى معرفة في التجريد ؛ فليس العقل هو الوسيلة الوحيدة لادراكه ؛ بل كان ادراكه بالعقل يعتمد على ما بعده العقل اصله ؛ أعني الوجدان . فالوجدان لا يكتفي بتعقيل الوجود ، بل يحياه في اعمق اعماقه ، وبكل خلية من خلايا جسده . وهذا وحده كاف للقضاء على نظرية المعرفة والاطبيعي في وقت واحد معا ؛ لانهما كلتيهما نتيجة خطأ واحد ؛ أو بمعنى اصح نتيجة خطأ ومحاولة اصلاح الخطأ بخطأ : فالاطبيعي في اصلها نتيجة خطأ ، كما بينا ؛ ومحاولة جعل نظرية المعرفة مدخلا للاطبيعي ، هو الخطأ الذي حاول اصلاح الخطأ بخطأ مماثل . والحقيقة ، ان جعل المعرفة تجريدا للوجود يتضمن أمرين :

اولا ــ انه ما من اطبيعي بالمعنى المألوف للكلمة ؛ اي بمعنى كائنات علوية قائمة في عالم يتجاوز الحس ؛ اذ ان هذه الكائنات المزعومة ليست في نهاية التحليل غير توضيع للمبادىء المجردة ، التي وجدنا انها ضرورية لتفسير الطبيعة وحوادثها . وهذا يدعونا الى القول : اذا كان لا بد من التسليم بها ، كان لا بد من عدها هذا العلم ، الذي يكشف عن مبادىء التفسير ، التي يفترضها العقل وراء تجربته للعالم الطبيعي ، وليس أكثر .

ثانيا ــ ان نظرية المعرفة والاجدياء شيء واحد ؛ لان كل معرفة تصبح عندئذ تجريدا لوجود من الموجودات في الوجود ذاته ؛ فلا تكون الا تعبيرا عن الوجود وموجوداته ؛ لان الوجود المشخص حاضر ابدا للوجدان ــ بما هو ذات وجسد ــ وموجوداته حاضرة له بما هو كذلك ، وبما هو مشارك

لها في الحضور في الوجود المشخص . وهذا يعني ، ان نظرية المعرفة ، بما هي مدخل للاطبيعي ـ كما ارتأى كنط ـ كفت عن ان تكون ضرورية ؛ اذ ان الفاء الاطبيعي ، لابد له من ان ينتهي الى الفاء كل مدخل اليها : فاذا لم نكن نؤمن بعالم ما بعد الحس ، لم نكن بحاجة الى اية نظرية ، مهما كان نوعها ، لتكون مدخلا الى هذا العالم !

وعلى هذا النحو ، تصبح الاجدياء والاطبيعي ونظرية المعرفة شيئا واحدا : انه علم الوجود مشخصا ، او علم مبادىء العقل في محاولة تفسير الوجود المشخص ، او علم معرفته النظرية . وهذا يعني اننا بصدد الاجدياء دائما، وفقا للملحظ الذي لحظناه في نظرتنا ؛ ولكن ، من دون ان يكون ملحظا واحدا وحيدا قائما بنفسه ؛ لانه يظل يخفي الملحظين الآخرين وراءه ، وهما لا ينفصلان عنه دون شك !

ـ ٥ ـ

اذا انتهت « الفلسفة » الى هذا المصير متمثلا بالاخطاء التي اشرنا اليها سابقا ، كان لا بد لنا من البحث عن طريق جديد يخلصنا من هذه الاخطاء. لقد وجدنا ان البدء من المجردات كان في اصل هذه الاخطاء ؛ وانه لا بد لنا من الاكتفاء نحو المشخص ؛ لنتخذه نقطة انطلاق لنا في التفكير(١٠) ، ولكن الاكتفاء نحو المشخص ، ليس عملا سهلا ؛ ولا سيما اذا كنا نبغي من ورائه، اعادة بناء الفلسفة ، وتخليصها من كل ما ليس فيها . ان هذا يدعونا الى اعلان الثورة الفلسفية ، والبدء من نقطة البدء الحقيقية ، واتخاذ منهج يتفق مع هذه البداية ، والبحث عن مبادىء جديدة في التفكير ، تنسجم مع نقطة البدء والمنهج . عندئذ تتداعى المذاهب « الفلسفية » المختلفة ، او تصبح ـ في احسن حالاتها ـ عناصر في بناء صرح الفلسفة الحقيقية ، بعد ان وجدت جذعها المشترك الذي يجمع بينها ؛ فيزول

(١٠) راجع مقالنا : الفلسفة كما اراها ؛ في مجلة المعلم العربي (شباط ١٩٧٨) ؛ وهي المجلة التي تصدرها وزارة التربية في القطر العربي السوري .

التضارب والتباين ، وتزول بزوالهما دواعي الشك والنسبية ؛ ويصبح المذهب والمنهج توأمين لا يفترقان ، يتمم احدهما الآخر ، في رؤية الحقيقة وبنائها ، والتوصل الى أقصى مداها(١١) .

ولكن مسألة البداية شائكة جدا ، ولا سيما بعد النقد الذي وجهناه الى « الفلسفات » المختلفة ، التي اتخذت لها بدايات جزافية لم تصل بهـا الى اليقين . فكيف نبدأ ؟ انه لمن البداهة بمكان ، ان نعرف جهد طاقتنـا عن فرض هذه البداية فرضا ، خوفا من ان نقع نحن ايضا ، في ما وقع فيه « الفلاسفة » . فالفلسفة ـ شأنها شأن اي علم ـ تسعى الى حقيقة خاصة بها ، وهي بهذا المعنى تختلف عن الحقائق التي تسعى اليهـا العلوم الاخرى .

ومادمنا بصدد الحقيقة التي تسعى الفلسفة اليها ، والحقائق التي تسعى العلوم المختلفة اليها ، فلا بد لنا من التوقف قليلا لنتساءل : هل هنـاك حقيقة واحدة او حقائق متعددة ؟ واذا كان هناك عدة حقائق ، فما مكانة الحقيقة الفلسفية بينها ؟ واذا كانت هناك ـ خلافا لذلك ـ حقيقة فلسفية فأين تقع الحقائق العلمية منها ؟ اهي اجزاء لها ؟ واذا كانت اجزاء لها ، فكيف يمكن تصورها فيها ؟ وما العلاقات التي تربط بينهما ؟ ان هـذه الاسئلة جميعا ، تفترض نوعين من الحقائق : حقيقة كلية ، وحقائق جزئية

وفضلا عن ذلك ، كيف يعمل التفكير وهو بصدد الحقيقة الكلية ؟ ايعمل كما يعمل وهو بصدد الحقائق الجزئية ؟ أم ان التفكير فيها يختلف اختلافا اساسيا عن التفكير في الحقائق الجزئية ؟ واذا كان الامر كذلك ، افلا يعني ان اكتشاف تفكير كلي مخالف للتفكير الجزئي ، بداية ثورة حقيقية في التفكير عموما ، وفي التفكير الفلسفي خصوصا ؟

ولكن السؤال عن الحقيقة او الحقائق يتضمن اصلا ذاتا واعية تطـرح السؤال عنها ، اذ ان الحقيقة من دون وعيها ، والسؤال عنها ، ليست

(١١) راجع مقالنا : افلاس الفلسفة وتجديد رصيدها ؛ في مجلة العلم العربي (تشرين الثاني ١٩٧٧) .

حقيقة . فهل تدخل هذه الذات في الحقيقة ، او هي حقيقة قائمةبراسها الى جانب الحقائق الاخرى ؟ واذا كانت حقيقة فهي بحاجة الى من يعيها، لانها لن تكون حقيقة من دون هذا الوعي ! بيد ان وعيها اما ان يكون من ذاتها ، او من غيرها . ولكن وعيها من غيرها ، يخلع عنها صفة الذات ، ويحيلها الى موضوع ، في حين ان وعيها ذاتها ، يجعلها موضوع ذاتها ، فتصبح موضوعا في وقت واحد معا . فهل حقيقتها بما هي ذات واعية ، غير حقيقتها بما هي موضوع هذا الوعي ؟

من هذا نستطيع ان نستخلص ، ان مفهومي الذات والموضوع متلازمان والا فكيف يمكن ان يكون كل من الذات والموضوع حقيقة ؟ ولكن مفهومي الذات والموضوع ـ بما هي حقيقتان ـ يعنيان ان كلا منهما مساوق للآخر، وانه لا يمكن فهم احدهما من دون الاخر . فانا حينما اقول «ذات» اتصور موضوعا يقف في مقابلها ، وكذلك حينما اقول « موضوع » اتصور ذاتا تعي هذا الموضوع . وهذا يعني ان احدهما في مقابل الاخر . ولكن ، هل يمكن لاحدهما ان يقف في مقابل الآخر ، من دون حقيقة ثالثة ـ لابد من الاعتراف بها ـ ليقوم احدهما في مقابل الاخر ؟ واذا سلمنا بهذه الحقيقة فهل يمكن ان تتحول الى موضوع ؟ لكي تكون موضوعا ، لابد لها من ان تكون في مقابل الذات . ولكننا راينا انها قائمة وراء الذات والموضوع ، فماذا ندعوها ؟ لندعها « موضوعا » تجوزا ، ولنضع كلمة موضوع بين هلالين !

هذه الحقيقة الثالثة هي العالم ، فالذات والموضوع في العالم ، فهو شرط وجودهما ، ولا يمكن لهما ان يكونا من دونه ، ومن هنا كان العالم هو جملة الموضوعات التي تقف في مقابل الذات ، ولكن لا من حيث هو جملة من الموضوعات الفردية تقف من كل منها على حدته ، وانما من حيث هو وحدة هذه الموضوعات ، دون تفريق بين موضوع وموضوع ، للوقوف من هذا وذاك على حدته(١٢) .

وهنا لابد لنا من التوقف عند هذا التفريق : ان العالم بالمعنى الاول ، يدخل

(١٢) كتابنا : الفلسفة ومعنى الحكمة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٧٨ .

في نطاق الدراسة الفلسفية ؛ وهو المعنى الثاني يدخل في نطاق الدراسات العلمية ؛ حيث ينفرد كل علم احد هذه الموضوعات ، ويدرسه بما هو موضوع متفرد .

ولكن العالم ، حتى لو فهمناه على انه وحدة الموضوعات ، يظل جزئيا من دون الذات . ولهذا كان لابد للحقيقة الكلية من ان تشمل العالم والذات معا ، على نحوين مختلفين : نحو مجرد تتميز فيه الذات من العالم ، ولكنهما يكونان معا الحقيقة الكلية ؛ ونحو غير مجرد ، تكون فيه الذات والعالم الحقيقة الكلية ، ولكن قبل تمايزها ؛ ان النحو الاول يعبر عن الحقيقة بما هي معرفة ، في حين ان النحو الثاني يعبر عنها بما هي وجود والحقيقة ، ان جملة العالم — لايمكن الوقوف منها ، وتحويلها الى موضوع الا في التجريد ، حيث تبني الذات لنفسها « عالما » مجردا ، وتتصور نفسها هي والعالم الحقيقي فيه ، وقد وقفت في مقابلة . ولكن هذا العالم يكون من صنع الخيال ؛ ولا يمت الى الحقيقة بصلة : انه عالم مشوه ، اصبح الكل فيه جزءا ، واستحالت دراسته الفلسفية الى دراسة علمية !

وهذا يعني ، ان حقيقة الذات جزء من حقيقة العالم ، من الناحية الوجودية ؛ ولكنهما يصبحان حقيقتين مستقلتين في التجريد . بيد ان التجريد لايحصل دفعة واحدة ، بل بالتدريج ، وجزءا بعد جزء ، مما من شانه ان يخفي عنا جملة العالم ، بما هو شرط ضروري وكاف ، لوقوف الذات من موضوع معين ، هو جزء مجرد من العالم !

وهكذا يمكننا ان نعد العالم حقيقة في مقابل الذات ، سواء انظرنا اليه في جملته ، ام نظرنا اليه في حال تفتته الى موضوعات جزئية . ولكن ، لابد لنا من الفحص عن اصل هاتين الحقيقتين ، لندرك علاقة الحقائق الجزئية بالحقيقة الكلية .

— ٦ —

بيد ان الذات ليست حقيقة قائمة بذاتها ، بل تمت باصلها الى الوجدان ؛ يتميز بانه وجد ثلاثي الاطراف : وعي ونزوع وانفعال . انه بما هو

وجد ، حرية وحتمية في وقت واحد معا : حرية يستطيع ان يفارق بهـا الوجود تجريدا ، وحتمية يظل لاصقا بها بالوجـود تشخيصا . وبين التجريد والتشخيص يحيا بما هو وجدان .

واذن ، فهو بوجده يختلف عن عالم الاشياء : انه يقوم بدوره على مسرح الوجود ، ويتفرج على ما يجري عليه ، في وقت واحد معا . ولكن قيامه بدوره على مسرح الوجود ، يدمجه في الكل ، ويجعله في الكل موضوع دراسة فلسفية ، في حين أن تفرجه على ما يجري عليه ، هو استقراؤه لحركة الصيرورة التي تحول كـل شيء الى جزئيات ، وهـذا موضوع دراسات علمية ، كما اسلفنا . وبين هذا وذاك ، يلمس ارتباط الحقائق الجزئية بالحقيقة الكلية ، واستناد العلوم الجزئية الى العلم الكلي ! فهنا القائم بدوره ، والمتفرج على ما يجري في العالم ، يؤلفان حقيقة واحـدة لا يمكن فصمها بحال من الاحوال : انه ليس غريبا عن هذا العالم ، فهـو في « بيته » !

هذه الصورة تكشف لنا عن وجودنا وعن الوجود الذي نعيش فيه ، في فعل واحد ، وهو لا يصبح فملاً مزدوجا الا في مستوى التجريد ، وهذا ينتهي الى القول : اننا نعرفه بما هو وجود وظاهرة في وقت واحد معا ، فهو ليس من ابداعنا ، وان كنا نشعر بابداعنا اياه ، حينما نشارك في حركة ابداعه ذاتها . بيد ان لموجودات كلها هي اجزاؤه ، هي منه تشخيصا ، وان بدت فيه تجريدا . انها هناك على مبعدة من جسدي ، قد أمد يدي واتناولهـا او الامسها ، او قد احتاج الى خطوة او خطوتين لكي الامسها او اتناولها انها « حاضرة » في الوجود المشخص القائم ابدا . بيد انه بامكاني ــ على الرغم من « حضورها » في الوجود المشخص القائم ابدا ــ ان اشيح بناظري عنها ؛ وان ابعد اعضائي عن ملامستها وملاقاتها . ولكنني في الاحـوال جميعا ، أظل اشعر ان هناك شيئا لا استطيع ان اشيح بنظري عنه ، او ابعد اعضائي عن ملامسته وملاقاته . وهذا هو العالم الحاضر ابـدا ، لاحضور فكرة ، بل حضور وجود ! وذاكم هو الحضور الكلي الذي ينعدم فيه التفريق بين الحرية والحتمية ، خلافا لما هو الامر بصدد الحضـور الجزئي للموضوعات الجزئية !

واذن ، فنحن نجد هناك حقيقتين مجردتين : الذات والعالم . فكيف يمكن لنا ان نتصور كلا منهما ؟ هنا لابد لنا من ان نربط التصور بصاحبه ، اذ ان هناك فرقا بين تصور الانسان العادي وتصور الفيلسوف .

يعني الانسان العادي بالذات ، الشخص الواعي ، وحقيقته المشخصة ، ويعني بالعالم جملة الاشياء الفردية ، دون تمييز بين الاشياء الفردية وجملة العالم . اما « الفيلسوف » فيعني بالذات الجانب العارف من الانا ، ويضعها في مقابل الموضوع ، وهو الجانب المعروف من العالم ؛ الذي يستحيل الى مجرد مكان يجمع بين الذات العارفة والموضوع المعروف . والمعنى الاول مشخص، والمعنى الثاني مجرد. ولكن التطور يصل بين المعنيين: فالاتصال من الذت والعالم بمعناهما المشخص ، الى لذات والعالم بمعناهما المجرد ، نتيجة نمو التجربة الشخصية ــ ولا سيما العقل ــ بتأثير الحياة الاجتماعية، ولا سيما جانبها الثقافي او العلمي !

ولكننا في كلتا الحالتين نجد تجريدا ؛ وان كان هذا التجريد ، في احدى الحالتين ، اكثر ايغالا منه في الحالة الثانية . فهناك اولا تجريد الذات من الحقيقة كاملة التشخيص ، ثم تجريد الموضوعات من الحقيقة الاولى . الناتجة عن تجريد الذات من الحقيقة كاملة التشخيص . ومن هنا كان الاختلاف في النظر الى الحقيقة بين الرجل العادي والفيلسوف . فالحقيقة التي هي موضوع تفكير الرجل العادي ، تتصف بالصفات التالية :

اولا ــ انها حقيقة غامضة وغير واضحة في ذهنه ؛ فهو يؤمن بها ، من دون ان يستجليها استجلاء تاما ، او شبه تام . وهذا يجعل استجلاءها ، بتأثير الاسئلة الموجهة الى صاحبها ، يظهر انها ليست حقيقة واحدة ؛ بل جملة من الحقائق يجمعها سديم فكري ، تختلط فيه الافكار المسبقة بالعواطف والاعراف والاساطير الخ ... وان الفحص الدقيق يكشف فيها عن جملة من التناقضات التي لا يمكن رفعها الا بالتفكير المنطقي من ناحية ، والنظر الفلسفي من ناحية اخرى . ولهذا ، كثيرا ما ينتهي التفكير الجدي فيها ، الى رفضها ونبذها ظهريا ، ومحاولة ايجاد حقيقة اخرى تحل محلها ، سواء اكانت علمية ام فلسفية !

ثانيا ـ ولكنها اصل كل تفكير مع ذلك ؛ حتى التفكير الفلسفي لابد له من الرجوع اليها ، وارتياد معنيها ؛ لانها تعبر عـن التجربة الحية للحقيقة الاولى ، وما يجري فيها ؛ تعبير عن التجربة التي لابد من فحصها فحصا دقيقا ، لمعرفة ما هو جوهري وما هو غير جوهري فيها .

انها تجربة تتصل بالوجود المشخص . وتلكم ميزتها ! ولهذا كانت اصدق من العلم الذي يحيل كل شيء الى ظاهرة ؛ ويجعل الحقائق العلمية جملة من الظواهر ترتبط فيما بينها بعلاقة ما . ولهذا كانت ضرورية للعالم ، لتخلع على قانونه العلمي صفة الصدق الوجودي ، التي يصبح وهما من دونها ؛ وكانت ضرورية للفيلسوف ، لتمنعه من التيه مع المجردات . لهذا كانت تجربة الوجود المشخص اصدق مـن التجربة العلمية والتجربـة « الفلسفية » ، تجربتي المجردات اللتين تردان كل شيء الى جملة مـن الافكار ، ضاربتين عرض الحائط باصلها الوجودي المشخص . والحقيقة ، ان الافكار لاقيمة لها ، ان لم تحل الى الوجود المشخص ؛ اذ ان الموجودات المختلفة هي الاصل الذي تصدر عنه . ولكنها فضلا عن ذلك ؛ تجربة تتصل بالصيرورة ، وترى كل شيء في تبدل دائم ؛ من دون ان تتمكن من النفاذ من خلال الصيرورة ، الى ادراك الحقيقة كاملة التشخيص ، بما هي وحدة الذات والحقيقة الاولى ؛ وهذا يوردها موارد الضياع والتناقض ، واخذ الحقائق الجزئية مكان الحقيقة الكلية ، بتعميمات سريعة ومتناقضة تبني وتهدم في وقت واحد معا .

اما انها جملة من الحقائق يجمعها سديم فكري ، فيرجع الى انها لم تصل بعد ، الى درجة قصوى من التجريد ، وهذا يدل على انها ما زالت قريبة من اصلها الوجودي المشخص ، الذي هو الضمان الوحيد للفكر ، من التيه مع المجردات . وتلكم مزية لا سيئة !

واما انها تنطوي على جملة من التناقضات ، فيرجع الى ان الوجود المشخص لا يخضع للعقل خضوعا تاما ؛ وانه يظل قابعا في جبروته ، خلف حدود العقل ؛ وانه اغنى بتشخصاته من مجردات العقل . لهذا لم تكن تناقضاتها مما يتطلب العزوف عنها كليا ؛ بل النظر اليها بمنظار جديد ، يكشف عن اصل هذه التناقضات ، ويضعها في موضعها الحقيقي ، ويعطيها القيمة الفلسفية التي تستحقها .

والحقيقة ، ان الحقيقة كاملة التشخص ليست مجرد وجود مشخص ، بل انها تشمل بما هي الحقيقة الكلية الوحيدة ، حقيقة الذات تشخيصا ، والحقائق الجزئية والمجردة جميعا ، بما هي الحقيقة الاولى المميزة في حقيقة الذات تجريدا . في هذه الحال الاخيرة ، تنفصم الحقيقة كاملة التشخيص الى حقيقتين : احداهما عارفة ومبدعة ، والثانية موضوع المعرفة او العمل او الابداع . اما الذات العارفة فترى الوجود والوحدة والثبات ؛ وراء الصيرورة والتعدد والتغير ؛ فتشعر انها لابد لها من ان تتوقف قليلا ، لترى الوجود وراء الصيرورة ، والوحدة وراء التعدد ، والثبات وراء التغير . ومع ان الرجل العادي يقف هذا الموقف التجريدي ؛ فيجرد ذاته من العالم ؛ غير انه ينساق مع اللحظة العابرة ، وما تتركه من اثر . وهذا يعني ، ان تفكيره المنساق مع تغيرات الصيرورة ، والذي لا يرى الا الموجودات الجزئية التي تخلفها الصيرورة وراءها ، ينخدع بهذه الموجودات ، معتقدا انها الوجود المشخص ؛ فلا يرى الوحدة وراء التعدد ، ولا الثبات وراء التغير ؛ فيصدر في كل لحظة حكما كليا مخالفا للحكم الذي اصدره في لحظة سابقة ، وللحكم الذي سيصدره في لحظة لاحقة .

وفضلا عن ذلك ، يتصور الرجل العادي الذات منفصلة عن العالم ؛ ولكنها لا تبارحه ، ولايمكنها ان تكون من دونه ؛ فهناك تلازم بينهما . أما « الفلاسفة » فيتصورون الذات حقيقة خالصة تختلف اختلافا اساسيا عن العالم ؛ وان رأى بعضهم ان الذات تحيل العالم الى طبيعة ذاتها .

ولكن الذات ليست منفصلة عن العالم ؛ واذا اختلفت عنه ، فالى حد معين ، في مستوى التجريد . انها مندمجة فيه حتى في حال تجريدها . ولكن هذا الاندماج يتراوح بين التشخيص والتجريد ؛ من الكثافة الى الشفوف ، ومن المعرفة الوجدانية الى المعرفة النظرية ، ومن الحضور المشخص الى التصور المجرد . وبمعنى اوضح ، هناك ذات بدئية ندعوها الوجدان ؛ وهي تعبر عن وحدة الذات والجسد ؛ كما ان هناك ذاتا نظرية ، هي مجرد ذات ، وهي تعبر عن انفصال الذات عن جسدها . ولكن الذات البدئية ــ بما هي وجدان ــ تمت الى عالم بدىء هو الوجود المشخص ، وتكون فيه في موقف مشخص ؛ في حين ان الذات النظرية ــ بما هي مجردة ــ تمت

الى عالم مجرد ، هو جملة الاشياء بما هي اشياء فردة ؛ وتكون فيه في حالة مجردة . بيد ان الحالــة المجردة متصلة بالموقف المشخص ، وأن كانت متباعدة عنه في حدها الاقصى . ففي الموقف المشخص يقبض الوجدان على الوجود المشخص ؛ وفي الحالة المجردة ، ينشىء الذهن عالما عقليا ؛ واتصال الحالة المجردة بالموقف المشخص ، من شأنه ان يجعل العالم العقلي امتدادا للوجود المشخص ؛ بحيث تصبح المعرفة العقلية ، مهما اوغلت في التجريد، هي الوجود مجردا ، لا معرفة منقطعة الجذور بالوجود المشخص ، كما راى بعض « الفلاسفة » .

والحقيقة،ان الحالة المجردة هي التي بلغت الذات بها مستوى الوعي الكامل عقلا . في هذه الحالة ، تبدو الذات في الوهلة الاولى ، بؤرة عقلية تشع في وسط دائرة غير متناهية ، هي العالم المستقل عن الذات ، المملوء بالاشياء والكائنات ، في انفصالها واستقلالها ؛ ولكنها لا تلبث ان تفرغه من اشيائه وكائناته ، وتدفع حدوده الى ما لا نهاية له ؛ فيبدو عالما لا نهاية له ، ويصبح مطلقا يتجاوزها من كل جهة . عندئذ تصل الى حالة التجريد المطلقة ؛ فتتعرى من حالاتها الوجدانية ،وتصبح مركز المطلق المفرغ من الموجودات جميعا ؛ شأنها في ذلك شأن مركز الكرة الهندسية في الكرة الهندسية(١٣) .

— ٧ —

وهكذا يبدو المطلق تجريدا من الوجود المشخص ، كما بدت الذات تجريدا من الوجدان . وهذا يعني ، انه لحظة عابرة من لحظات التجريد الاقصى، لا يصل اليها الا الفيلسوف . ولكنه ليس ذا قيمة في ذاته ، بل بأصله الذي جرد منه ؛ اعني الحقيقة الاولى . وكذلك المجردات جميعا ، فهي غير ذات قيمة في ذاتها ، بل بالموجودات التي هي اصلها . ومن هنا كان لابد للفيلسوف من مبدأ يعصمه من الخطأ ، في عالم المجردات . هذا المبدأ هو مبدأ التحقق الوجودي ، الذي ينص على ضرورة الرجوع الى

(١٣) دراستنا : الذات والمطلق ؛ في كتابنا : دراسات فلسفية .

الموجودات وتغيراتها ، بالاضافة الى الجزئيات ؛ وعلى ضرورة الرجوع الى الحقيقة الاولى بالاضافة الى المطلق .

واذا كان الامر كذلك ، كان لابد من القيام بعملية رد ، نرد بها كل فكرة الى مكانها في الحقيقة الاولى . بيد ان رد كل فكرة الى مكانها في هذه الحقيقة ، معناه رد العالم المجرد ذاته ، والذات العارفة ذاتها ، اليها ايضا ؛ فلا يمكن لشيء أن يكون موجودا الا في الوجود المشخص ؛ ولا يمكن لشيء أن يصير الا في الصيرورة ؛ ولا يمكن الشعور بالوجود الا بالوجدان ؛ ولا بالصيرورة الا بالفكر . ومن هنا كانت الحقيقة كاملة التشخيص هي الحقيقة الاولى ، بما تنطوي عليه من وجدان يقبض على الوجود بالجسد، وبواكب الصيرورة بالفكر(١٤) .

ولكن ، اذا كانت الحالة المجردة بحاجة الى الحقيقة كاملة التشخيص ، ترتد اليها في كل لحظة ، للتحقق من كل فكرة ؛ فما قيمتها اذن ؟ الحقيقة، ان الحالة المجردة ضرورة لا يمكن ادراك الحقيقة كاملة التشخيص الا من خلالها ؛ فهي شرط لابد منه ، للارتداد اليها ، وادراكها بوضوح ، في مشخصاتها كلها . فادراكها قبل الارتفاع الى الحالة المجردة شيء ؛ وادراكها بعد هذا الارتفاع شيء آخر . فهي تبدو قبل هذا الارتفاع عمياء لا يمكن تمييز ما تنطوي عليه ؛ وهي تتضح بعد هذا الارتفاع ، بتمايز جوانبها المختلفة من جهة ، وتمايز الذات المجردة من الوجدان من جهة اخرى ، بقدر التجريد الذي وصلت اليه . انها في الوضع الاول شعور بمجرد الحضور ؛ وهي في الوضع الثاني شعور بالموجودات المتمايزة ، وما يطرأ عليها من تغير . ومن هنا كانت المعرفة ممكنة ، وكان التجريد الذي تعتمد عليه ، ممكنا ايضا .

بيد أن العودة الى الحقيقة الاولى – بعد الارتفاع الى الحالة المجردة – تبديها اكثر تشخصا ، بابراز فروقها المتزايدة ؛ مع ان التشخيص حسي لا وجودي . والتشخيص الحسي مرحلة اولى في التجريد ، سابقة على التجريد العقلي ؛ ولكنها اقرب الى التشخيص الوجودي ؛ اذ ان التشخيص

(١٤) دراستنا : نحو فلسفة مشخصة ؛ في كتابنا المذكور .

ألوجودي هو امحاء المشخصات الحسية كلهـا في الوجود امحاء تاما ؛ ولا سـيما التغيرات الناتجة عن الصيرورة . ولهذا كان التشخيص الوجودي مرحلة مجردة بعض التجريد ، بالاضافة الى الحقيقة الاولى ، التي لا يمكن تصور الوجود فيها من دون الصيرورة ، ولا الصيرورة من دون الوجود . ولهذا كان ادراكه بالوجدان هو ادراك له بالجسـد في لمحة سريعة يتوقف فيها الزمان ، ويتجمد في آن ؛ فتتجمد الصيرورة في الوجود . ومن هنا كان عجز اللغة عن التعبير عنه بغير المجاز ؛ مثل قولنا : انه يتبدى لنا ، كما تتبدى كرة مظلمة من خلال اشعة سوداء !

وهذا يعني ، ان ادراك الحقيقة الاولى يقع بين ادراكين مجردين : واحد يتابع حركة الصيرورة ، وينتهي الى المجردات العقلية ؛ وآخر يلغي حركة الصيرورة ، لكي يدرك الوجود بالجسد في آن ، عاريا من كل صيرورة وما يتبعها من زمان . ومن المؤسف ان « الفلسفة » توقفت عند الادراكين المجردين ، محولة ادراك الوجود بالجسد ، الى ادراك بالعقل ، وجعله مفهوما مثل سائر المفهومات !

وهكذا تبدو لنا الحقيقة كاملة التشخيص ـ الكل المشخص ـ في تجردها المزدوج الاساسي ، وفي علاقاتها المجردة المتكثرة . ولكنه لابد لنا ، من العودة الى تكرار ان الحقيقة المجردة ليست حقيقة بالمعنى الصحيح للكلمة، الا بارتدادها الى الحقيقة كاملة التشخيص ؛ من دون ان يتطرق الملل الى نفوسنا من معاودة التكرار !

ومن هنا يبدو لنا الفرق الجوهري بين الموقف الوجودي والموقف الفلسفي؛ وهو كالفرق بين الوجدان ـ كما نفهمه ـ والعقل ؛ بل ان وسيلة الاول هي الوجدان ، ووسيلة الثاني هي العقل(١٥) . والحقيقة ، ان الموقف الوجودي هو الموقف الذي يتحد فيه الوجدان بالوجود المشخص ، بفعل

---

(١٥) راجع دراستنا : الموقف الفلسفي ؛ في كتابنا : دراسات فلسفية ؛ محاولة ثورة في الفلسفة ؛ دار الانوار ، بيروت ١٩٧٣ .

الوجد ، في الحقيقة كاملة التشخيص ؛ وهو موقف بديء دائم ، لايستطيع المرء منه فكاكا . وحتى حينما يتناوله العقل بالتجريد،في الموقف الفلسفي، فانه يظل البطانة الوجدانية له . انه موقف واحد بالنسبة الى كل انسان ، في كل لحظة من لحظاته .

ومن هنا نرى ، ان الوجود والوجدان في علاقة بدئية لاتحتاج الى تأسيس وهذا ما لحته العقلية العربية ، حينما اكتشفت هذه العلاقة ، فجعلت الوجود والوجدان والوجد تتحقق في فعل واحد . وَجَد . وهذا يوضح ان هذه العلاقة هي قوام العلاقات الاخرى جميعا ، من حيث هي علاقة وجدانية وجودية ، هي سند العلاقات المجردة .

بيد ان هذا التجريد لايمكن ان يحدث والوجدان هو الوجدان ، والوجود والحقيقة ، ان الوجود ، لانه مشخص ، لايدرك الا بالوجدان . لهذا لم يكن من معنى للوجود المطلق الذي تكلم عليه هيغل ، والذي انتهى الى اثبات انه واحد هو والعدم المطلق ، فالوجود هو الكل المشخص الممتلىء، في حين ان المطلق هو هذا الوجود وقد جرد من كل مشخصاته ، اي اصبح فارغا تماما !

وتفسير ذلك ان تحول الوجود المشخص الى مطلق ، مرتبط بحركة الصيرورة ، وبآليةخاصة للوجدان ، يتابع بها حركة الصيرورة . انه يستطيع بوجده ، فعله البدىء ، ان يجعل حرية هذا الوجد تتشبث بحتمية النظر بالفكر ، وتتخلى مؤقتا عن حتميتي النزوع والانفعال ، بما هما قدرتان وجدانيتان عامتان ، لكي تجعلهما حتميتين منضويتين تحت حتمية النظر . وبذلك يفرغ الوجدان مضمونه ذاتيا ، اي نزعاته وانفعالاته ، ويصبح ذاتا عارفة ، اي ذهنا . اما بالنسبة الى الوجود المشخص ، فانها تقوم بفعلين مماثلين ، احدهما سلبي ، يفرغ بمعونة الصيرورة ، الوجود من مشخصاته ، ويجعله مطلقا ، والثاني ايجابي يملأ الفراغ بمبدعات القوة النظرية ، اي بما ندعوه حقا . وماحدث بالاضافة الى القوة النظرية ، يحدث بآلية مماثلة للقوة العملية والقوة البديعية . أما الوجود المشخص الذي استحال الى مطلق ؛ فيملأ

بالمفهومات الاخلاقية ، او الصور الحسية وعندئذ ، يصبح الخير او الجمال مضمونه النزوعي او الانفعالي ، اعني بديله الاخلاقي او الجمالي ونحن ندعو واقعا هذا الوجود المفرغ من مضمونه ، والمملوء على نحو من الانحاء ، بمبدعات الصيرورة . فالواقع ، وان دل على الموجودات وحوادثها في قلب الوجود المشخص ، فهو فضلا عن ذلك ، طريقة الوجدان ـ بما هو ذهن وضمير وبديع ـ في ترتيب هذه الموجودات وحوادثها في الحقيقة الاولى ، وفقا لمبادىء الحق والخير والجمال .

ولهذا كانت القيم واقعية ايضا ، ولكن بواقعية وجدانية هي واقعية وجودية في نهاية التحليل . وهذا يعني ، ان الوجود المفرغ من مضمونه يملؤه الوجدان بموجوداته ، وفقا لقيمه ، وبحسب غلبة هذه القيم ، وبحسب توتر الذات في تغليب هذه القيمة او تلك ، ومنه يتضح ان الواقع ليس واحدا ، بل يختلف باختلاف مواقف الذات . وهذا يعلل لنا لماذا يختلف الموقف العلمي عن الموقف الاخلاقي وعن الموقف الفني اللذين يختلفان فيما بينهما ايضا . وهذا يعني ، ان الواقع يتلخص في ثلاثة مواقف عامة ، هي : موقف الحق ، وموقف الخير ، وموقف الجمال ، من دون ان يمنع هذا امتزاج احدهما بالاخر ، الا في حالة التجريد القصوى! ولكن هذا كله يحدث في قلب المطلق ، الذي ابدعه الذهن من الوجود المشخص . وهذا يجعلنا نوافق ، بمعنى من المعاني ، على جعله «موضوع» الفلسفة .

خاتمة

نخرج من الذي قدمناه بأن هناك فرقا جوهريا بين الحقيقة الوجودية والحقيقة المعرفية ، وان الثانية هي تجريد من الاولى ، ولكن ، بعد تجريد الذات من الحقيقة كاملة التشخيص . وهذا يعني ان التجريد تجريدان ، وان احدهما يسبق الاخر .

والحقيقة ، اننا نفهم التجريد على نحوين مختلفين : فهناك تجريد الذات من الحقيقة كاملة التشخيص ، وبه يتم الانتقال من احادية الحقيقة كاملة

التشخيص الى مثنوية الحقيقة الاولى وحقيقة الذات . وهناك تجريد الحقيقة الاولى ، بتأمل الذات ، الى حقيقة الوجد وحقيقة الصيرورة ، وما يتبعه من تكثر الموجودات الجزئية ، نتيجة لحركة الصيرورة وتأمل الذات وهذا معناه ان الذات قبل تجريدها ، لم تكن منفصلة فيها ايضا . ولكن الذات لاتلبث بحركة الفكر ، ان تواكب الصيرورة في الحقيقة الاولى ، ولا تلبث ايضا ، بتشبث العقل ، ان تتشبث على الوجود مجردا فيها . وهذا وذاك ينتهيان بالتجريد الى تفتيت الحقيقة كاملة التشخيص الى «حقائق» جزئية ومجردة ، هي الذات من ناحية ، والموجودات الجزئية وصفاتها وظواهرها من ناحية اخرى . ولكن تجريد ظواهر الموجودات الجزئية، منها هي ذاتها، انما يتم بعون من الفكر والعقل، وهما تجاه الصيرورة والوجود، ذهنا وعلى هذا النحو ، يبدو ان تجريد الذات من الحقيقة كاملة التشخيص شرط ضروري ، ولكنه غير كاف ، لتجريد الموجودات الجزئية وصفاتها؛ اذ لابد من صيرورة هذه الحقيقة الاولى ، لتساعد الذات فكرا وعقلا، على تجريد هذه الموجودات وصفاتها !

ولكن الذات لا تجرد ذاتها من الحقيقة كاملة التشخيص بالخيال، الا وتكون مرتبطة بها في الواقع ، بما هي وجدان مغروز في الوجود المشخص . ومن هنا كان التجريد فعلا ذهنيا يتيح للذات العارفة ان تتصرف بحرية ، سواء في ابتعادها عن الحقيقة الاولى ذاتها ، في سبيل تأملها او في عزلها موجوداتها وصفاتها عنها ، واحلال كل صفة من هذه الصفات ، في مكان عقلي خالص . ولكن حرية الذات ليست مطلقة؛ بل ذات بطانة من الحتمية لان الفعل العقلي لايخلو من الحتمية ايضا . وهذه الحتمية تتبـــدى في الفعل ، في مواكبة الفكر للصيرورة ، وبتشبث العقل بالوجود ، ابتـــداء من تشبث الوجدان به .

وهذا ينتهي بنا ، الى ان الذات ــ بما هي حرة ــ بامكانها ان تبدع بالخيال ما تشاء من الافكار ، التي ربما ليس لها اصل في الوجود المشخص . ولكنها لا تكاد تفعل ، حتى تنشىء حتميات من نوع جديد ؛ لانه لا حرية من دون الفعل ، وبالتالي ، من دون حتمية كائنة ما تكون ! والحقيقة ،

ان الخيال يتدخل هنا ، ويزاوج بين صفات حددها الذهن من موضوعات مختلفة ؛ ويخلع عليها صفة الحقيقة !

ولهذا كانت الحقيقة المجردة بنت الخيال الى حد ما ؛ حتى انه لا مسوغ لدينا لنعتها بالحقيقة ، سوى اصلها المشخص الذي انفصلت عنه . وهنا تظهر حرية الذهن ، بما هو فعل يكتفي بحتمياته الخاصة به . لهذا كان لابد له، لكي يكون تعبيرا امنيا عن الحقيقة الاولى، او عن حقائقها الجزئية، من ان يجعل فعله مقيدا بالصيرورة والوجود ، بما هما حتميتا الحقيقة الاولى والحقائق الجزئية المنبثقة عنها[١٦] .

ولكن هذا ليس كل شيء ؛ فهو جانب واحد من جوانب تجريد الحقيقة كاملة التشخيص ؛ الجانب المعرفي الذي يعتمد على قيمة الحقيقة . اذ ان هناك جانبين مجردين آخرين ، هما الجانب الاخلاقي والجانب الفني ، وهما يعتمدان على قيمتي الخير والجمال ، ولهذا قلنا : ان القيم جميعا ذات اصل في الحقيقة كاملة التشخيص ، وانها لا تتمايز منها الا تجريدا ؛ من دون ان يكون تمايز اية قيمة منها نافيا لاختلاطها بالقيمتين الاخريين ، ضمن حد معين !

(١٦) مقالنا : الحرية في التشخيص ، مجلة المعرفة (كانون الاول ١٩٧٨) ، دمشق .

ثورة معاصرة
في
ديناميات الظاهرة النفسية

د. عطوف محمود ياسين

يتساءل معظم الناس ؛ هل الفعاليات النفسية والقدرات العقلية ذات مصدر وراثي؟ ام انها ذات اصل بيئي ؟ ام انها ثمرة لتفاعلات متواصلة بينهما ؟ لقد اثارت البحوث السيكولوجية التجريبية المعاصرة في ميدان التعليم وفيزيولوجيا الدماغ ؛ ثورة شاملة في المعرفة القديمة الكلاسيكية حول النمو والذكاء والوراثة والعمليات العقلية . واصبح ضروريا أن يخرج عقلنا من ذلك (الفهم الذري الجزئي) الذي ظلت كل مدرسة من مدارس علم النفس تتوقع تدخله وتحجز تفكيرنا بين جدرانه ؛ دون أن تدرك بان ثمة ــ تلاحما عضويا ــ ووظيفيا بين علم النفس من جهة ؛ وغيره من الانظمة العلمية الاخرى . وهكذا فقد كسرت بحوث الستينات والسبعينات بعض القيود التي شكلت جمودا في فهمنا للظاهرة النفسية والفعاليات العقلية ، وقلبت مسلمات الامس رأسا على عقب .

ولم يعد مقبولا في عصر الكومبيوتر وسفن الفضاء ؛ والضبط الاليكتروني للصواريخ عابرة القارات ؛ لم يعد مقبولا القول : بأن التعلم يسير في ركاب النمو ؛ وانما اصبحت الدلائل الامبريقية حول التشكل الوظيفي للمنظومات المخية تشير بأن (التعلم يقود عملية النمو) ، ويغذيها ويتفاعل معها ويوجهها ويساهم بارتقائها وتطويرها .

ولم يعد السؤال القديم ؛ في ان الذكاء وراثي في جانب ؟ وبيئي في جانب آخر ؟ سؤالا مستساغا ومقبولا في شكله الكلاسيكي المطروح ، لان الاستعدادات الجيناتيكيه والخصائص الموروثة الفطرية تتفاعل مع البيئة منذ اليوم الاول الذي يرى فيه الطفل ضوء الحياة وحتى قبل الولادة ؛ يتفاعل الطفل مع امه سيكولوجيا وبيولوجيا في تحركاته في (الرحم) . وبهذا الفهم الحديث تتحول استعدادات الجينات من كونها حتميات استاتيكية الى خصائص ديناميكية وحيوية قابلة للنمو ولا يحكمها الثبات الجمودي .

ويؤكد الدكتور طلعت منصور في كتابه (دراسات جديدة في علم النفس)(١) ؛ بأن التعلم يقود عملية النمو وبالتالي فان هنالك عوامل كثيرة تساهم في تنشيط واثارة النمو منذ السنوات الاولى لحياة الطفل دون ان تقف الحواجز الوراثية حائلا دون ذلك .

وفي كتابه (التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية) : يضيف د. طلعت منصور بأن التعلم يولد تغييرا سلوكيا يتناول الشخصية باكملها . والانسان لا يولد بتكوينات مخية ـ جاهزة الصنع ـ وانما تتشكل هذه التكوينات في السياق الحياتي للفرد ، مع عملية استيعابه

---

(١) راجع د. طلعت منصور (دراسات جديدة في علم النفس) الكتاب الاول ، ١٩٧٧ ـ القاهرة ـ مكتبة الانجلو المصرية ، (تنشيط الاطفال) .

(٢) راجع د . طلعت منصور : (التعلم الذاتي وارتقاء الشخصيه) ١٩٧٧ ـ ص ٦٤ ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة .

للثقافة ، وفقا لعوامل استثارة النمو ، وتوظيف أمكانياته ، وعلى هذا فان هذه التكوينات المخية ، لا تكون ، اذن ، محتومة بوراثة بيولوجية ، تتصف بحالة من الصيرورة والتشكلية انعكاسا للاستثارة الثقافية .

ويؤكد العالم السوفييتي (ليونتييف) بأن من الخطأ الفادح القول بان الدماغ لديه هذه الميزة او تلك فيشير بقوله :

ان الدماغ الانساني لا يتضمن كميزة هذه او تلك من القدرات الانسانية ولكن من المزايا الفريدة للدماغ الانساني انه يتضمن فحسب القدرة على تكوين هذه القدرات(١) .

ويؤكد (أ. لوريا) احد اقطاب علم النفس العصبي السوفييتي قابلية الدماغ للنمو بصرف النظر عن معطياته الوراثية ؛ في نظريــة ــ الاعضاء المخية الوظيفية ــ فيقول : ان اعضاء الدماغ لا تعمل كمعطيات وراثية ، ولا تنضج بطريقة مستقلة ولكنها (تتكون وتتشكل) ؛ وقابلة للمزيد من التكوين والتشكل، حياتيا (كوظيفة) لاستيعاب الانسان للخبرة الاجتماعية المعاشة ؛ (كانعكاس) للواقع الثقافي ولاسلوب حياة الفرد في مواجهــة المواقف المختلفة(٢) . ولا تخلو هذه النظرية من لمسات الايديولوجية الماركسية في اعتبار الدماغ وفعالياته والسلوك انعكاسا لثقافة المجتمع وحضارتــه .

ويعتبر العالم الفيزيولوجي الامريكي (كارل بربرام) بأن المنظومات المخية تتضمن عند الحيوان امكانية التكوين والتشكيل الحياتيين ولكنها عند الانسان تصير ركيزة لتشكيل تكوينات جديدة او وظائف جديدة(٣) ،

---

(١) مشكلات نمو النشاط النفسي : ١٩٧٢ ص ٢٠٨ (بالروسية) موسكو .

(٢) A. R. Luria : Higler Cortical functions in Man, New York, Basic Boolss, 1966 . P. 30 - 37 .

(٣) K. H - Bribram, Neocortical functions in leehaneior - In H . F . Harboue and C . N . Woolsey (Eds) . Biological leases of belsaseior - university of Wishonsin Press 1958 .

في لحاء المخ تدفع بالنمو النفسي للفرد الى مستويات ارقى . وما ينطوي عليه تكوين هذه المنظومات من امكانيات كامنة يصبح القانون الحاسم لصيرورة العملية التطوربة النمائية .

وقد ظهرت في مجالات البحث عدة توافقات بين مجهودات علماء النفس الكنديين امثال (دونالد هيب ١٩٤٩ ــ ١٩٥٩)(١) ، و (د. برلاين ١٩٦٠ ــ ١٩٦٧)(٢) والعالم الروسي (يوجين سوكولوف ١٩٧٠)(٣) ؛ بأن الجهاز العصبي يعمل كنشاط انتظامي موجه . ويبدو هذا النشاط باستجابة الانسان الى المثيرات الجديدة والى التغيرات التي تحدث في الوسط المحيط به ، وهذا ما اطلق عليه (بافلوف) قديما الفعل المنعكس الاستقصائي ، ويتموضع التركيب الفيزيولوجي ــ العصبي للنشاط الانتظامي في المنظومات المخية اللحائية وتحت اللحائية وخاصة (منظومة التكوين الشبكي) التي تؤثر تأثيرا (تنشيطيا) فعالا على لحاء المخ . وقد كشف (هيب) في نظريته السيكوفيزيولوجية (١٩٥٠) ، بأن الدماغ يكون دائما نشيطا ، موجها ، منظما بما ينعكس على السلوك الانساني من خصائص فريدة سامية يتميز بها .

وقد اتسع نطاق الدراسات المعاصرة لعملية (التنشيط) للفعاليات العقلية في الدماغ ؛ فقد كشفت دراسات (ي. ناواتا ١٩٦٤ ــ ١٩٧١ و ج. بلياكوف ، ١٩٦٦ ــ ١٩٦٩ ودراسات العالمة كومسكايا وتلاميذها ١٩٦٩ ــ ١٩٧٢) بأن المناطق الجبهية بالمخ ، وخاصة المراكز المتوسطة والقاعدية ، نقاطا هائلة من الروابط (الصاعدة ، والنازلة) بالتكوين الشبكي ، وهي تتلقى سيلاتها من منظومات الوحدة المخية الاولى (وحدة تنظيم الاستثارة واليقظة) وفي نفس الوقت تباشر تأثيرا كفيا منعيا عميقا

(١) Hebb , O , D : Organization of behaneior John Wiley , 1950 .

(٢) Berlyne, E, D : Conflict, aronsal, and curiosity, New York Mcgruue Hill , 1960 .

(٣) Berlyne, E, D : Conftiet, aronsal, and curiosity, New York of orienting reflex Mosco University - 1970

على تكوينات المنظومات العصبية ، موفرة لها السيلات التنشيطية وتنظمها وفقا للخطط الدينامية للسلوك ، التي تتكون بطريقة مباشرة في اللحاء الجبهي لدماغ الانسان .

وقد قامت دراسات اخرى في هذا المضمار على يد كل من العلماء امثال : ج. فرانش ١٩٥٥ ، ك. بربرام ١٩٦٠ ، س. ناريكاشفيلي ١٩٦٣ ي. ناوتا ١٩٧١ ، ر. هرناندز — بيون ١٩٦٦ وغيرهم ؛ وكشفت عن التأثير التنشيطي للدماغ للمناطق الجبهية على اجهزة الوحدة المخية الاولى .

وقد قامت دراسات تجريبية متقدمة على يد مجموعة من علماء النفس العصبي بجامعة موسكو باشراف العالمة (ي. كومسكايا ١٩٦٩ — ١٩٧٢) ، واكدت هذه الدراسات ان المناطق قبل الجبهية تلعب دورا هائلا في تنظيم حالات التنشيط والوعي والارادة ، بما يتفق مع المقاصد والاهداف والمعاني الواعية .

وكشفت دراسات (أ. شوجر ، ١٩٥٠ و د. باندوا ، و هـ. كوربرز ١٩٦٩ على وجود روابط وعلاقات قوية بين المناطق القفوية والصدغية والجدارية والاقسام الطرفية من لحاء الدماغ ، وتعتبر هذه الروابط ذات اتجاهين : توريدي وتصديري لمراكز المنطقة قبل الجبهية مع مراكز المناطق الاخرى من اللحاء ، وتقوم بمهمة التنظيم العام للسلوك .

وقد برهنت الدراسات والتجارب النيورلوجية على الحيوانات بان اصابة او استئصال (المناطق الجبهية) منها يولد اختلالات في سلوكها كما اشار بذلك ك. بربرام ١٩٥٩ .

وقد وصل العلماء الامريكيون والسوفييت الى نتائج متماثلة ومتقدمة في الكشف عن دور المنطقة ما قبل الجبهية في التنشيط والتنظيم والضبط .

واثبتت بحوث العالم البريطاني (جراي والتر ١٩٦٦) ان توقع الاستجابة لمثير معين تستدعي في (المنطقة ما قبل الجبهية) جهودا بطيئة تزداد بازدياد احتمالات ظهور الاشارة المتوقعة ، وتتضاءل بتضاؤل هذه الاحتمالات ؛ وهذا ما يطلق عليه موجات التوقع .

وفي نفس الوقت من هذا الاكتشاف سجل العالم السوفييتي (م. ليفانوف وتلاميذه ١٩٦٧) نصرا مذهلا ؛ مؤداه ان المناطق ما قبل الجبهية تلعب دورا هائلا في الاشكال المعقدة من التنشيط العقلي .

وقد استطاع (ليفانوف) تسجيل استثارة (٦٠ — ١٠٠) موضع من المواضع العاملة في وقت واحد بالدماغ ، وذلك بمساعدة جهاز متعدد القنوات يستطيع تسجيل نشاط هذه المواضع . وقد أوضحت هذه البحوث ان كل عمل عقلي معقد (كالحساب في العقل مثل) يؤدي الى زيادة عدد النقاط التي تعمل بطريقة متزامنة اولا في المناطق الجبهية ، وتبين هذه الدراسات ؛ كيف ان المرضى الفصاميين قد اظهروا استثارة زائدة في العمل المتزامن لهذه المواضع المخية . لكن هذا العمل المتزامن للمناطق الجبهية يختفي بعد تناول المرضى لدواء مهدىء مثل (الكلوربرومازين) الذي يخفف حالة استثارة الفصام المرضية(١) .

يتضح من نتائج هذه الدراسات التي اجريت في وقت واحد في أمريكا وروسيا وانكلترا بأن (اللحاء الجبهي للدماغ) يسهم في توليد عمليات التنشيط التي تنشأ كنتيجة للاشكال المعقدة من النشاط الواعي .

ويجب ان لا يفوتنا التأكيد بان من اعظم الوظائف التي تطلع بها (المنطقة الجبهية) ما يعرف بالتغذية الراجعة او التوريد العائد كحلقة اساسية وشرط ضروري لاي أداء او سلوك منظم كما قرر ذلك (أنوكين ١٩٧١ ، وميلر ، وبريبرام ، وجالانتر ١٩٦٠) .

---

(1) **LIVRNOV, M. N: Analysis of Bioelectrical activenecc of the brain - MOSCOW UNIVERSITY - 1962 -**

[النظريات الوراثية الكلاسيكية في مهب العاصفة]

الجينات الوراثية (خلفية تاريخية) :

ان نظرة سريعة على تطور البحوث الجيناتيكية تشعرنا بالرهبة والوجل لهذا التطور المذهل الذي طرأ على فهم الانسان لدور الوراثة في تحديد انماط السلوك ونماذج الخلق في شخصية الفرد .

في سنة ١٧٦٨ ظهر العالم (بينتلي غلات) ودرس نماذج باثولوجية جسدية متعددة ، بطريقة منهجية ، علمية ؛ كان منها حالات الاصبع الزائدة في يد الطفل عند ولادته . وخرج من دراسته بأن هذه الحالات وامثالها تعود لاسباب وراثية خاصة ؛ ترتبط بالاب او الام او بهما معا.

وظلت الدراسات الوراثية سنوات طوالا بغير قوانين ثابتة حتى ظهر (غريغور مانديل) في القرن الماضي وطرح نظامه المعروف بحتميته وقوانينه الصارمة . وفي عام ١٩٠٣ توصل العلماء : (اولتر ، وتيتون ، وبوفري) الى مايسمى بالصبغيات او الكروموزومات في نواة كل خلية ، وانحصرت معظم الدراسات الوراثية في نطاق علم النبات فقط حتى عام ١٩٠٥ ، عندما جاء (كاستيل) واجرى دراساته على العوامل الوراثية لدى (ذبابة الفاكهة) . واستمرت الدراسات عليها حتى سنة ١٩٣٤ عندما منح العالم الشهير (توماس) مورغان جائزة نوبل للعلوم تقديرا لدراساته على العوامل الوراثية في تلك الذبابة .

وجاء بعد ذلك علماء عديدون منهم (جوهانسون / وغالتون) الذي تأثر كثيرا بنظريات هربرت سبنسر وداروين وقام بدراسات علىالتوائم والسلالات ودور الوراثة فيهما . وفي سنة ١٩٥٠ كان (فيشر) اول من اطلق (جين) على العامل الوراثي .

وفي سنة ١٩٥٣ استطاع (ويلكنز وكريكرواطسون) دراسة الحامض النووي) الذي تتكون منه (الكروموزومات) . وفي سنة ١٩٥٦

فقط اكتشف (ليفين وتشلتون) أن عدد كروموزومات لدى الانسان هي (٤٦) وليست (٤٨) كما هي عند (القرد الشامبانزي) باعتباره اشبه القرود بالانسان . وادى هذا الاكتشاف وغيره لهدم ركن ركين من نظريات داروين التي كانت تؤخذ بالتسليم ـ حتى من كثير من العلماء ـ .

ان (العوامل الوراثية) موجودة في نواة كل الخلايا في المخلوقات الحية من انسان وحيوان وحشرات واسماك وطيور ونباتات . وبوساطة هذه العوامل الوراثية تتجدد الاجسام وتتوالد السلالات . ويفترض علماء الوراثة بأن كل نوع من الخلق يحتفظ باشكاله وخواصه .

ولكن علم النفس الفارق وبحوثه الحديثة ، وبحوث التعلم في علم النفس التجريبي بدات تكشف لنا بان الذكاء لايورث وبأن الغباء والتخلف لايمكن أن يكون وراثيا بالضرورة .

فقد يكون للوراثة دور فيهما ولكن البيئة بما فيها من مثيرات وتعليم وتدريب وثقافة وتربية يمكن ان تصوغ شخصية الانسان على نحو معاكس مما وضعته فيه حتميات الوراثة ، والعكس صحيح .

ولقد اوضحت البحوث المعاصرة لدى اقطاب علم النفس في المجالين الاكلينيكي الميادي ، والقياسي بأن نظرة جديدة يجب ان ننظر اليها لموضوع الذكاء والقدرات العقلية بغض النظر عن كونها ثمرة لمعطيات بيئية او معطيات وراثية .

ان البحوث التجريبية الفيزيوسيكولوجية احدثت زلزالا في المعرفة الكلاسيكية . ومن احدث الاراء في هذا المجال تحليل لعالم القياسي النفسي : (فيليب فيرنون في كتابة النقدي الجديد
Intelligence , Hereding and Eneironment
١٩٧٩) ؛ (1)

---

(1) Vernon E, p. Intelligence, Heredity and Eneironment , 1979, Freeman + Company U . S . A .

ويستنتج (فرنون) بأن لكل جانب مبرراته في تكوين الذكاءوالفعاليات العقلية ولكن (الاستعدادات الوراثية) ذاتها ليست استاتيكية كما كان معروفا منذ قرن من الزمن ، ولكنها ديناميكية ، وتتفاعل مع البيئة منذ اليوم الاول لولادة الطفل وربما قبل ولادته في تفاعل الطفل في الرحم مع امه غذائيا وبيولوجيا وفيزيولوجيا وسيكولوجيا .

وقد كتب العلماء (آيزنك / وبيرت / وجيلفورد) الكثير في بحوثهم الحديثة بأن ثمة معطيات جديدة يجب النظر اليها . ويؤكد (جيلفورد) صاحب نموذج المصفوفات المورفولوجي في التحليل العاملي للقدرات العقلية في كتابة الجديد (٢) : Way Beyond the I , Q ! بأن التحليل العاملي باستخدام الكومبيوتر استطاع تسمية (١٢٠) قدرة تشتمل عليها الفعاليات العقلية واستطاع اثبات مايزيد على (٨٠) قدرة منها عامليا ؛ ولكن ثمة (ابعاد غير مرئية) للذكاء وللمتغيرات الانفعالية التي لا يمكننا قياسها او ضبطها في معاييرنا الحالية .

وقد تمكنت المختبرات التجريبية في جامعة هارفارد وموسكو حاليا من (تغيير السمات الوراثية) باستخدام الهرمونات على الحيوانات والحصول على (سمات سلوكية) تختلف اختلافا كليا عن السمات الموروثة جيناتيكيا . وسوف لن يكون بعيدا ان نسمع ــ ذات يوم ــ ان فكرة تمديد عمر الانسان بحقن الخلايا الحيوية واكتشاف اسرار نموها واضمحلالها ، يكون في متناول اليد . وتجري هذه الابحاث على مستوى الجدية والموضوعية التي تجري بها دراسات نيورولوجية على دماغ انسان الفضاء الذي يبقى خارج نطاق جاذبية الارض شهورا طوالا لمعرفة الاثار السيكولوجية والمتغيرات البيو ــ كيميائية التي تتعرض اليها الاعصاب في دماغه وجسمه ومدى احساسه بالكرة الارضية الصغيرة التي

---

(1) Guilford, V, P : Way Beyond the I. Q, 1977 Greative Synergetic Association LTD. New York, U. S. A. - 77 -

يسبح فوقها في الفضاء الرحب ونوعية هذا الاحساس وطبيعته ومخاوفه واعراضه الخارجية وخصائصه العميقة وقد نشأ حاليا ميدان علم نفس الفضاء : SPACE PSYCHOLOGY ويسير علماء الوراثة في العصر الحديث في خطين اثنين :

١) **الخط الفيزيو ــ نيورولوجي** الذي يقرر بان الفروق العقلية بين التفوق والتخلف او الذكاء والغباء انما هي صادرة عن فروق في تكوين ونوع الجهاز العصبي واعضاء الحس .

٢) **الخط الفينومونولوجي النمائي** ويتزعمه العالم السيكولوجي السويسري (جان بياجيه) الذي يقرر بأن التكوينات او الابنية العقلية هي التي تتغير خلال نمونا العقلي ، اما الوظائف العقلية فتبقى على ماهي عليه . ونحن لانرث ــ التكوينات ــ وانما تنبثق خلال النمو . ولكننا نرث ــ طريقة القيام بالنشاط العقلي ــ اي طريقة معينة للتعامل مع البيئة .

وقد استطاع (بياجيه) ان يؤكد (تجريبيا) واحدا من ابرز فروض هربرت سبنسر الرئيسية في ان كل مرحلة تندمج فيها المرحلة السابقة عليها ولاتحل محلها . وان النمو المعرفي له نظام هرمي (هايراركي) ، واستخدم بالفعل مصطلح (ذكاء) لتصنيف العمليات الجوهرية في مختلف المراحل . ويؤكد (بياجيه) مبدأ (العلاقات والتعميمات) التي ترى بان الافراد يختلفون عن بعضهم بعضا عند ولادتهم وراثيا في النشاط الاستدلالي المنظم للمخ والذي يؤدي الى (التعميمات) . وهذه الوظيفة تعني القدرة على انتقاء الخبرات من البيئة والربط بينها وتنظم علاقة طيبة بين الشخص وبيئته . ومنذ البداية يجد الذكاء نفسه (في شبكة من العلاقات بين الكائن وبيئته) ، وفي كل مرحلة من مراحل التطور تعتبر التجربة الجديدة والخبرة : امرا ضروريا لنمو الذكاء (١) . ويؤكدالدكتور

(1) PIAGET . J : THE PSYCHOLOGY OF INTELLIGENCE , Routledge and . Kegan 1951 .

النفساني في جامعة ميفيل بكندا (دونالدهيبت) استاذ علم النفس العصبي ماوصل اليه (جان بياجيه) بأنه صحيح ويدعو لمزيد من المتابعة والبحث(١) .

لقد كان اهتمام (بياجيه) متوجها نحو سيكولوجية الطفل والمنطق الصوري ، اما (هيب) فكان اهتمامه منصرفا الى فيزيولوجيا الدماغ وسيكولوجية الحيوان والمجال العصبي التجريبي ، ومع ذلك فانالنتائج التي توصلا اليها كان فيها اتساق والتقاء بشكل ملحوظ رغم اختلافهما الواضح في طريقة معالجة الموضوع .

يهتم العالمان باظهار كيفية توصل الطفل ــ الذي يكون شعوره في اغلب الظن غير متميز اطلاقا ــ الى ادراك عالم من الاشياء منفصل عن ذاته .

ان (هيب) يرى بأن خبرات الطفل في السنة الاولى من عمره تقود الى تكوين تجمعات من العصابين (الخلايا العصبية) في المناطق الاقترانية من الدماغ . والادراك النامي تمام النماء او (تكون الافكار) يشتمل على فاعلية مستقلة او تفريغ عصبي ضمن العصابين . ويسمي (هيب) هذه الفاعلية :

(انتظام وجوه الامر : Phase - Sequence) ، ويود (فيليب فرنون) لو ان (هيب) استعاض عن التعبير (انتظام وجوه الامور)بالتعبير (المخطط العقلي / سكيما) Schema الذي يصفه ــ بارتليت ــ ويقبله على مايبدو ــ بياجيه ــ بأنه نوع من النمط او الاطار الذي تنتظم فيه كل خبراتنا الماضية اللازمة للفكرة او المفهوم ، ويكون هذا الانتظام بشكل يجعل كل انطباع جديد يدخل الشعور موسوقا بكل ماجرى من قبل . ومثال هذا ان العلبة المربعة تدرك بهذه الصفة وبقطع النظر عن البعد او

---

(١) **Hebb. D. O : The Organization of behavior, New York, John Wiley and Sons Inc , 1949 .**

زاوية النظر او الخلفية المحيطة بها ، حال هذا الشكل تتخذ صفاتها في الثبات والاستمرار والبناء التي اشارت اليها المدرسة الشكلية في علم النفس .

ولعل ابرز ماساهم به (هيب) في مجال القدرات العقلية ، هو تفريقه بين الذكاء (أ) ويقصد به الذكاء الوراثي بصورة كامنة ؛ والذكاء (ب) ويقصد به الكفاءة العقلية الحاضرة . ان الذكاء الاول يمثل كفاءة الجملة العصبية من اجل تكوين المخططات والاحتفاظ بها وتمازجها ،وهو في المدى البعيد تحدده الموروثات (الجينات Genes) . اما النوع الثاني فيمثل القابليات العقلية التي بنيت اثناء الحداثة والطفولة والذي لا يمكن ان ينمو الا في اثارة محيطية مناسبة .

والذكاء (أ) في نظرية (هيب) هو افتراضي فقط وذلك لاننا نعجز عن ملاحظته او قياسه بصورة مباشرة وان كان ثمة دلائل قوية على وجوده . والواقع ان بعض علماء النفس من امثال (بورت ، وكاتل) يرغبون في قصر كلمة (ذكاء) على القابلية الاساسية الموروثة . ولكننا نحن نفضل ان نستعملها للدلالة على القابلية التي تمكن ملاحظتها في الحياة اليومية ، في المدرسة او في المعمل والتي تتمثل بمقدار مناسب في مقاييس الذكاء وهي نتاج لكل من الوراثة والتربية معا . ونحن في هذا نتفق مع اكثر علماء النفس في ان الذكاء الذي نقيسه يجب ان لايعتبر قابلية موروثة محضة ـ ويلتقي (بياجية مع هيب) في القول بان الذكاء يتزايد بصورة تقدمية بازدياد وتعقد الصلات المتبادلة بين الاستعدادات العضوية ومحيطها ـ وعلى هذا فان من الخطأ ان نتصور ان استعدادات الوراثة تعمل بمفردها منعزلة عن مؤثرات البيئة ، فالتفاعل المستمر بينهما قائم ومتواصل والقدرات العقلية ذات مضمون ارتقائي وتطوري متواصل .

التفوق العقلي
وعلاقته بسمات الشخصية والميول

د . عبد المجيد نشواتي

مقدمـة

حظي موضوع التفوق العقلي باهتمام كبير من العلماء والباحثين خلال السنوات الاخيرة ، وقد يعود هذا الاهتمام الى ادراك المهتمين بدراسة السلوك الانساني وسبل تربيته ، بأن حياة المجتمعات الانسانية اليوم اصبحت مليئة بالتناقضات ، والمشكلات الناجمة عن التغيرات التي يعيشها الانسان . فالسأم قد تسرب الى حياته نتيجة لانتشار الآلة التي تعتبر من اهم مظاهر الحياة الحديثة ، وهو مرض زاحف ، ملازم للصناعة ، مما يؤدي الى تقلص الاداء البشري الذي يستلزم التفكير الابداعي والبناء . كما ان عالما يتضخم فيه التفجر السكاني بشكل مريع ، يجعل البحث عن مصادر جديدة للغذاء امرا لامناص منه ، مما ادى الى ظهور حاجات ملحة للتعرف على الافراد الذين لديهم من الطاقات العقلية ، ما قد يستطيعون من خلالها - ان حسنت تربيتهم - تقديم حلول جديدة واصيلة لما يواجهه انسان اليوم من مشكلات .

* كانت هذه الدراسة موضوع الرسالة التي تقدم بها الكاتب لنيل درجة دكتوراه في التربية قسم الصحة النفسية في كلية التربية - جامعة عين شمس .

وتهدف البلدان المتقدمة من وراء اهتمامها بمجال التفوق العقلي ، الى توفير كافة الظروف والامكانات لتنمية الطاقات العقلية لدى ابنائها ، على نحو يسمح للمتفوقين باعطاء افضل مالديهم لتحتفظ هذهالمجتمعات بقيادتها العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والسياسة والعسكرية للعالم الحديث .

وربما يختلف الامر في بلاد نامية كبلادنا ، فالامة العربية تعيش اليوم فترة من احرج الفترات في حياتها ، فهي تواجه العديد من التحديات في مجالات الحياة المختلفة ويدرك القائمون على أمورها ، بأن امتهم تخوض معركة وجود ، وما لم يتسلح المواطن العربي بسلاح العلم والمعرفة الحديثين ، فان بقاء امته سيكون موضع تساؤل .

تكمن اهمية هذه الدراسة في اهمية الموضوع الذي تتناوله . فمجال التفوق العقلي اصبح موضع اهتمام وعناية كبيرين في معظم البلدان المتقدمة . ولم يكن هذ الاهتمام وليد المصادفة ، بل نتيجة للظروف السياسية ولاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تسود عالم اليوم . فالتغير السريع الذي يتناول نمط الحياة البشرية من كافة جوانبها ، والحرب العالمية الثانية بما استدعته من جهود كبيرة للاختراع والتجديد والتحسين في مختلف ميادين الحياة ، والتنافس بين الفلسفات والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة ، وعصر الفضاء وماقدمه من معطيات ، والتنافس في المجالات العلمية ، كل ذلك دعى هذه البلدان الى مزيد من الاهتمام بالمتفوقين من ابنائها ورعايتهم ، للاستفادة من طاقاتهم ، وتجنيدها لخدمة مجتمعاتهم .

تفتقد المؤسسات التربوية والعلمية فيهذا القطر الى المعلومات الدقيقة والعلمية المرتبطة بابنائه من المتفوقين ، في الوقت الذي يشعر فيه كل مواطن باهمية الدور الفعال الذي يمكن ان يقوم به هؤلاء ، في بناء بلدهم وتطويره ، اذا مااحسنت تربيتهم واستثمرت طاقاتهم .

كما وتتضح اهمية هذه الدراسة ، من الطريقة التي تعالج فيها مفهوم

،التفوق العقلي . فقد اتجه الباحثون وجهات مختلفة في تحديدهم لمعنى التفوق العقلي ، ونادوا باستخدام محكات مختلفة لتحديد مفهوم ظاهره التفوق . واقتصر معظمهم على محك واحد فقط لتحديدها ، كالتفوق في ضوء الذكاء ، او في ضوء القدرة على التحصيل المدرسي ، او في ضوء القدرة على التفكير الابداعي ، او في ضوء انجاز ما ، في مجال من المجالات التي تقدرها الجماعة .

والاقتصار على محك واحد فقط لتحديد مفهوم التفوق العقلي ، فيه تبسيط مخل بطبيعة ظاهرة التفوق . فقد اوضحت البحوث الحديثة ، ان التكوين العقلي للفرد من التعقيد بحيث يصعب التعبير عنه بدرجة واحدة مأخوذة من اختبار او مقياس واحد فقط . والنشاط العقلي للفرد لا يمكن ان يحصر بجانب واحد فقط من جوانب هذا النشاط ، لذلك تلجأ هذه الدراسة الى ملاحظة عدد من انواع التفوق العقلي ، في ضوء القدرة العقلية العامة ، وفي ضوء القدرة على التفكير الابداعي ، والتفوق العقلي في ضوء هاتين القدرتين معا .

وعرف التفوق العقلي في هذه الدراسة ، على انه ارتفاع في مستوى اداء الفرد ، في مجال يرتبط بالتكوين العقلي له ، وتقدره الجماعة ،وتسلم بأن كلا من العناصر التالية متفوق عقليا .

١ ــ الافراد الذين يقعون ضمن افضل ١٦ ٪ لدى تطبيق اختبار الذكاء.

٢ ــ الافراد الذين يقعون ضمن افضل ١٦ ٪ لدى تطبيق اختبارات القدرة على التفكير الابداعي .

٣ ــ الافراد الذين يقعون ضمن افضل ١٦ ٪ لدى تطبيق اختبارات الذكاء واختبارات القدرة على التفكير الابداعي .

وتناولت هذه الدراسة معالجة العلاقات القائمة بين هذه الانواع من التفوق العقلي وكل من سمات الشخصية والميول المهنية واللا مهنية عند طلاب المرحلة الثانوية في سورية ، بحيث امكن تقديم صورة علمية عن طبيعة هذه العلاقات ، تلك الصورة التي تفتقدها مؤسساتنا التربوية في هذا القطر، والتي تعتبر اساسية فيتخطيط اي برنامج تربوي للمتفوقين.

فالتعرف على المتفوقين وبعض سماتهم الشخصية وميولهم المهنية واللامهنية ، يهيء الفرص المناسبة لمعرفة المناخ الملائم الذي يمكن من خلاله تقديم الرعاية لهم ، ليكونوا اكثر فاعلية بالنسبة للدور الذي يقومون به تجاه مجتمعهم وذواتهم على حد سواء ، والذي يجعل في الامكان وضع الانسان الملائم في المكان الملائم .

هدف الدراسة

هدفت هذه الدراسة الى معالجة العلاقة بين بعض انواع التفوق العقلي وهي القدرة العقلية العامة ، والتفوق العقلي من حيث القدرة على التفكير الابداعي ، ومن حيث هاتان القدرتان معا ، والسمات الشخصية والميول المهنية واللامهنية عند طلاب المرحلة الثانوية في القطر العربي السوري ، وذلك من خلال اجابتها على هذين السؤالين :

١ ـ هل توجد اختلافات بين افراد المجموعات موضع الدراسة والممثلة لانواع التفوق العقلي من حيث سمات الشخصية ؟

٢ ـ هل توجد اختلافات بين افراد هذه المجموعات من حيث ميولهم المهنية واللامهنية ؟

عينة الدراسة : بلغ عدد افراد العينة ١٠٩٧ طالبا ، اختيروا من طلاب الصف الحادي عشر في ثانويات دمشق المختلفة ، ولدى تطبيق اختبارات الذكاء والقدرة على التفكير الابداعي ، تم تشكيل المجموعات الاربع التالية:

١ ـ مجموعة المتفوقين من حيث الذكاء ومن حيث القدرة على التفكير الابداعي .

٢ ـ مجموعات المتفوقين من حيث الذكاء .

٣ ـ مجموعة المتفوقين من حيث القدرة على التفكير الابداعي .

٤ ـ مجموعة العاديين من حيث الذكاء ومن حيث القدرة على التفكير الابداعي .

وقد بلغ عدد أفراد كل من هذه المجموعات ٣٤ طالبا . وروعي عند اختيار افرادها تثبيت المتغيرات التالية :

١ ــ الجنس : اختير الافراد من الذكور فقط .

٢ ــ السن : تراوحت اعمار الافراد مابين ١٧ ــ ١٩ سنة .

٣ ــ المستوى الاقتصادي ــ الاجتماعي : اختير افراد المجموعات من مستويات اقتصادية ــ اجتماعية متماثلة .

الادوات المستخدمة في الدراسة :

استدعت هذه الدراسة استخدام المقاييس التالية :

١ ــ مقياس الذكاء لكاتل ، واعده الاستاذ الدكتور عبد السلام عبد الغفار والاستاذ الدكتور احمد سلامه لاستخدامه في البيئة العربية .

٢ ــ مقاييس القدرة على التفكير الابداعي ، وقد اعدها الدكتور عبد السلام عبد الغفار لقياس الاصالة والطلاقة الفكرية والمرونة التلقائية .

٣ ــ استفتاء الشخصية للمرحلة الاعدادية والثانوية لكاتل ، واعده الاستاذ الدكتور عبد السلام عبد الغفار والاستاذ الدكتور سعيد غنيم ، لاستخدامه في البيئة العربية .

٤ ــ مقياس الميول المهنية واللامهنية لجيلفورد ، واعده الاستاذ الدكتور عبد السلام عبد الغفار لاستخدامه في البيئة العربية .

٥ ــ المقياس الاقتصادي ــ الاجتماعي ، وقد صممه الباحث الحالي نفســه .

وتم تحليل البيانات باستخدام اسلوب تحليل التباين المزدوج ٢×٢ كما تمت دراسة مدى تباين درجات افراد المجموعات الاربع من حيث المتغيرات موضع الدراسة .

نتائج الدراسة :

اسفرت نتائج هذه الدراسة عن وجود علاقات بين انواع التفوق العقلي موضع الاهتمام ، وبعض سمات الشخصية والميول المهنية واللامهنية . فقد بينت هذه النتائج ان الطلاب المتفوقين من حيث القدرة

العقلية العامة او الذكاء يتصفون بالنضج والاتزان الانفعالي ، وبالثبات والاستقرار بالنسبة لاتجاهاتهم وميولهم ، كما يتصفون بالهدوءوالواقعية وسهولة التكيف مع الحقيقة والواقع ، ويتسمون بدمائه الخلق حيث يظهرون اللطف في سلوكهم ، وانهم اقل اثارة للمشكلات ، ويميلون الى اعتبار انفسهم دقيقين في سلوكهم وتصرفاتهم ، فهم من النوع الذي يراعي الاخلاق ، مثابرون ويميلون الى القضايا الفكرية ، ولديهم القدرة على تركيز الانتباه ، ويختارون اصدقاءهم بأنفسهم ، ويميلون الى الاكفاء منهم ، كما اشارت النتائج ايضا ، ان الطلاب المتفوقين من حيث الذكاء يتصفون بالاكتفاء الذاتي ويعتمدون على انفسهم في تكوين آرائهم وافكارهم وغالبا مايقررون امورهم بأنفسهم . ويتصفون ايضا بضعف التوتر الداخلي فهم اقل من غيرهم قلقا وشعورا بالاحباط ، وتصعب استثارتهم ، ولديهم القدرة على التغلب على المثيرات المحبطة في بيئتهم ، ويعيشون في الواقع، محققين اهدافهم التي رسموها لانفسهم .

ويبدو ان المستوى المرتفع من حيث القدرة العقلية العامة ، يجعل الفرد اكثر قدرة على ادراك العلاقات الموجودة في مجاله بحيث يستطيع التوافق مع الحياة والتغلب على الاحباطات المختلفة ، والاحتفاظ بالهدوء لدى التعامل مع الظروف البيئية المختلفة .

اما الطلاب المتفوقون من حيث القدرة على التفكير الابداعي ، فقد بنيت النتائج انهم يتصفون بالمرح وبسرعة الخاطر وحضور البديهة ، كما انهم سعداء بانفسهم وبحياتهم ، صريحون ولديهم القدرة على التعبير عن انفسهم بسهولة وبدون اية مظاهر يستدل منها على وجود كف لديهم كما يتصفون بالاندفاع والقابلية للاستثارة الانفعالية السريعة،وعدم القدرة على ضبط الانفعالات ، وصعوبة اخضاعهم للمطالب الثقافية ، وهم في ذات الوقت يتصفون بقوة الارادة واحترام المطالب الاجتماعية وتقبل المعايير الاخلاقية السائدة .

وتشير نتائج الدراسة ، ان الطلاب المتفوقين من حيث الذكاء ومن حيث القدرة على التفكير الابداعي ، يتصفون بالاتزان الانفعالي وثبات الاتجاهات والميول ، وبالواقعية والتكيف مع الحقيقة والواقع ، كما

يتسمون بالمرح والبهجة والسرور والسعادة ، وبالقدرة على التعبير عن الذات والمشاعر ، ويتميزون بقوة الشخصية وبتقبلهم للمعايير الخلقية السائدة للجماعة ، وبضبط النفس والمثابرة ، والميل الى الامور الفكرية، كما يتميزون بالاكتفاء الذاتي وبضعف التوتر الدافعي وبالقدرة على التغلب على المثيرات المحيطة في بيئتهم ، وانهم واقعيون وقريبون من تحقيق اهدافهم .

اما النتائج الخاصة بميول المتفوقين عقليا من الطلاب ، فقد بينت انهم يميلون الى النشاطات الفكرية عموما ، والى المهن المرتبطة بالعلوم واللغات ، كتاليف الكتب اللغوية والادبية وتحرير الصحف او المجلات وتدريس اللغات ، والبحث الطبي او العلمي والاعمال الكيميائية والجيولوجية والاعمال المرتبطة بالعلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية والفلسفية .

كما اشارت نتائج هذه الدراسة ان المتفوقين عقليا لايرغبون بالنشاطات المرتبطة بالفنون ، كالرسم او النحت او الرقص او الموسيقى او التمثيل وبالنشاطات المرتبطة بالاعمال الميكانيكية او التجارية او الحسابية او المكتبية وهم لايرغبون بكافة المهن التي تتصف بالروتين والتقليد والالية ، لانها تتناقض مع حبهم وشغفهم في اكتشاف الجديد من الامور .

المقترحات

ان جميع مايشاهد في العالم اليوم ، من تقدم في العلوم والفنون والآداب وما وصل اليه من حضارة انسانية رفيعة ، ربما يعود الفضل الاكبر فيه ، وقبل اي شيء اخر الى المتفوقين من ابنائه . وقد حرصت كافة الامم المتقدمة على رعايتهم وتشجيعهم والعناية بهم ، حيث اتاحت لهم الظروف المناسبة، والمناخ الملائم ليقدموا افضل مالديهم ،وليستطيعوا بتفوقهم ، وبمالديهم من قدرات غير عادية بناء المجتمع الافضل . وبذلك يحقق المتفوق ذاته ، وهذا هدف هام بالنسبة له ، كما يستفيد المجتمع من قدراته المختلفة في بناء حياة متطورة ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا .

وحاجة قطرنا تبدو ملحة وضرورية لجهود المتفوقين من ابنائه ، حيث لم تقم اية دراسة علمية حتى الآن ، في هذا القطر ، اتخذت التفوق العقلي ميدانا لها .

لهذا وبناء على النتائج لتي تم الوصول اليها من خلال هذه الدراسة، فقد قدم الباحث المقترحات التالية ، علّها تساهم ولو الى حد بسيط في اثارة الانتباه الى موضوعات التفوق العقلي ، وسبل تربية المتفوقين عقليا.

١ ـ الحاجة الى المزيد من البحوث في مجال التفوق العقلي :

ان مجال التفوق العقلي كبير ومتعدد الاطراف ، ولايمكن ان يغطيه بحث واحد و عدة بحوث ، لانه يثير العديد من المشكلات التي لن تجد لها حلا الا بالمزيد من الدراسات ، فهناك مشكلة التعريف او المحك الواجب استخدامه لتشخيص التفوق العقلي ، فهناك التفوق التحصيلي ،والتفوق في ضوء القدرة العقلية العامة ، والتفوق في ضوء القدرة علـى التفكير الابداعي ... الخ وكل من هذه المحكات يثير مشكلات خاصة تتعلق به، وعلاقة كل منها بالتحصيل والشخصية والميول والدافعية والاتجاهات الوالدية في التنشئة ، والبيئة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية للاسرة ، والمناهج والنظم التربوية القائمة ، وكذلك طرق العناية بالمتفوقين ورعايتهم ... الخ هذه بعض المشكلات التي يمكن ان يثيرها موضوع التفوق العقلي، والتي هي بحاجة الى المزيد من البحوث والدراسات لبيان ماهيتها وما تثير من مشكلات ، بحيث يمكن الوصول الى فهم اعمق لظاهرة التفوق العقلي.

٢ ـ التوجه لدراسة الابداع :

ان الدراسات المتعلقة بالابداع ، هي دراسات حديثة نسبيا ، اذا ما قورنت بالدراسات الخاصة بالقدرة العقلية العامة . واشتد اهتمام العلماء والباحثين به خلال العقود الثلاثة الاخيرة من هذا القرن ، لاهمية هذا التفكير في مجالات الاختراع والتقدم ، وان القطر العربي السوري يكـاد يخلو خلوا تاما من الدراسات المتعلقة به ، لذا يرى الباحث توجيه الاهتمام لدراسة التفكير الابداعي وعلاقته بكافة المتغيرات الاخرى المرتبطة به .

٣ ــ التعرف المبكر على المتفوقين :

ان التعرف المبكر على المتفوقين من ابناء هذا القطر ، يعتبر البنية الاولى والهامة في درب رعايتهم وتشجيعهم والعناية بهم، وكلما تم اكتشاف هؤلاء مبكراً ازددنا صونا وحفاظا على هذه الثروة التي تعتبر من الثروات التي تمتلكها البشرية ، وحلنا دوضياعها واندثارها بين الغالبية العظمى من الافراد العاديين ، ويبرز هنا دور الاباء والمدرسة ، في التعرف المبكر على المتفوقين .

٤ ــ العناية الفردية بالمتفوقين :

لقد بينت نتائج هذه الدراسة ان المتفوقين عقليا يملكون خصائص معينة تميزهم عن العاديين من الافراد ، لذا يرى الباحث العناية بهؤلاء وتهيئة المناهج والنظم التربوية الخاصة بهم ، نظرا لامتلاكهم مستويات مرتفعة من التفكير ، بحيث تتلاءم مع سماتهم الشخصية وميولهم المختلفة.

٥ ــ الرعاية الاسرية والمدرسية :

يرى الباحث ، تطابقا مع النتائج التي تم الوصول اليها من خلال هذه الدراسة ، ان يقوم الاباء والمعلمون بمعاملة ابنائهم معاملة تتسم بالتسامح والمحبة ، بحيث يمكنوهم من التعبير عن ذواتهم ومشاعرهم ، لان البيئة المتسامحة وغير المتسلطة تعزز نمو القدرات العقلية عند هؤلاء الابناء ، وبالذات قدراتهم على التفكير الابداعي .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الظلف الفضي

قصص للاطفال

ترجمة : هاشم حمادي

■ ■ ■

بيل وسيباستيان

القسم الثاني

تاليف : سيسيل اوبري

ترجمة : زيادة العودة

■ ■ ■

حكايات القط الجاثم

تاليف : مارسيل ايمي

ترجمة : حسيب كيالي

سمات الابداع

ج . ب . غيلفورد

ترجمة : عبد الكريم ناصيف

حين طرح كاتب هذه الاسطر قبل فترة من الزمن فرضيات تتعلق بالمواهب الاساسية التي تساهم في الابداع (غيلفورد ١٩٥٠ أ) ، دهش فيما بعد لما ظهر من اهتمام واسع النطاق بالموضوع . وبالمصادفة ، فقد ظهر أن الاهتمام بهذا الموضوع خارج ميدان علم النفس كان اشد مما هو داخله . اذ لا شك انه يوجد داخل هذه البلاد ، وربما في بلدان اخرى أيضا ، شعور ضمني بضرورة زيادة الانجازات الابداعية وكذلك رغبة في معرفة المزيد عن طبيعة الابداع ذاته . وقد ذكر بورنغ (١٩٥٠) ان هذا الاهتمام الشديد وغير العادي بالموضوع انما هو جانب من جوانب روح عصرنا . وما المناقشة الحالية الا تعبير عنه .

أسباب الاهتمام بالابداع :

ان نسأل انفسنا عن أسباب هذا الجانب من روح عصرنا ، فان التخمين يقودنا الى عدة استنتاجات محتملة ، على ان السبب الاشد بروزا هو اننا نكافح كفاحا مستميتا بغية الحفاظ على اسلوبنا في العيش في هذا العالم . وقد اقتضى الجانب العسكري من هذا الكفاح ، بما تضمن من سباق شديد لتطوير اسلحة جديدة وخطط جديدة ، رفع معدل الابتكار وزيادته؛ ونظرا لبلوغنا نقطة الركود فيما يتعلق بالاستعدادات العسكرية ، فاننا الآن نواجه تحديات على كافة الاصعدة الفكرية والعلمية والثقافية وكذلك الاقتصادية والسياسية. فالتطورات الجديدة تهزنا المرة تلو المرة، لتوقظنا من سباتنا وتزعزع رضانا عن انفسنا .

ولعل الاسباب الاخرى تنشأ من حالات السأم . فالحقيقة التي لا مراء فيها انه اعقب الحرب الكبرى فترة من السأم النسبي . كما بات السأم مرضا يتسلل الى الصناعة الحديثة ، حيث تقل الحاجة اكثر واكثر لان يؤدي الرجال والنساء عملهم ككائنات بشرية ، فعملهم لم يعد ، كما كان في السابق ، يتطلب منهم اتخاذ قرارات او تفكيرا فعالا . وما حققه الانسان من انجازات في ميدان الاتمتة ، لم يساعد على تحسين هذا الوضع؛ علاوة على ذلك فان هناك سأما ناشئا من تزايد وقت الفراغ . لكن لحسن الحظ ان الاشباع في اية حالة من الحالات يؤدي عادة الى اجراءات تصحيحية . والحل الافضل ، على ما يبدو ، هو توجيه نشاطات وقت الفراغ باتجاه قنوات الجهد الابداعي مع جعل الافراد يتذوقون طعم المكافآت التي يمكن ان تأتي نتيجة جهود كهذه .

كذلك فان مجيء عصر الفضاء يعتبر عاملا آخر ساهم في رفع الاهتمام بالابداع وزيادته . لقد حرك الخيال وبات يتطلب اجراء تكيفات جديدة تبدل مطرد السرعة . ورغم ان كثيرا من التكيفات التي يتوجب علينا القيام بها هي تكيفات تجاه الانجازات التكنولوجية المتسارعة ، الا ان كثيرا منها ايضا يعود الى المضامين الاجتماعية لهذه الانجازات . ففي

عالم يصغر يوما بعد يوم بفعل تقدم وسائل السفر والاتصال ، وبضغط الانفجار السكاني بشدة اكبر واكبر على ثرواته وموارده ، تتطلب التكيفات والتعديلات في الميادين السياسية وميادين العلاقات الشخصية حلولا خيالية يوما بعد يوم . ان الحاجة للابداع ، من اي جانب ننظر له ، هي حاجة ماسة وكبيرة ولا شك .

مدخل نفسي الى الابداع :

بيد ان هذه الحاجة للابداع وجدت علم النفس في حالة استعداد سيء . لقد جاء استاذ في معهد للصحافة الى كاتب هذه الاسطر ، قبل بضع سنوات ، ليسال عما يعرفه علماء النفس عن التفكير الابداعي . فقد كانت تسيطر عليه رغبة شديدة في تطوير المواهب الخاصة بالكتابة الابداعية بين طلابه ، لكن بكثير من الاسى والغم ، كان لابد من القول له : ان علماء النفس لا يعرفون شيئا تقريبا عن هذه المسألة .

ولعل جزءا كبيرا من هذا التقصير من جانب علم النفس يمكن ان يعزى الى تبنيه لطراز المنعكس الشرطي اي المنبه ـ الاستجابة بصورة عامة . ولسنا في ذلك نشكك بالانجازات التي حققها علم النفس من خلال هذا الطراز المفاهيمي . لكن حين نصل الى العمليات الفكرية العليا ، خصوصا منها ما يخص مسائل التفكير الابداعي ، فان محدودية الطراز هذه تصبح جلية وواضحة تماما . فلدى تناول هذه المسائل يصبح من المهم أكثر من أي شيء آخر أن نطور مفاهيم تتعلق بما يجري داخل الكائن ذاته . ونغدو مضطرين لاستجرار الدلالات فيما يتعلق بهذه الاحداث مما يمكننا مشاهدته من خلال المنبهات والاستجابات ، انما لا يعود بامكاننا وصف هذه الاحداث وتصويرها بصورة صحيحة من خلال مفاهيم المنبه ـ الاستجابة أو حتى من خلال مفاهيم المتغير ـ الوسيط ذات الانماط الهوليانية (Hullian) . ان الطريقة البديلة السائدة هي التوكيد على مفاهيم السمات . فالسمات هي الخصائص التي يتميز بها الافراد ، وقد جرى التمحيص فيها تمحيصا مجديا بوساطة النهج الذي يؤكد على الفوارق الفردية . ان السمة هي

الاسلوب المتميز ذو الديمومة النسبية الذي يختلف به امرؤ عن امرىء آخر . واهتمام عالم النفس يتركز ، بالطبع ، اكثر ما يتركز على اتجاه السمات السلوكية . فحيث يمكننا الاشارة الى متغير سماتي يختلف به الافراد عن بعضهم بعضا اختلافا منهجيا، يصبح بالامكان الاستنتاج ان هذا المتغير يتعلق بخاصة من الخصائص يمتلكهـا الافراد بصورة عامـة انما بدرجات متفاوتة . الا ان الخاصة قد تنطبق ايضا على طريقة اداء العمل ومن هنا فانها قد تقدم مفهوما لوصف الاسلوب الذي يعمل به الافراد .

والطريقة الاقوى حجة التي يمكن الاعتماد عليها لاكتشاف مفاهيم سماتية من هذا النوع ، هي في الوقت الحاضر طريقة التحليل ــ العاملي .

يبدا التحليل العاملي بمعلومات تتعلق بالتغيرات التي ترافق الاداء والتنفيذ. لكن ان نقول إنّ الاهتمام ينحصر بالاداء والتنفيذ فقط هو امر غير صحيح لان اكتشاف الترابطات بين اعمال التنفيذ انما يتم وفق تحريك تجريبي للمواقف التي تساعد على تحريضها . غير اننا بتنويع الاختبارات كميا وكيفيا على حد سواء يمكننا ان نصل الى تغير اكثر دقة للعوامل والى تحديد خصائصها . كذلك غالبا ما يمكن استخدام المعلومات المتعلقة بالعوامل هذه باعتبارها ذات علاقة بالدالات النفسية الاساسية .

ان الهدف من هذا لمقال ، في المقام الاول ، هو تقديم مسح بالغ الايجاز للسمات الاولية المعروفة التي يعتقد انها ذات صلة بالابداع . وللعلم فان السمات الاولية اكتشفت عن طريق التحليل العاملي . يتضمن مسحنا هذا سمات القابلية وعدم ــ القابلية على حد سواء ، ومن بين هذه الاخيرة هناك سمات المزاج والدافعية . ثانيا ، سنحاول الاشارة الى ما يبدو انه المكان الخاص بقابليات الابداع ضمن الاطار العام للفكر . وسنقدم ، ونحن نفعل ذلك ، بعض التكهنات المتعلقة بالقابليات الخاصة بالتفكير الابداعي والتي ما تزال مجهولة . ثالثا ، سنذكر بعض العلاقات والصلات القائمة بين عوامل الابداع وتقييمات الانجاز الابداعي غير ما ذكر في تصنيف اختبار القابلية ، كي نبين ان عوامل الابداع تلقى بعض الدعم من مصادر اخرى ، ومن ضمنها تقييمات انجازات الحياة اليومية .

★ ★ ★

السمات الاولية ذات العلاقة بالابداع

لعل افضل طريقة يمكننا بها تقديم معلوماتنا المتعلقة بالسمات الاولية للابداع ، بوصفها الحالي ، هي الانطلاق من بعض الفرضيات التي تم تبنيها لاغراض البحث عام ١٩٥٠ .

القابلية او الاستعداد للتفكير الابداعي :

لقد تكهن كاتب هذه الاسطر (١٩٥٠) ، بأننا سنجد عاملا يتميز باعتباره القدرة على رؤية المشكلات ، اي الحساسية العامة تجاه المشكلات . وقد اكتشفت سمة كهذه بالفعل وتم تبيانها على افضل صورة بوساطة اختبارات سئل فيها المختبرون ان يذكروا النقائص او العيوب الموجودة في الوسائط العامة او في المؤسسات الاجتماعية ، او ان يذكروا المشكلات التي تخلقها الاهداف او الاحداث العامة . وحديثا جدا ، تم التعرف على هذا العامل منطقيا باعتباره ينضوي ضمن فئة القدرات التقييمية العامة . (غيلفورد ، ١٩٥٧ آ) ، والتفسير هو ان العمل المتضمن هنا هو بشكل اساسي ، التوصل الى الحكم بأن الاشياء ليست صحيحة ، او انه لم يتم بلوغ الاهداف ، او انه لم يتحقق كل ما هو مرغوب . فقرار كهذا لا يلعب دورا بناء في التفكير المنتج وحسب ، بل لا يمكن البدء بالتفكير المنتج دون هذه الخطوة ابدا .

وقد افترض ايضا أن سلاسة التفكير هي جانب هام من جوانب الابداع ، وهذا هو الجانب الكمي الذي ينبغي أن يتناول خصب الافكار . فالنتائج التي توصلنا اليها في مشروع بحث القابليات قد اكدت ووسعت المعلومات المتعلقة بعوامل السلاسة الاربعة (ويلسون ومجموعة ١٩٥٤) .

فهناك عامل **الفصاحة الكلامية** الذي كان اول من ذكره هوتيرستون (١٩٣٨) هذا العامل هو القدرة على اعطاء كلمات ، كل منها يحوي حرفا بعينه او تركيبة من الحروف خاصة ، ورغم انه ليس من السهل ان نرى اين الاهمية الكبرى لهذه القدرة في العمل الابداعي إبان الحياة اليومية ، الا

ان دريفدال (١٩٥٦) اكتشف انهـا ذات شأن . واي شأن ، بالنسبة لطلاب العلوم والفنون على حد سواء .

اما عامل **تدفق التداعي** فقد تم بيانه على افضل صورة في اختبار يقتضي من الخاضع له ان يعطي اكبر عدد ممكن من المترادفات لكلمة معينة في وقت معين . وعلى العكس من الفصاحة الكلامية ، حيث ينبغي الاهتمام بالمتطلبات الحرفية فقط ، فان تدفق التداعي يتضمن شرط المعنى فقط بالنسبة للكلمات المعطاة . من هنا ، يتوقع المرء ان تكون قدرة كهذه هامة بالنسبة للكاتب العادي الذي يود ايجاد كلمة تفي بمعنى من المعاني في ذهنه ، كما ان التصفح السريع للكلمات في هذا المجال يعتبر ميزة حسنة . ونحن نتحقق من هـذه الفرضية في دراسة لموضوع الكتابة بإنكليزية المبتدئين .

وقد قيس عامل **الطلاقة في التعبير** افضل قياس بوساطة اختبار يتطلب اعطاء عبارات او جمل . فالحاجة الماسة للربط السريع بين الكلمات وترتيبها لتلبية متطلبات تركيب الجملة هي على ما يبدو الميزة الوحيدة لاختبارات هذه المقدرة . لكن اذا كانت هذه المقدرة تتعلق بالنطق الشفوي او لا فانه امر لا نعرفه ، انما ثمة افتراض معقول يقول بوجود ترابط خفيف على الاقل بين الاعمال التي ترافق الكتابة والاعمال التي ترافق النطق الشفوي . ورغم ان المرء اثناء الكتابة ، لا يعمل عادة وهو يخضع لضغط الزمن ، الا ان البراعة في صياغة الجمل يجب ان تكون شيئاً نافعـا وهامـا . وهي ، في الحديث الشفهي ، ذات اهميـة اكبـر ، وخصوصا بالنسبة للمواهب الخطابية . اذ يمكن القول إن توفر درجة عالية من الطلاقة في التعبير ، كما قيست في اختبارات خطية ، يمكن بوضوح ان تقود المراقبين الى ان يستنتجوا ان الشخص الطلق التعبير يتصف بدرجة عالية من الابداع . وفي دراسة لم تنشر بعد ، وجد ان تصنيفات الرجال في عدة سمات مختلفة للابداع تميل لان تكون مترابطة ترابطا ايجابيا مع العلاقات الخاصة بعامل الطلاقة في التعبير .

اما السـمة التي ربما هي ذات نفع اكبر بكثير فانها السلاسة في انتاج الافكار او عامل **تدفق الافكار** وهو القدرة على انتاج افكار تحقق

شروطا معينة في وقت محدد . وفي اختبار هذا العامل يمكن سؤال المختبرين ان يسموا اشياء صلبة وبيضاء وصالحة للاكل أو يذكروا استعمالات مختلفة لآجرة عادية او يكتبوا عناوين مناسبة لحبكة قصة معينة . وعند وضع علامات هذا العامل ، يكون الكم الخالص هو وحده ما يؤخذ بعين الاعتبار ، اما الكيف فلا حاجة للاهتمام به طالما كانت الاجابات ملائمة .

وفي معظم عمليات حل المسائل التي ينبغي فيها البحث عن اجوبة نجد ان هناك دائما عدة مراحل . فالمسألة ، كما هي مركبة او محددة ، تقدم مواصفات الحلول التي يجب البحث عنها . وما لم تشر المواصفات الى حل بعينه ، فان من المحتمل ان يجري التفتيش عن عدة حلول ممكنة ثم يتم اختيار هذه الحلول ، ويحتمل أكثر ان تصل عملية البحث الى حلول ملائمة اذا تمكنت من استنباط أكبر عدد من الاحتمالات . من هنا ، ربما كان تدفق الافكار يلعب دورا هاما في حل المسألة ، اذ ان كثيرا من المسائل يتطلب حلولا جديدة ، وهذا يعني تفكيرا خلاقا مبدعا .

كذلك افترض (عام ١٩٥٠) ان المفكرين المبدعين هم مفكرون مرنون . انهم يتخلون بسهولة عن اساليب التفكير القديمة ليضربوا في اتجاهات جديدة . لذلك جرى التكهن بأن هناك عاملا اصطلحنا على تسميته المرونة في التفكير واكتشفنا ان هناك قدرتين كلتاهما ، على ما يبدو ، تدخل ضمن هذه الزمرة من التصنيفات (ويلسون ومجموعته ، ١٩٥٤) .

وقد دعينا احدى هاتين القدرتين باسم **المرونة العفوية** وعرّفناها على أنها القدرة او الاستعداد لانتاج قدر كبير من مختلف الافكار ، بعيدا عن مسألة الكسل أو المواظبة . ففي اختبارات هذا العامل ، يبين الخاضع للاختبار الذي تتوفر فيه هذه القدرة كثيرا من الحرية في الطواف بتفكيره والتجوال بعيدا حتى عندما لا يكون هنالك ضرورة لذلك . انه يقفز ، عند تسميته استخدامات الآجر العادي ، قفزات سريعة من فئة من الاجابات الى اخرى يستخدم الآجر كمادة للبناء ، كثقل ، كمقذوف أو كمصدر لمسحوق أحمر وهلم جرا ، من جهة أخرى ، فان المفكرين

الجامدين يميلون للبقاء ضمن فئة أو فئتين من الاجابات . وهناك مثال آخر عن المفكرين المرنين عفويا في التعامل مع المادة المحسوسة هم اولئك الذين يرون التغيرات السريعة في الاشكال الغامضة تماما كالرسام الذي يخطط شكلا لمكعب او سلم .

اما النوع الآخر للمرونة في التفكير فيدعى المرونة التكيفية وقد دعيت كذلك لانها تسهل حل المسائل . ويتضح هذا على افضل صورة في المسائل التي تتطلب نوعا من الحلول التي هي ابعد ما تكون عن العادية . فالمسألة قد تبدو قابلة للحل من خلال الطرق الاكثر تقليدية او شيوعا . الا ان هذه الطرق لا تجدي . واحدى المهام التي تتطلب مثل هذا النوع من الحلول تقوم على اساس لعبة عيدان الكبريت المالوفة . اذ يعطى المفحوص مجموعة من المربعات المتماسة التي يشكل كل ضلع من اضلاعها عود كبريت ويقال له ان عليه ان يبعد عددا معينا من عيدان الكبريت ليترك عددا معينا من المربعات ، دون ان يقال له ان جميع المربعات يجب ان تكون من الحجم ذاته ، لكنه اذا ما تبين هذا الافتراض الواضح فانه لن يستطيع حل مسألة او اكثر من المسائل وذلك لان النتيجة النهائية المرضية الوحيدة هي عدد من المربعات المتباينة الحجوم . اذن الاستمرار في اتباع الاتجاه الخاطىء في التفكير يعني حالة منخفضة من عامل المرونة التكيفية .

وفي ميدان الابداع يتوقع المرء بالتأكيد ان يجد سمة الجدة التي دلت عليها علامات بعض الاختبارات حيث جرى روز الاجابات الصحيحة طبقا لندرة ورودها لدى مجموع المفحوصين . اذن غرابة الاجابات ، بالمعنى الاحصائي ، وقلتها هي احد مبادىء قياس الجدة والاصالة .

وقد دلت على هذا العامل ايضا الاختبارات التي تتطلب بنودها وجود ترابطات او علاقات بعيدة ، سواء كان هذا البعد من حيث الزمان او من حيث المعنى المنطقي . فاذا طلبنا من المفحوصين ان يدرجوا كافة النتائج التي تخطر في اذهانهم والتي تترتب على ظهور اكتشاف جديد يجعل الاكل غير ضروري ، فان كثرة النتائج البعيدة التي يوردونها تدل

على الاصالة والجدة في حين ان كثرة النتائج الواضحة البينة ، تدل على سلاسة الافكار ، وهذا يعني اتخاذ معيار الكيفية لبيان المدى الذي يمكن لشخص من الاشخاص ان يبلغه من الجدة والاصالة وبصورة تميزه عن غيره .

الطريقة الثالثة لبيان درجة الجدة في الاختبارات المباشرة هي عدد الاجابات التي يمكن ان يقدمها المفحوص والتي يحكم عليها بأنها اجابات ذكية . فالعناوين التي تعطى لحبكات القصص القصيرة ، مثلا ، يمكن ان تصنف على انها إما ذكية او غير ذكية . ويدل عدد الاجابات غير الذكية على سلاسة الافكار وتدفقها في حين يدل عدد الاجابات الذكية على الجدة والاصالة .

بيد ان هناك شكا متناميا في أن ما ندعوه اصالة وجدة ، والذي هو عبارة عن حالة من المرونة التكيفية حين التعامل مع مادة لفظية ذات معنى ، يوازي فعلا عامل المرونة التكيفية المعروف الآن والذي يتعلق بمهام معالجة مادة غير لفظية . لكن في كلتا الحالتين يتوجب على المرء ان يبتعد عما هو واضح او عادي او تقليدي لكي يحصل على علامة جيدة .

كذلك افترض في عام ١٩٥٠ ان هناك عامل التعريف من جديد الذي يتطلب المقدرة على التخلي عن التفسيرات القديمة للاشياء المألوفة بغية استخدامها او استخدام اجزاء منها بطرق جديدة . وقد ايد التحليل العاملي تأييدا حسنا هذا البعد من ابعاد الفوارق الفردية (ويلســون ومجموعته ، ١٩٥٤) مثال على ذلك ، أي الاشياء التالية يمكن أن تكيّف هي او اجزاء منها لصنع ابرة : قلم رصاص ، فجلة ، حذاء ، سمكة او قرنفلة ؟ ان الاجابة الصحيحة هي « السمكة » . نظرا لانه يبدو ان عظم السمكة العادية هو الشيء الاكثر قابلية للتكيف من اجل صنع ابرة . ولعل الارتجال يعكس ، بصورة عامة ، القدرة على التعريف من جديد . لذا اقترح ان انخفاض هذا العامل يعني حالة من « الثبات الوظيفي » او « الجمود الوظيفي » ، الذي درج استخدامه لتفسير ووصف العجز عن حل المسائل التي تتطلب شيئا من الارتجال ، كصنع رقاص ساعة من خيط وكماشة مثلا .

وهناك عامل آخر جرى التكهن به ثم اكتشف في دراسة القدرات التخطيطية (بيرجر ، غليفورد وكريستنسن ١٩٥٧) الا انه يحتاج للمزيد من التحقق والتحليل ، يمكن ان نذكره هنا . هذا العامل يدعى عامل **الإتقان** . وقد دل على هذا العامل اختبار يعطى فيه المفحوص خطاً او خطين بسيطين ويطلب منه ان يقيم على هذا الاساس شيئاً اكثر تعقيدا . كذلك فقد دل عليه اختبار يعطى فيه المفحوص الموجز العام لخطة من الخطط ثم يطلب منه ادراج كافة الخطوات التفصيلية الصغيرة لانجاز الخطة . ومن المحتمل هنا ان يكون الامر متعلقا بقدرتين اثنتين احداهما تتعلق باتقان المادة الشكلية والاخرى باتقان المادة المعنوية . واذا كان الامر كذلك فربما كانت القدرتان مترابطتين ترابطا ايجابيا .

بيد ان النتائج التي توصلنا اليها لم تؤيد كافة توقعاتنا الاولى في مجال العوامل . فقد تنبأنا بوجود قدرة مركزية في التفكير خاصة بالتحليل وقدرة مركزية خاصة بالتركيب . وقد اتيحت الفرصة الكافية تماما للتأكد من كلتا الفرضيتين والتحقق من صحتهما الا ان النتائج خرجت خلاف ذلك . فكان هذا مثالا يبين بوضوح اننا لا نخرج من التحليل العاملي دائما بما نضمنه . ومما لا ريب فيه ان النتيجة تبدو مناقضة للحس البديهي السليم نظرا لاننا في تفكيرنا نحلل ونركب .

على ان النتيجة لا تنفي وجود هذين النوعين من العمليات ، بل ما تبينه هو ان الافراد لا يختلفون تصنيفا عن بعضهم فيما يتعلق بالقدرة العامة على التحليل الذي يتناول انواعا كثيرة من المهام كما انهم لا يختلفون تصنيفا في قدرتهم العامة على التركيب . فالتحليل والتركيب، بهذا المعنى ، هما اشبه بعملية حل مسألة . والتحليل العاملي لم يكشف عن وجود قدرة مركزية لحل المسائل . ان عددا من القدرات المركزية يلعب ولا ريب أدوارا في حل المسائل الا ان نوعيات تركيبتها وكذلك حلها يتوقف على نوع المسألة . من هنا يمكن استخلاص نتيجة مشابهة فيما يتعلق بالتحليل والتركيب .

سمات عدم القابلية ذات بالابداع

لاشك ان هناك الكثير ممن يبحثون عن الاسرار الرئيسية للانجازات الابداعية خارج مشروطية القدرات . فليس ثمة من ينكر ان من المتوقع ان يكون لسمات الدافعية والمزاج آثار هامة وحاسمة على مسالة ما اذا كان الفرد سيقدم انجازا ابداعيا ام لا . لذا ينبغي التفتيش عن قدرات الشخصية وشروطها من هذا الجانب . الا ان هناك قليلا من المعلومات بخصوص الدور الذي تقوم به سمات كهذه في العمل الابداعي . ففي دراستها لعدد من الفنانين الكبار والعلماء المشهورين في عدة ميادين . لم تجد آن رو الا سمة واحدة مشتركة بين الافراد . هذه السمة هي الرغبة في العمل بداب وجد ولمدة ساعات طويلة ، (رو ، ١٩٤٦ ، ١٩٥٣) وهي السمة التي يمكن ان تساهم في تحقيق الانجازات والبروز في اي ميدان . بيد انه لا يوجد اي دليل على ان لها علاقة مباشرة بالابداع . فهذه السمة قد لا تعني أيضا الا توفر مستوى عال جدا من الدافعية التي لسنا متاكدين تماما من أسبابها . لذا تبقى المسألة قائمة كما هي وتبقى الحاجة ملحة من اجل اجراء المزيد من الدراسات التحليلية .

لقد اولينا اهتمامنا حديثا ، وابان قيامنا **بمشروع بحث القابليات** ، الى مسائل سمات عدم ــ القابلية التي قد تساهم بالتفكير الابداعي . وقد ذكرنا سابقا الاستنتاج الذي توصلنا اليه وهو ان المرونة العفوية في التفكير تبدو تحررا من المواظبة التي هي شكل من اشكال الجمود ، وان المرونة التكيفية تتجلى على شكل تحرر من الاستمرار في استخدام طرق الحل العقيمة التي تم تعلمها سابقا والتي هي عبارة عن شكل آخر من اشكال الجمود . وهذا يثير السؤال التالي : وهو ما اذا كان يجب ان تصنف عوامل المرونة ــ الجمود في التفكير ضمن شروط القابليات او شروط سمات المزاج ، او ما اذا كنا في هذه الحال نمتلك سمات ذات جوانب خاصة بالمزاج وجوانب خاصة بالقابليات معا . وذلك حسب المنظور الذي ينظر المرء اليها منه .

كذلك قدرنا انه ربما كان الابداع نوعا من موقف اللاتقليد الذي يجعل الفرد يعمل بطريقة غير معتادة او يسلك سلوكا غير شائع ، مفضلا اساليب تصرف خاصة به وحده . الا ان بحثنا لا يتطرق الى هذه المسألة، اما بالنسبة لعوامل السلاسة ، فان هناك عدداً من الفرضيات التي ذكرت فيما كتب عن العلاقات التي يحتمل وجودها بين سلاسة التفكير وبعض سمات الدافعية والمزاج (غيلفورد وجماعته ، ١٩٥٧) .

وهناك سبب آخر للاهتمام بهذه المسائل هو ان التحليل العاملي قد بين من قبل ثلاث سمات اولية ؛ على الاقل ، من الاهتمام بانواع مختلفة من التفكير ؛ منها **الاهتمام بالتفكير التاملي والتفكير الصارم** والتفكير الاجتراري . فهل سيكتشف ان هذه الاهتمامات ذات علاقة بانجازات التفكير ذات الانواع المختلفة ؟ كذلك اكتشف ان هناك اثنين من الاهتمامات الاولية بالنشاطات الجمالية ، احدهما يدعى **تقدير الجمال** ، والآخر **التعبير الجمالي** . ومتغيرات الاهتمام هذه يمكن أن تكون ذات صلة جيدة بالانجاز الابداعي في الفنون وربما بصورة عامة اكثر بالانجاز الابداعي ككل .

وقد كشف حديثا الفحص التحليلي العاملي لاهتمامات التفكير عن بعض افتراضات لمتغيرات اخرى ممكنة الوجود ايضا . (غليفورد وجماعته ١٩٥٧) . فقد وجدنا ، باستخدام علامات الاوصاف ــ الذاتية التي كانت اساس كشف متغيرات الاهتمام المذكورة آنفا ، دلائل على وجود بعض المتغيرات المتوقعة . احد العوامل يمكن تمييزه باسم **احتمال الغموض** . وهذا العامل هو الرغبة في تقبل بعض الشك في الاستنتاجات والقدرات والميل لتجنب التفكير وفق قوالب جامدة . كذلك تم التعرف على عامل آخر هو الاهتمام بالتفكير المنغلق او الميل اليه والتفكير المنغلق، الذي سنشرحه بصورة اكثر تفصيلا في القسم التالي . هو إعمال الفكر باتجاه جواب صحيح واحد ، او باتجاه جواب مقرر منفرد نسبيا . اما العامل الموازي فقد تم تمييزه على شكل الاهتمام بالتفكير المنطلق او الميل اليه ، وهو التفكير الذي يشتمل على مقدار كبير من الرغبة في البحث وتقديم العديد من الاجوبة . وقد اكتشف عامل آخر ايضا انما لم يجر تحديد

هويته تماما ، هو الاهتمام بالجدة او الابداع عموما ؛ أو لعل من الممكن التعرف عليه اما مرافقا للتعبير الجمالي او لتقدير الجمال وشدة الحساسية تجاهه .

ولكي نتفحص احتمالات ان يكون لاي من هذه العوامل ، أو لها كلها ، تأثير على النتاج الابداعي . فقد ربطت بين العلاقات الخاصة بهذه المتغيرات والعلامات الخاصة بحسن الاداء في اختبارات السلاسة ، المرونة والابداع . كذلك ، فقد كان بالامكان الربط بين علامات عدد من متغيرات الاوصاف الذاتية الاخرى ، ومن ضمنها السمات الاخرى ، وبين علامات اختبار ــ القابلية ذاتها . وسنذكر بكثير من الايجاز بعض النتائج الاكثر صلة بالموضوع . ان النتائج قائمة على أساس معاملات الترابط الهامة احصائيا ، الا ان معاملات التكافؤ كانت كلها دون الـ ۳۰ر۰ .

من النتائج يمكننا ان نستخلص انه يغلب على الافراد الذين يعملون حسنا في اختبارات سلاسة التداعي أن يشعروا بحاجة اشد للمغامرة كما يكونون أكثر احتمالا للغموض . وهذا النوع من النتائج هام بصورة خاصة لان على المرء ، كي ينال علامة جيدة في سلاسة التداعي ، أن يوسع قائمة مترادفاته بحيث تشمل كلمات لا صلة لها بالكلمة المعطاة الا من بعيد . ان الافراد الذين يحصلون على علامات عالية في سلاسة الافكار يميلون لان يكونوا أكثر اندفاعا وسيطرة وثقة بأنفسهم وان يكون لديهم تقدير اشد للابداع . اما الافراد الذين يظهر في سلوكهم اكثر من اشارات عادية عن العصبية والهبوط النفسي فيحتمل أن يكونوا ابطأ قليلا في تأدية المهام التي تتطلب سلاسة الافكار الا انهم لا يتكشفون عن وجود أية معوقات في الانواع الاخرى من اختبارات السلاسة . ولعل مجموع الافراد الذين جرت عليهم الدراسة لم يتضمن احدا يصل الى المستوى المرضي في السمات المزاجية هذه . اما من سجلوا علامات أعلى في اختبارات الطلاقة في التعبير فانهم يغلب عليهم ان يكونوا اكثر اندفاعا وان يقدروا التعبير الجمالي ويعجبوا به وان يميلوا للتفكير التأملي .

كذلك ، وبقدر ما توصلت اليه نتائجنا ، فقد اظهرت دراسات قياس الابداع وجود صلات له بعدد من سمات عدم ــ القابلية ، رغم ضعف

هذه الصلات . اذ يغلب على الشخص المبدع ان يكون اكثر ثقة بنفسه واكثر احتمالا للغموض وان يميل للتفكير التأملي والتعبير الجمالي . اما الشخص غير المبدع فانه يميل لان يكون شديد التدقيق في التوافه والتفاصيل ويشعر بالحاجة للنظام . وليس هناك من اشارة تدل على ان الشخص المبدع هو بالضرورة اقل ميلا للامتثال الثقافي ، الذي تدخل ضمنه النواحي الاخلاقية . كما ان الفرضية القائلة بأن الابداع يقوم على موقف اللاتقليدية ، لم تجد ما يؤيدها . على ان هذه النتائج لا تعني انه قد لا يوجد لدى افراد معينين ، مثل هذا الترابط ، بل انها تعني ان الترابط، لدى مجموع الناس بصورة عامة ، ليس اكثر شيوعا من الافتقار للترابط.

لقد ذكرنا سابقا صلات عاملي المرونة كليهما بسمات الجمود والصلابة ، والواقع انه لم تكتشف اية صلات اخرى خاصة بعوامل المرونة باستثناء بعض الدلائل ، على ان الاشخاص الذين يحصلون علامات عالية في المرونة التلقائية العفوية يحتمل ان يشعروا بحاجة شديدة للتنوع . فالشخص المرن الذي هو من هذا النوع يبدي بصورة واضحة نوعاً ما تنوعا بالاتجاهات في عمله اثناء الاختبارات .

وهنا لابد ان نؤكد على ان جميع هذه الصلات قد تمت دراستها في سياق الاختبار النفسي ، ونظرا لان الدافعية ترتفع عموما الى درجة عالية في الاختبارات المباغتة ، فان المفحوصين لا يجدون لديهم الا القليل من الفراغ لاظهار العلاقات البالغة القوة بين العمل في هذه الاختبارات واية سمة من سمات عدم ــ القابلية . الا ان من المحتمل تماما ان يظهر ان اعمال الانسان في حياته اليومية ذات صلة اقوى بكثير من سمات الدافعية والمزاج هذه .

الابداع وبنية الفكر

ثمة اهتمام دائم بالصلة القائمة بين الابداع والذكاء ولا سيما بالمدى الذي يمكن فيه للاخير ان يكون سببا للاول . لكن لسوء الحظ ، لم يسبق ابدا ان كان هناك « للذكاء » تعريف موحد . بل اكثر من ذلك

فان تراكم الادلة يبين ان الذكاء شيء متعدد الابعاد يتركب من عناصر كثيرة كشف عنها التحليل العاملي . لذا فان سؤالنا التالي هو ماذا كانت القدرات التي تبدو انها تشكل العناصر المكونة لموهبة الابداع يمكن ان تعتبر عناصر مكونة للذكاء ام لا . واذا كان الجواب بالايجاب ، فهل لها ياترى اي موقع هام بين القدرات الفكرية ؟

اسس بنية الفكر

بعد التمعن بكافة العوامل المعروفة التي يمكن ان تعتبر انها تمت للصنف الفكري ، ومن ضمنها قدرات السلاسة ، المرونة ، الابداع وكذلك الحاسية تجاه المشكلات ، فقد اقترح كاتب هذه الاسطر مجموعة من هذه العوامل ودعاها بـ « بنية الفكر » (غيلفورد ، ١٩٥٦ ب ، ١٩٥٧ أ) . ولسوف نلقي هنا نظرة موجزة على العناصر الاساسية لتلك المجموعة مع الاقتراح بأن تجري بعض المراجعات العامة والهامة بغية التوصل الى نظرية شاملة للفكر . ومما لاشك فيه ان قدرات التفكير الابداعي يحتل مكانا بارزا ضمن هذه المجموعة .

ان هناك حوالي سبعة واربعين عاملا من عوامل الفكر المعروفة . وقد تم التوصل بعد تفحص خصائصها الى ان بالامكان وضعها ضمن تصنيف ثلاثي الاتجاهات ، وان هناك ثلاثة اسس يمكن ان تنظمها .

الاول هو ان من الممكن تصنيف ابعاد الفكر المعروفة ضمن ثلاث فئات وذلك طبقا لنوع المادة او مضمون الفكرة .

فأحد انواع المادة يحتمل ان يدعى بـ « الشكلي » لانه على هيئة عناصر مدركة أو اشياء ذات خواص متنوعة . فالاشياء البصرية مثل الخطوط والاشكال ، تتصف بخصائص الشكل والحجم واللون والتركيب والتدرجات وهلم جرا . اما العناصر السمعية فتكون على شكل ايقاعات نغمات واصوات كلامية . كذلك هناك المواد اللمسية والحسية والحركية الا ان السبر التحليلي – العاملي في اختبارات تشتمل على مواد كهذه غير موجود عمليا ، انما يمكننا القول ان القدرات المتعلقة باستخدام المادة الشكلية تشكل زمرة عامة هي زمرة **الذكاء الحسي** .

ثانيا ، لدينا مادة يمكن ان تدعى المفاهيمية او **الدلالية** ، تتكون من معان في قالب ملفوظ ، ومن اختبارات الذكاء الاكثر شهرة الا عبارة عن مادة لفظية ، تشتمل بشكل من الاشكال على معاني كلمات .

ثالثا ، لقد اجبرنا بحثنا للقابليات على تمييز صنف من القدرات ذي علاقة بما يدعى بالمادة الرمزية . ومن الامثلة على هذه المادة هناك الاعداد، المقاطع ، الكلمات (تراكيب الكلمات وليس المعاني) وكافة انواع المواد الترميزية . فعناصر كهذه ليس لها معان طبيعية بل هناك بحكم التقليد ولتوارث مايربط بين استخداماتها ومعانيها بصورة اعتباطية . فالابجدية والمنظومة العددية توفران خصائص ملائمة تجعل بالامكان استخدامها بطرق كثيرة متنوعة ، ومن هنا ربما كانت قابليات تعلم الرياضيات واللغات ترتكز الى حد كبير على القدرت الرمزية . وعليه فان القدرات التي تمت لأي من المواد الدلالية او اللفظية تؤهل المرء لان يكون لديه الصنف المعروف عموما باسم « الذكاء المجرد » ، لكن بما انه يشكل صنفين متميزين ، فان من الافضل ان نتكلم عن كل منهما بشكل منفصل فندعو الصنف الاول باسم الذكاء الدلالي والثاني باسم الذكاء الرمزي .

الاساس الرئيسي الثاني للتصنيف يتم طبقا للنوع العمليات التي تجري على مواد التفكير . وكما هو معروف فان هناك خمسة انواع عامة للعمليات جميعها تستخدم في كل نوع من انواع المواد الثلاثة . فاحد صفوف القدرات ذو علاقة بتحصيل المعارف بانواعها المختلفة . وهذه العوامل يمكن ان تدعى قدرات الاكتشاف الا انها تتعلق ايضا باعادة اكتشاف العناصر والاشياء المشتقة منها والتعرف عليها مجردا فنحن نميز الاشياء الشكلية والاشياء الرمزية والمعاني . والتوقف مجددا على معاني الكلمات هو جوهر عامل **الفهم اللفظي** ، وهو العنصر السائد في كافة اختبارات الذكاء اللفظي .

ثمة مجموعة اخرى من عوامل القابلية والاستعداد تتكون من قدرات الذاكرة . فهناك على مايبدو قدرة ذاكرية توازي كل قدرة ادراكية ، وذلك بقدر مانعرف عن القدرات الذاكرية ، اما المجموعتان الاخريان فتتعلقان

بانتاج معلومات اخرى من معلومات معطاة بوساطة عمليات تفكيرية . وقد تم تمييز احدى هاتين المجموعتين باسم **التفكير المنغلق** والاخرى باسم **التفكير المنطلق** . الاول يجري باتجاه جواب او حل محدد . فاذا سئلت مثلا : ماهو ضد « عال » ؟ ربما ستجيب « واطىء » وهذا مثال عن التفكير المنغلق ، كذلك اذا سئلت « كم يساوي اثنان في خمسة زائد اربعة ؟ » فانك لن تجد بديلا اخر للقول سوى « اربعة عشر » . لكن اذا ماطلب منك ان تعطي عددا من الكلمات تقارب في المعنى كلمة « واطىء » ، فانك قد تعطي عدة اجابات مختلفة ، كلها تلبي الشرط ، مثل « منخفض، نازل ، منحط ، وماشابه ، وتكون اجاباتك صحيحة » . وفي هذا المثال ، تكون لدينا حالة من حالات التفكير المنطلق .

اما الصنف الخامس من القدرات الفكرية فيتعلق باجراء تقييمات للمعلومات والاستنتاجات او الاجابات الاخرى الناشئة عن معلومات معطاة فنحن قد نتسأل عن المعارف والاشياء التي نتذكرها وكذلك عن حلولنا لمسائل معينة ونتوصل الى قرارات فيما اذا كانت صحيحة او مناسبة او صالحة وهكذا دواليك . ان مثل هذه القدرات تدخل ضمن زمرة **التقييم** .

وحين نطبق بعض العمليات على بعض انواع المواد ، فاننا نخرج بنواتج مختلفة الانواع . من هنا فان الطريقة الرئيسية الثالثة لتصنيف القدرات الفكرية هو تصنيفها حسب الناتج الذي يتعلق به الامر . فقد يكون الناتج فكرة او شكلا او بنية رمزية او مفهوما . كما قد يكون الناتج صنفا من الوحدات او علاقة بين وحدات . وهو قد يكون نموذجا او نهجا او كلا Gestalt من نوع ما يتكون من وحدات . او يمكن أن يكون مضمونا ، كما يحدث مثلا حين نخرج بتكهن ما من معلومات متوفرة لنا . ولكل نوع من انواع النتاج هذه ـ وحدات ، اصناف ، علاقات ، نظم ومضامين ـ قدراته الاولية . ورغم اننا غير متأكدين من ان اصناف النتاج الخمسة جميعها تنطبق على كافة انواع المواد اضافة الى كافة انواع العمليات ، الا ان هناك تشابها متميزا في هذه المرحلة يكفي لتبرير التكهن باننا حين نعرف المزيد سنتمكن من تطبيق اصناف النتاج ذاتها

في كل مكان . وقد يتوجب علينا ان نضيف فئة سادسة تتعلق بالتغيرات او التحولات ، نظرا لان انتاجا كهذا يستخدم الان بالارتباط مـع بعض انواع العمليات . من هنا يتبين ان كل قدرة فكرية اولية تمثل نوعا من ملتقى طرق او نقطة تقاطع لنوع معين من العمليات مطبقة على نوع معين من المواد ومنتج لنوع معينا من النتاج .

نظرية شاملة للفكر

اذا نشرنا الفئات العامة للمواد والعمليات والنواتج على كل انحـاء نطاق القدرات الفكرية ، امكننا ان نمثل بنية الفكر على شكل مجسم ثلاثي الابعاد ، نموذج هندسي قدمناه لكي يمثل نظرية شاملة للفكر البشري .

ويظهر في الشكل قسم خـاص بنوع رابـع من المـواد هو النـوع **السلوكي** . ورغم انه لايوجد ثمة نتائج تحليلية ـ عاملية يمكن ان تبرر تصنيف ذكاء كهذا الا ان هناك معلومات من مصادر اخرى تكفي لتبرير اضافة مثل هذا الصنف من العوامل نظريا . لقد قال ثورندايك ، منذ ما يزيد عن ٣٠ سنة ، انه يوجد ذكاء اجتماعي يتميز عن الذكاء المجرد وعن الذكاء الميكانيكي (ثورندايك وجماعته ، ١٩٢٧) . والآن هناك اهتمام جديد بمكتشفات « التقمص العاطفي » الذي ربما يدخـل ضمن هـذا الصنف ذاته .

ان المعاني التي يتضمنها الصنف السلوكي في بنية الفكر هي معاني بالغة الاهمية . فقد اشرنا من قبل الى أن هناك ذكاءً حسيا وذكاء رمزيا وذكاء دلاليا . وجميعها تؤيدها الان عوامل معروفة . وبما ان هنـــاك توازيات كثيرة جدا بين نطاقات التفكير الثلاثة هذه . يغدو من المعقول القول ان نفس العمليات والنواتج تستخدم في نطاق الذكاء الاجتماعي او التقمص العاطفي ، مما يعني ان علينا ان نبحث عن القدرات التي تتعلق

بادراك ومعرفة الوحدات السلوكية وكذلك بالاصناف والعلاقات والنظم والمضامين . اذ توجد قدرات حفظية موازية للتفكير المنتج فيما يتعلق بالمسائل السلوكية وقدرات لتقييم نتائج اية عملية من هذه العمليات . ويبدو من المعقول ايضا الافتراض بأن كل هذه انواع من العمليات والنواتج تستخدم في نطاق الاحداث الاجتماعية او السلوكية . وكنوع من التغيير المحتمل ، علينا ايضا ان نرى امكانية ان تكون هناك قدرات ذات صلة بسلوك المرء الخاص وسلوك الاشخاص الآخرين .

موضع القابليات التي تساهم في الانجازات الابداعية

لكي نعود الى القدرات ذات الصلة الاكثر وضوحا بالابداع ، يتبين بكل جلاء ان سمات السلاسة ، المرونة والاصالة تدخل ضمن الصنف العام للتفكير المنطلق مع ذلك فان العامل المعروف باسم الحساسية تجاه المشكلات يوضع في زمرة التقييم بينما يوضع عامل اعادة التعريف في زمرة التفكير المنغلق كما ذكرنا سابقا . ولعله صحيح ايضا ان هناك قدرات اخرى لا تنضوي ضمن زمرة التفكير المنطلق تقدم مساهماتها في التفكير المنتج . فنحن قد نعرّف التفكير المبدع بصورة تعسفية بانه التفكير المنطلق ، لكن قد يكون من الخطأ القول ان التفكير المنطلق يقف وراء كافة العناصر الفكرية التي يتكون منها الانتاج المبدع .

كذلك هناك عدد من قدرات التفكير - المنطلق التي قدرنا انهـــا موجودة في بنية الفكر الا انها لم تكتشف بعد ، وخاصـــة في القطاعين الشكلي والرمزي . اذ يفترض ان هذه القدرات ذات علاقة اكبر بالتفكير الابداعي في ميدان الفنون (غيلفورد ١٩٥٧) وفي الرياضيات . في حين ان قدرات التفكير المنطلق المعروفة . لكونها على الاغلب تقع ضمن النطاق اللفظي هي ذات شأن اكبر بالتفكير الابداعي في مجال الانسانيات والعلوم والشؤون العادية . هذا ولا بد ان قدرات التفكير - المنطلق في المجال السلوكي هي قدرات مفيدة لكونها تساهم في تحسين العلاقات البشرية

سواء على الصعيد الشخصي او السياسي او الصناعي او الشؤون الدوليـــة .

صحة الاستنتاجات ومشكلات التدريب

بعض المعلومات عن صحة الاستنتاجات

لقد كرّسنا عملنا في مشروع القابليات وبصورة تامة تقريبا للبحث في القضايا الاساسية ، معتقدين أن ما نحتاجه امس الحاجة في هذا الزمن هو تفهم اكمل واوثق لطبيعة الفكر ومكوناته . لكننا لم نكن غير مهتمين او غير مبالين بامكانية تطبيق مفاهيمنا العاملية بصورة عامة ، بل كثيرا ما واجهتنا التحديات بهذا الخصوص . وقد قمنا شأننا شأن الآخرين ، بعدد من الدراسات التي تركز على اهمية السمات الاولية للاستعـداد الابداعي من وجهة نظر اخرى غير وجهة نظر التحليل العاملي .

ان المعلومات المتوفرة عن صحة ما تم التوصل اليه مبعثرة وكثير منها جاء بمحض الصدفة الى دراسات ذات اهداف اوسع ، فالصحة التي توصلنا اليها في اختباراتنا للاصالة والابداع اكدتها بصورة حسنة دراسة اجراها بارون (١٩٥٥) . فقد جرى تقدير مائة ضابط مـــن ضباط القوات الجوية بعد ثلاثة ايام من المراقبة حيث وضعت لهم ، فيما وضع ، علامة للابداع . فوجد ان العلامة الاجمالية في اختبارات الابداع مترابطة بمعدل ٥٥ر. مع التقديرات المتوسطة . كما وجـد دريفدال (١٩٥٦) ان العلامة الخاصة بالابداع مترابطة بنسبة ٣٣ر. مع تقديرات المدرب لابداع الطلاب في مجال الفنون والعلوم .

بيد انه ينبغي الا يتوقع المرء قدرا كبيرا من صحة التكهن بعلامات الاختبار التي تمثل عامل الابداع من خلال علامات الدورة الدراسية ، فقد وجد هيلز (١٩٠٠) في اختبار للابداع ان معامـل الترابط المتوسط هو ـ ٠٢ر. بين عامل الابداع هـذا وعلامات عـدة صفوف عليا من

دورات طلاب رياضيات وخريجيها . كما وجدنا مؤخرا ان معامل الترابط بين اختبار للابداع ومتوسط علامات مواد العلوم والرياضيات لزمرتين من طلاب الهندسة تعداد كل منهما حوالي المائة هو ٢٧ر. .

لكن ليس هناك حتى الآن الا القليل من الادلة على ان عوامل الفصاحة اللفظية يمكن ان تنبئنا بامكانية الانجازات الاكاديمية أو التقنية . أما العلامة الخاصة بطلاقة التعبير فقد وجدت ، ولسبب لايعرفه احد ، مترابطة بمعدل ٢٥ر. مع علامات دورة دراسية في علم الفلك (غيلفورد ١٩٥٦ آ) ، كما وجدت علامة سلاسة الافكار مترابطة بمعدل ٣٧ر. مع عمل مهندسي الطيران الذين كان ينحصر عملهم الاساسي في تصميم اجزاء الطائرات . وكان المعيار هو معدل تزايد العطاء خلال فترة زمنية محددة (غيلفورد ، ١٩٥٦ آ) في حين اظهر عامل المرونة التكيفية ، باستمرار بعض الصلات الخفيفة بحسن الاداء في الرياضيات ، وباحدى حالات الانجاز في الفيزياء (غيلفورد ، ١٩٥٦ آ) ؛ بينما وجد هيلز (١٩٥٥) ان معامل الترابط المتوسط مع العمل في مجال الرياضيات هو ٣٣ر. ، في حين وجدنا نحن ان نسبة ترابطه بعلامات الفيزياء هي ٣٣ر. ، وبين مهندسي الطيران كانت علامة المرونة التكيفية مترابطة بنسبة ٣١ر. ، مع معيار معدل تزايد العطاء . (غيلفورد ، ١٩٥٦ آ) . أما التفكير الكمي الذي يتعلق بمشكلات حديثة نسبيا فانه يبدو مترابطا مع المرونة التكيفية.

وفي عام ١٩٥٧ اجرى سبريشر دراسة للابداع لدى مهندسين متخرجين ، وفق معايير تتضمن تقديرات نزعة الابتكار وكذلك العمل في مسائل تقنية جديدة ، فوجد أن هناك معاملات ترابط متعددة نتيجة اجرائه بضعة اختبارات لعوامل الابداع وانها تقع ضمن نطاق يتراوح مابين ٣ر. و ٥ر.

ورغم ان اختبارات العوامل الابداعية لم تتنبيء مسبقا عن المستخدم الذي يحتمل ان يقدم افكارا في الصندوق الخاص بالاقتراحات الا انها اكتشفت ان كثيرا من العوامل الاخرى تفعل فعلها هنا . فقد وجد مثلا ان بعض الافراد المبدعين تمنعهم أسباب عرضية من تقديم مساهماتهم (كورنيس ونوتلمان ، ١٩٥٧) كذلك وجد أن بعض الاختبارات مترابطة

ترابطا هاما مع بعض تقييمات الجوانب التعبيرية العمل التعليمي (كورنيس ونوتلمان ، ١٩٥٦) ووجد ايضا ان هناك علامات من الاختبارات ذاتها مترابطة مع وجود انواع معينة من الهوايات الابداعية التي سجلت في قوائم المعلومات لبيوغرافية (سيرة الحياة) . (جري . ديفو وكورنيس ١٩٥٧) .

التدريب من اجل الابداع

ثمة اهتمام كبير بين الناس لتدريب الافراد من اجل زيادة الابداع وقد افتتح عدد كبير من الدورات الدرسية في هذه البلاد بهدف تنمية الابداع لدى الافراد . بعضها في الجامعات ، وبعضها الآخر في القطاع الصناعي وبعضها الثالث في الدوائر الحكومية . وقد كانت طرق التدريب متفاوتة بشكل من الاشكال . وذلك لانه ما من احد يعلم في هذه المرحلة ما هي اكثر الطرق فعالية لتحقيق القدر الاكبر من الانجازات الابداعية من هذه الطرق الطريقةالتي استخدمها اوسبورن (١٩٥٣) اي تجميع افكار عدة عناصر تشترك في حل مسألة Brainstorming ورغم انه ذكر ان التدريب يزيد من نتاج التفكير وان له بعض الآثار المفيدة والدائمة على الخاضعين له . الا انه ليس هناك اي تقرير تقريبا عن تجارب دقيقة محددة صممت خصيصا لاختبار هذه الآثار .

لكن هناك ادلة على ان بعض طرق التدريب ، على الاقل ، تؤدي الى زيادة الابداع في العمل على حساب السلاسة . لقد وجد جيري وديفو وكورنيس (١٩٥٧) ، بعد ان استخدموا جملة من طرق التدريب من ضمنها طريقة اوسبورن (تجميع افكار عدة عناصر مشتركة) وكذلك اسلوب ارنولد (١٩٥٤) المسمى (خارج هذا العالم) ، انه تحدث زيادات هامة في العلامات الخاصة بالابداع لكن ربما مع بعض النقصان في علامات سلاسة الافكار . وفي بيانات معلومات لم تنشر عن اطفال في العاشرة من العمر يظهر بوضوح ان دورة تدريب قصيرة على الكتابة الابداعية كان يتبعها اداء افضل في اختبارات الابداع ، واسوأ في اختبارات سلاسة

الافكار وذلك بالمقارنة مع مجموعة ضبط مقابلة . اما الاكتشاف الذي يؤثر بصورة غير مباشرة على المسالة ذاتها فهو انه عندما يتدرب المفحوصون على اعطاء عناوين ذكية لحبكات قصصية في اختبار من الاختبارات فانه يغلب عليهم ان يسجلوا نقصانا في مجمل انتاجيتهم وزيادة في عدد الاجابات الذكية وكذلك في المستوى العام للذكاء المقدر بالمقارنة مع المفحوصين الذين لم تتناول تدريباتهم اي شيء يتعلق بالذكاء (كريستنسين ، غيلفورد ، وويلسون ١٩٥٧) . ان ما نخلص اليه بصورة عامة من هذه الدراسات القليلة هو ان الانتباه لمسالة الابداع وبذل الجهود لزيادته يحتمل ان يحقق تحسينات في نوعية الاجابات على حساب الكمية . وفي الحياة العادية ، حيث يتوفر وقت اكثر مما يوجد في اختبارات السلاسة . فان تضاؤل سرعة الافكار ربما لا يسبب الا قليلا من الاهتمام .

الخلاصة :

لقد حاولنا في هذه المقالة، اولا ، ان نستنتج بعض اسباب الاهتمامات العفوية التي ظهرت اخيرا بالنسبة لموضوع الابداع . وقد ذكرنا الاسباب التي جعلت علم النفس يؤجل بصورة عامة البحث الجدي بهذا الموضوع واكدنا على اهمية نهج السمات في معالجة الموضوع بغية ايجاد المفاهيم العامة الضرورية .

ثم تلت ذلك مراجعة مختصرة لسمات القابلية التي تمت بصورة منطقية واضحة تماما ، لميدان الابداع والتي اكتشفها التحليل العاملي وقد جرى اكتشاف الكثير منها خلال السنوات العشر الماضية . وهي تتضمن عوامل سلاسة التفكير ومرونة التفكير وكذلك الاصالة والحاسية تجاه المشكلات واعادة التعريف والاتقان .

كما جرى تبيان عدد من العلاقات بين بعض سمات عدم القابليـــة والانجاز الابداعي في الاختبارات . وعلى ما يبدو فان مرونة التفكير بشكليها تقف في الطرف المناقض لجمود التفكير بشكليه ايضا . كذلك يبدو ان

اعادة التعريف هي النقيض المنطقي للصفة المعروفة باسم الثبات الوظيفي. والسمات الاخرى للمزاج والدافعية تبدو ذات صلات ضئيلة بحسن الاداء في اختبارات السلاسة والمرونة وبصورة خاصة اختبارات الاصالة والابداع .

ان معظم عوامل القابلية التي تم تمييزها على انها تمت لفئة عوامل الابداع يمكن تصنيفها ضمن زمرة قدرات التفكير ــ المنطلق . وهذه القدرات ، بالمقارنة مع قدرات التفكير المنغلق ، تؤكد على نشاطات البحث مع الحرية في المضي باتجاهات مختلفة ، حتى ولو لم يكن هنالك ضرورة لفعل ذلك ، من أجل القيام بعمل ممتاز في حين ان نشاطات التفكير ــ المنغلق تمضي باتجاه جواب صحيح واحد ، او باتجاه الجواب الـذي تقتضيه تقريبا المعلومات المعطاة .

كذلك فان القدرات الاخرى التي تساهم في الانجازات الابداعية تجد مكانا لها في مجسم ثلاثي الابعاد ، القدرات الاولية فيه تتميز طبقا لانواع المواد التي يجري التعامل معها والعمليات المطبقة على المواد والنواتج الناجمة . وقد افترضنا نظريا ان الميدان الكامل للقدرات ، الذي يتضمن ما يدعى احيانا بالذكاء الاجتماعي واحيانا بـ التقمص العاطفي ، يوازي ميادين اخرى تتمايز الآن بتمايز مواد الفكر ــ الشكلي والرمزي والدلالي .

وان عددا محدودا من الدراسات التي اجريت للتحقق من صحة الاستنتاجات تميل لان تبين ان اختبارات بعض عوامل التفكير الابداعي ، كالمرونة التكيفية والاصالة مثلا ؛ تتصف بالصحة المنشأة عن طريق التركيب العقلي والصحة التكهنية على حد سواء .

اما المحاولات التي جرت لتحسين الابداع من خلال التدريب فقد اعطت ادلة غير قاطعة عن تحقيق درجة معينة من النجاح . اذن دلت التجارب في الغالب ، على ان التدريب يحقق بعض التحسن فيما يقدمه المفحوص في اختبارات الاصالة والابداع الا انه يمكن ن ينتج عنه بعض التراجع في اختبارات سلاسة الافكار . لكن مما لا ريب فيه أن معرفتنا بطبيعة سمات الابداع لا بد ان توفر اساسا افضل بكثير مما كان في السابق لطرق التعليم المنهجية في هذا الميدان الهام .

تطور المنهج التجريبي ومستقبله

رينيه ليكليركو
ترجمة : حامد طاهر

يستخدم البحث العلمي في تحقيق اغراضه ثلاثة عناصر : اولا : الانسان بطاقاته العقلية والاخلاقية والفيزيقية ، ثانيا : المعمل بادواته في الملاحظة والتجربة على نماذج مبسطة ومصغرة ، ثالثا : المنهج او مجموعة القواعد اللازم اتباعها للحصول على افضل عائد ممكن.

ونحن نقبل بسهولة امكانية تحسين كل من الانسان والمعمل ، فبالنسبة الى الانسان ، يمكن تطوير استغلال ذهنه ، ونشاطه العقلي وثقافته العلمية . ويتم ذلك بالاعتماد على الابحاث وتطوير التعليم . كما تعتبر المنبهات الفيزيقية وسائل ممكنة في هذا الصدد ، بل لقد فكر جان روستاند في امكانية تطوير العبقريات عن طريق تحسين النسل . ودون الخوض في مناقشة هذه الوسائل : خير هي ام شر ، علينا ان نسمع بوجودها .

اما بالنسبة الى المعمل ، فالجميع متفق على ان الميكرسكوب والتحليل الكروماتوغرافي (طريقة خاصة في فصل جزيئات جسم مركب) لا يعتبران آخر ادوات العلم ، فنحن نشاهد في كل يوم ميلاد ادوات واجهزة جديدة، غاية في التعقيد والدقة .

لكننا عندما نصل الى ان نسأل باحثا علميا عن امكانية تحسين المنهج ، فان الاجابة تتسم عموما بالتشاؤم ، اذ يعتقد الكثير من الباحثين انهم يمتلكون بالفعل قدرا طيبا من قواعد المنهج ، بحيث لا يمس التحسين الا عدة تفاصيل هينة ، لا تغير شيئا من حقيقة الامر . ويعتبر كثير من اساتذة الجامعات ، على الاقل من الاوربيين ، ان الدراسة النظرية للمنهج غير ذات فائدة ! وهم يقولون : اننا نتعلم المنهج ـ عمليا ـ في المعمل ، وقد يكون كثيرا اوقليلا ، لكننا نعتبر هذا كافيا .

فهل هذا موقف منطقي ؟.. هذا هو السؤال الذي نطرحه ، وللاجابة عليه ينبغي استعراض المنهج عبر الزمن ، واستبدال الملاحظة الاستاتيكية للحالة المعاصرة بنظرة اخرى ديناميكية ، وفحص عام يبدا من البداية حتى عصرنا الحاضر ، كما يجب ، في الوقت نفسه ، وبصورة موازية تحليل المنهج ، وتحديد ما اذا كان من الملائم تحسين كل جزئية من جزئياته .

يمكننا بصورة نموذجية ان نتخيل ان تطور المنهج قد تم على النحو التالي:

ـ ملاحظة كيفية اولا ثم كمية بعد ذلك .

ـ نظرية ميتافيزيقية اولا ثم افتراضية قريبة جدا من الواقع .

ـ سؤال الطبيعة عن طريق التنسيق بين التجربة والفرض .

ـ واخيرا .. ميلاد نظريات جديدة .

وفي الواقع ، لم يحدث ذلك بسهولة ، فقد وجدت على مدى العصور ملاحظات قيمة ، بينما ضاعت اخرى في الاساطير . ومن المؤكد انه قد وجد مجربون ، قبل ان يتكون المنهج التجريبي ، وكذلك رياضيون حاولوا اقامة نظريات الطبيعة ، قبل ان يتم تعميم هذه الاخيرة بوقت طويل .

وينبغي ان نلاحظ انه عندما نقول ان المنهج التجريبي قد تطور على نحو

بطيء ، مارا من الكيف الى الكم ، من التفسير الميتافيزيقي الى الفرض ، من الملاحظة الفردية الى الملاحظة المدعمة بالتجربة ، من النظرية الخطابية الى النظرية الرياضية ، فان ذلك يعني ، في الحقيقة ، تلخيص اتجاهات كبرى في مجرد كلمات ــ مفاتيح .

لم يحدث تطور المنهج التجريبي دون صعوبة ، فقد كان تحرر العلم من قيوده القديمة مصحوبا بردود فعل عنيفة ، ثم بعد ذلك بوقت طويل ، استمرت ردود الفعل هذه ، على نحو بسيط ، من جانب اولئك الذين يرون في العلم دائما مجالا يتخطى قدراتهم واحيانا مكاسبهم !

غير انه عبر ذلك التاريخ الطويل ، ظل هناك اتجاهان بارزان : الاتجاه النظري ، والاتجاه العملي التجريبي . ديكارت يفسر الطبيعة اكثر مما يسالها ، وباستير يسالها اكثر مما يفسرها . ويقف ماكسويل في طريق وسط بين الاتجاهين .

اننا نلمس هنا مشكلة دقيقة للغاية ، وهي ان التراكم المتزايد للوقائع الملاحظة قد بدا يتيح التنبؤ بنظريات اخرى جديدة ، اي ان التجربة بدات ، على نحو تدريجي ، تتخلى عن الميدان للنظرية .

ويمكن للتجربة أن تجرى في حدود ظواهر لم يتنبأ بها بعد ، وكذلك في التحقق من نتائج النظريات . واذن فكل باحث يعلم ان نظرية خاطئة يمكنها ان تتنبأ بظواهر صحيحة . وهكذا فان فرض الكائن الكامن بالقوة في البويضة ــ الانثى قاد كلا من سبالانزاني وبونيه الى نظرية التوالد العذري .

كذلك فان ايف ايلاج ، الذي كان يعتقد في ان تطور بيضات توتياء البحر يعتبر مرحلة تالية لحالة التجمد التي تعقب حالة السيولة ، قام بتجميد بيضات بواسطة مادة المفض ، ثم حولها الى سائل بعد ذلك بواسطة غاز الامونياك (المؤلف من الآزوت والهيدروجين) فحصل أخيرا على عدد كبير من اليرقات العذرية التوالد .

واذن مــن الضروري القيام احيانا بتجارب ، غير متوقعة ، عــن طريق الاستدلال المنطقي . تماما كما يحدث في سبر مجرى مائي من الخارج

للتعرف على قيمته الحقيقية . وهذه هي النتيجة الاولى . اما الثانية فتتمثل في ضمان التوازي الضروري بين التجربة والنظرية . والثالثة : انه اذا كان للنظرية ان تلعب دورا متزايد الاهمية ، فانه من المناسب تحسينها . وسوف نتحدث عن هذه النقطة فيما بعد . فلنتأمل الآن على التوالي كلا من هذين الجانبين : التجربة ، والنظرية .

هل يمكن ان نأمل في تقدم كبير للملاحظة والتجربة ؟ اننا لا نعني بالطبع الادوات والاجهزة المستخدمة في هذا المجال ، فان امامها مستقبلا واسعا للتقدم والتطور المستمر . لكننا نرى انه من الممكن التحكم في الملاحظات عن طريق « الرسم البياني » لتقليل عددها ،واختيار النقاط البارزة منها. فمما لا شك فيه ان تمثيل ظاهرة ما بخط مستقيم يتطلب عددا اقل من النقط التي تستلزمها نفس الظاهرة ، حين يتم عرضها في « كلام مسهب »، ويمكن الذهاب ابعد من ذلك باستخدام منهج بوكس و ويلسون ، كما ان التجريب باستخدام الذرة يعتبر وسيلة لتقليل عدد التجارب . ومن هذه الناحية ، توجد مجالات كثيرة ممكنة للتطور ..

واما تعقد التجارب التي أصبحت اكثر دقة ، فيجب ان نقيم وزنا لوسيلة الملاحظة على الموضوع الملاحظ . فقد يحدث اثناء تحليلنا لظاهرة ما ، ان نجد « المنهج العقلي » هو الاكثر ملاءمة لتفسيرها . كما يجب ان يكون هناك اعتبار ، في كثير من الحالات ، للملاحظين في حالات الحركة . ومن الممكن ان تكون هناك فائدة من ادماج عدة ملاحظات متزامنة مع أخرى ذات طبيعة مختلفة . وكما قال ادينجتون : « يمكن التساؤل عما اذا كان من الضروري ان نقيم وزنا لكل الملاحظين الصالحين الذين نعتقد ان الكثير منهم لا وجود له ... ومع عدم وجود الملاحظ ، فان العلم يرفض ، دون نقاش ، اي فرض قابل للدفاع عنه ! » .

وتعتبر نظرية اخطاء الملاحظة (الاخطاء المرتبطة بوسائل الملاحظة ، او بالملاحظ نفسه) في حالة تطور مستمر ، وهنا أيضا مجال كبير لمحاولات التطوير ..

وأخيرا فان السيبيرنتيك (علم التوجيه الذاتي) يقودنا الى تحديد

ملاحظاتنا في جميع الحالات ، وربطها بعامل التخمين . وتتصل بهذا نظرية المعلومات .

وهكذا نرى ان علم المنهج في طريق التكوين ، وان هذا العلم قد اصبح يفرض نفسه . ونحن بالتأكيد لم نستوف الموضوع . لكن رفض تطوير المنهج هكذا ، بطريقة مسبقة ، وبازدراء شديد ، يعني ضعف الروح العلمية ، بل رفض العلم نفسه الذي يعتبر مرادفا للتطور .

ننتقل الآن الى النظرية او تفسير الظواهر . ان الفرض يولد من الحدس، او من الاستدلال (في الكثير الغالب ، من المقارنة) ويتم صقله بالمنطق والرياضيات . فلنتحدث عن هذين الجانبين من حيث صلتهما بموضوعنا.

ان كل باحث يعلم ان المنطق الرمزي ، عبارة عن ثروة هائلة أضيفت للمنطق الكلاسيكي . وترجع هذه الثروة بصفة خاصة الى مفهوم المجموع والى حساب القضايا ، الذي تم استيحاؤه من الرياضيات .

ويظل هناك مجال كبير للتطوير ، في دراسة الاستقراء الذي هو اساس التعميم العلمي ، وصياغة الفرض في شكل منطقي وشامل .

لقد تمت أعمال هامة حول الموضوع الاول ، أما الدراسة الخاصة بالفرض، فمازالت غير كافية . .

ومن ناحية اخرى فان كلا من نظرية المجموعات المتعادلة ، ونظرية النماذج قد بدات تدرس في جوانبها المنطقية والرياضية . واصبح اليوم من الصعب الفصل بين المنطق الرمزي والرياضيات .

وكما لاحظ بريتوايت ان كثيرا من العلماء كان لهم الحظ في انهم وجدوا الرياضيات التي يحتاجون اليها . . جاهزة بالفعل . فنحن نجد اينشتين يستخدم عام ١٩١٦ هندسة ريمان (١٨٥٤) وكميات ريكس (١٨٨٧) .

وفي السنوات ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ ، تمت دراسة التعدد غير المتبادل المستخدم في الميكانيكا الكمية باستخدام سجلات كايلي (١٨٥٨) والمناهج العلمية في استخدام المعادلات التفاضلية بول ، (١٨٤٤) .

وعلى العكس من ذلك ، لم يكن لدى علماء الحياة المحدثين مثل هـذه الثروة . لذلك كان عليهم ان يقوموا بأنفسهم ، في اغلب الاحيان ، بوضع « المناهج الاحصائية » .

وكما يقول ج دارموا : « لقد كان الرياضيون ، في دورهم العريق ، من الادوات الرئيسية للبشر في وضع نماذج فعالة للعالم ، ويجب الاعتراف ان البشر قد نجحوا بفضلهم في ان يتمثلوا ، بأمانة بالغة ، جوانب واسعة من الحقيقة » .

وان يبقى هناك مجال لتطوير الرسم البياني ، دعامة الفكر ، للانتقال منه الى المعادلة ، ومن المعادلة الى النظرية . وتستحق دراسة نظرية الاحتمالات ونظرية الظواهر المعقدة جهدا كبيرا . كما ان الاستخدامات المتفرعة جدا لنظرية المجموعات ، وحساب التوترات ، ما زالت في حاجة الى تطوير ضروري . وبدلا من الاقتناع بالوقوف عند حد ما ، فانه ينبغي النظر الى تطبيق الرياضيات على العلم انه منعطف هام في التاريخ العلمي ، يبعث في نفوس العلماء الامل في ان مستقبله سيكون اكثر خصوبة من ماضيه .

وعلى الباحث العلمي ان يتابع نظرية المعلومات ، ذلك الفرع الحديث جدا ، والذي بدأ يفرض نفسه ، خاصة وانه يستخدم علم التوجيه الذاتي : La Cybernétique .

نصل الآن الى مفهوم التصنيف العام ، الذي اصبح من الصعب تحقيقه بسبب تعدد الفروع الخاصة ، وقد طبقت في هذا المجال عملية التوثيق الديناميكي الذي يعتمد فيها الباحث ، دون انقطاع ، على خدمة الوثائق . ولابد من الذهاب الى ابعد من ذلك ، نتيجة التكدس الرهيب للمعطيات العلمية ، بالاستعانة بالآلات ، وهنا ايضا مجال واسع للتطوير ..

ويقودنا هذا الى علم التوجيه الذاتي La Cybernétique ، التي ستسمح ، في يوم ما ، لاكثر من ثلثي المعطيات والحسابات الرقمية السريعة جدا ، بالاعداد الآلي لنظريات تعتبر غاية في التعقيد والصعوبة بالنسبة الى عقولنا الانسانية .

وهكذا جاء العلم لنجدة نفسه ! فانتج ذلك المخلوق الشنيع ، وهو الآلة

المفكرة . وهنا مجال هام للتطوير .. فقد اصبح على الباحث العلمي حاليا ان يعد نفسه لكي يستخدم الآلة المفكرة في استيعاب محتوى مقالة او كتاب ، بدلا من قراءته ! نعم ، يجب ان يعد نفسه فعلا لمثل هذا العمل .

وتقودنا دراسة العلاقات بين العلوم المختلفة والتعميمات ، مثل فكرة الهندسة ، الى « فلسفة العلوم » ، والتي اصبحت هي الاخرى ضرورية . ويمكن تتبع الجهود التي بذلها العلماء والفلاسفة لوضع المفاهيم وتحديدها، ولتعميم التطورات الجديدة والتنبؤ بها . لقد كان لفلسفة العلوم صداها، في اكثر من مرة ، على التجربة . وتعتبر نظرية النسبية مثالا على ذلك .

ومن المؤكد ان المستقبل اكثر خصوبة من الماضي ، لان معظم العلماء قد بداوا يتخلون عن نظرة الاستخفاف التي يرون بها الفلسفة !

وهكذا يبدو لنا جيدا ، ان المنهج التجريبي ، دون ان يكون قد بلغ أوجه ، يعتبر في مرحلة الثورة . وتكاد الظاهرة تصل في اهميتها الى تلك التي حطمت من قبل نير اساتذة عصر النهضة ! وعلينا ان ندرك ان جهل هذا الواقع يضع صاحبه على نفس مستوى اسلافنا الذين ما زلنا نعيب عليهم انغماسهم في ظلام العصور الوسطى .

ينبغي اذن على الباحث العلمي المعاصر ان يهتم بمناهج البحث ، والرياضيات ، والمنطق الرمزي والسيبرنيتك وفلسفة العلوم .

وهناك ايضا مشكلة هامة اصبحت تفرض نفسها بطريقة حادة ، وهي تكوين نخبة جديدة من الباحثين في هذه الفروع المختلفة ، وفي نفس الوقت ، اعداد رجال التركيب La Synthése ، الذين يضمنون توازن هذا المجموع الشاسع من فروع المعرفة العلمية .

وهكذا يرتبط في النهاية مستقبل العلم بالمشكلة الانسانية ، وذلك منطقي للغاية ، حيث ان العلم من اختراع البشر ، الذين نجحوا في ان يجعلوا « ممكنا » ، والسبب : هو ان الطبيعة ، لحسن الحظ ، تسمح لهم ان يتنبؤوا بها .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

ماذا قالت العصافير

تاليف : فيصل الحجلي

■ ■ ■

الحياة السياسية واهم مظاهر الحضـــارة في بلاد الشـــام

تاليف : الدكتورة امينة بيطار

■ ■ ■

للحرب ايضا وقت

قراءات ادبية

تاليف : محمد عمران

بمناسبة اليوم العالمي لمحو الامية - ٨ ايلول -

رحلة قصيرة في عالم محو الأمية

سميح عيسى

تنفيذا لقرار المؤتمر العام لمنظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة في تشرين الثاني عام ١٩٦٦ المتضمن اعتبار يوم ٨ ايلول ((يوم انعقاد المؤتمر الدولي لوزرة التربية والتعليم عام ١٩٦٥ تحت شعار محو الامية)) من كل عام يوما عالميا لمحو الامية ..
تولي منظمة اليونسكو جانب محو الامية ومشكلات التنمية والتقدم - سنويا - ما يستحقه من اهتمام ... وتقدم من مساعداتها ومعوناتها الفنية والمادية ، ومن دراساتها وبحوثها وتجاربها ما يمكن الدول الاعضاء في هذه المنظمة من العمل في طريق محو الامية كما تدعو باسم الحق والخير والعدالة والتضامن ، الدول المتقدمة والمنظمات والمؤسسات الدولية لتقديم كل عون مادي وفني وادبي للدول النامية المناضلة ضد الامية . !!

وتذكر هذه الدول من جهة اخرى بأهمية بذل المزيد من الجهود ، وحشد الامكانات المتنوعة واستصدار التشريعات والقرارات اللازمة للقضاء على الامية خلال فترة زمنية محددة ... !! نظرا لكون مشكلة الامية من اخطر مشكلات التقدم الاقتصادي والاجتماعي بل الحضاري حيث يتعرض لها ثلاثة ارباع الجنس البشري في عصر العلم والنور والمعرفة والتقدم التكنولوجي الهائل .

وقد يكون من المناسب الان ... والذكرى الخامسة عشرة لليوم العالمي لمحو الامية تدق ابوابها بقوة وعنف لتهز جميع المعنيين العاملين في ميدان محو الامية « تخطيطا وتنظيما وتنفيذا ومتابعة . » ان نقف امام خارطتين همـــا :

● **خارطة الامية في سورية ..**

نقرأ الارقام والبيانات ، ونتعرف على حجم المشكلة ، وعلى الاسباب التي حالت وماتزال دون القضاء على الامية او الحد من تعاظمها ومشكلاتها رغم صدور القانون رقم ٧ « الناظم لعمليات محو الامية في سورية .. والذي اكد على انهاء الامية خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٧٢ ولغاية عام ١٩٧٨ » .

● **خارطة محو الامية في كوبا ..**

حيث نتعرف على أهم الظروف والنواحي الايجابية التي ساهمت مساهمة كبيرة في انجاح حملة محو الامية في فترة زمنية محددة ، امتدت من شهر ايلول عام ١٩٦٠ ولغاية كانون الاول عام ١٩٦١ .. !!

* * *

١ – خارطة الامية في سورية

حجم الامية :

اولا ــ حجم الامية حسب فئات السن والجنس :

مما لاشك فيه ان صورة الامية لا تتضح معالمها الرئيسية الا اذا توفرت التوزيعات المختلفة للاميين حسب الخصائص السكانية .. مثل توزيعاتهم حسب السن والجنس او الانشطة الاقتصادية او الحالة التعليمية والمهنية

ويلاحظ من قراءة البيانات الاحصائية الواضحة في المجموعات الاحصائية المتنوعة الصادرة عن المكتب لمركزي للاحصاء بدمشق في السبعينات ما يلي : ـ

١ ـ بلغ عدد سكان القطر الذين عمرهم عشر سنوات فاكثر ما يلي :

ـ في عام ١٩٦٠ .. « ٢٨٣٣٤٥٧ » منهم ١٤٢٤٨٨٢ ذكورا ١٣٩٨٥٧٥ اناثا

ـ في عام ١٩٧٠ .. « ٣٨٩٨٩٩٨ » منهم ١٩٨٧١٠٩ ذكورا و ١٩١١٨٨٩ اناثا .

٢ ـ بلغ عدد الاميين الذين عمرهم عشر سنوات فاكثر :

ـ في ايلول عام ١٩٦٠ ـ « ١٨٩٥٦٦٤ » منهم ٧٠٩٣٧٤ ذكورا ١١٨٦٢٩٠ اناثا .

ـ وفي ايلول عام ١٩٧٠ « ٢١١٢٣٨٨ » منهم ٦٩٥٣٢٩ ذكورا و ١٤١٧٠٥٩ اناثا .

ـ وحسب تقديرات ايلول ١٩٧٦ ـ « ٢٠٧٦٤٨٤ » منهم ٦١٤٩٨٥ ذكورا و ١٤٦١٤٩٩ اناثا .

... من الوهلة الاولى يتبين ان عدد الاميين في ازدياد ، وهذه الزيادة تعود لاسباب كثيرة من اهمها :

١ ـ زيادة عدد السكان .

٢ ـ زيادة عدد الاطفال الذين لا تستوعبهم المدارس الابتدائية نتيجة عدم تطبيق قانون التعليم الالزامي بشكل فعال .

٣ ـ ارتفاع معدلات التسرب في صفوف المرحلة الابتدائية قبل اتقان مبادىء ومهارات القراءة والكتابة والحساب .

٤ ـ الافتقار الى خطة علمية موضوعية مبرمجة لمحو الامية تكفل القضاء على الامية خلال فترة زمنية محددة .

.. واذا ما اعتبرنا عام ١٩٦٠ اساسا لكل من السكان والاميين الذين عمرهم عشر سنوات فاكثر نجد ما يلي :

ـ بلغ متوسط زيادة السكان السنوي في عام ١٩٧٠ : ـ الذكور ٣ر٩٪ والاناث ٣ر٧٪ .

بينما كان هذا المتوسط بالنسبة للامبين ، الذكور ٢٪ والاناث ٩ر١٪ .

بلغ متوسط زيادة السكان السنوية في عام ١٩٧٦ ، الذكور ٤ر٥٪ .. والاناث ٠ر٥٪ .

بينما كان هذا المتوسط بالنسبة للاميين الذكور ٨٪ والاناث ٤ر١٪ .

.. واذا ما اعتبرنا عام ١٩٧٠ اساسا فنجد في عام ١٩٧٦ ان متوسط زيادة السكان السنوية كما يلي :

ـ الذكور ٧ر٥٪ والاناث ٣ر٥٪ .

بينما كان هذا المتوسط بالنسبة للاميين ، الذكور ٩ر١٪ والاناث ٥٪ .

مما سبق يتبين ان الزيادة في السكان في ازدياد مضطرد .. كما ان هذه الزيادة في الفترة من ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ هي اعلى منها في الفترة من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ وهي متقاربة لكل من الذكور والاناث .

اما الاميون فنلاحظ ان متوسط زيادتهم السنوية في الفترة من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ قد بلغت ١ر١٪ .. الا ان هذا المتوسط يصل الى ٩ر١٪ لدى الاناث بينما يهبط الى ٢٪ لدى الذكور .

اما في الفترة من ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ فنلاحظ هبوط المتوسط السنوي الى ٥ر٠٪ لدى الاناث بينما تابع هبوطه لدى الذكور الى ٩ر١٪ ..

ويتبين بالرجوع الى البيانات السابقة ايضا ان عدد الاميين قد قل من ٦٩٥٣٢٩ عام ١٩٧٠ الى ٦١٤٩٨٥ عام ١٩٧٦ .. بينما الزيادة لدى الاناث كانت طفيفة من ١٤١٧٠٥٩ عام ١٩٧٠ الى ١٤٦١٤٩٩ عام ١٩٧٦ .

٣ ـ والآن اذا نسبنا عدد الاميين الى عدد السكان في نفس مرحلة العمر (عشر سنوات فاكثر) نجد ان نسبة الامية العامة من مجموع السكان كما يلي :

ـ في عام ١٩٦٠ ـ ٩ر٦٦٪ « نسبة الاميين الذكور ٤ر٤٩٪ والاناث ٨ر٨٤٪ » .

ـ وفي عام ١٩٧٠ ـ ٢ر٥٤٪ « نسبة الاميين الذكور ٠ر٣٥٪ والاناث ١ر٧٤٪ » .

ـ وحسب تقديرات ١٩٧٦ . ٤٠٪ « نسبة الاميين الذكور ١ر٢٣٪ والاناث ٥٨٪ » .

.. ومما سبق يتبين ان نسبة الامية قد هبطت خلال الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ لجميع السكان ٧ر١٢٪ بمتوسط سنوي مقداره ٣ر١٪ بينما بلغ هذا الهبوط ٢ر١٤٪ خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ بمتوسط سنوي مقداره ٤ر٢٪ .

وبالطبع فان هبوط نسبة الامية بشكل عام في القطر من ٩ر٦٦٪ عام ١٩٦٠ الى ٢ر٥٤٪ والى ٤٠٪ عام ١٩٧٦ يعود الى اسباب متعددة من اهمها التالي :

أ ـ انتشار الوعي بين المواطنين بمختلف فئاتهم والسعي المستمر وراء التعلم والعمل .

ب ـ ارتفاع نسبة الوفيات في بعض فئات السن العالية التي تنتشر فيها الامية بشكل ملحوظ .. وارتفاع نسبة الهجرة الخارجية خاصة بين العمال الذين يرجح ان اكثرهم اميون .

« ومن الحقائق المعروفة ان نسبة الامية تنخفض كلما كانت الفئة المدروسة من عمر اصغر والعكس صحيح ايضا » .

جـ ـ الجهود المتنوعة المتواضعة المبذولة في ميدان محو الامية من قبل كافة الجهات الرسمية والشعبية قبل وبعد نفاذ القانون رقم ٧ لعام ١٩٧٢ ..

د ـ الازدياد المستمر في نسبة من يقبلون في المدارس الابتدائية ممن هم في سن التعليم الالزامي ، والتوسع في عدد المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية والمهنية والفنية وفي عدد رياض الاطفال ايضا .

ـ وتشير البيانات الرسمية في هذا المجال الى ان اعداد الشعب والمعلمين والطلاب في شتى المراحل التعليمية قد زادت بشكل كبير حيث ارتفع عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية في عام ١٩٧٦ الى ١٢٧٣٩٤٤ تلميذا بينما كان في عام ١٩٦٠ حوالي ٤٣٣٩٥٨ ـ وفي عام ١٩٧٠ حوالي ٨٤٥١٢٠ اي

بمعدل ٣ امثال عن عام ١٩٦٠ .. وكذلك طلاب المرحلتين الاعدادية والثانوية حيث بلغ ستة امثاله تقريبا .. اما المنتسبون لصفوف محو الامية فقد تضاعف عددهم حولي اربع مرات .. حيث كان عددالمنتسبين « ٢٨١٥ » عام ١٩٦٠ .. وفي عام ١٩٧٦ بلغ العدد حوالي ١١٦٦٥ منتسبا ـ ومن الجدير بالذكر ان متوسط نسبة الزيادة السنوية لوزانة التعليم في القطر قد بلغت ٢٦٪ في الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ وارتفعت الى ٦٨٪ في المرحلة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٦ .

وكل هذا بالطبع يدل على الجهود المبذولة من قبل الدولة في القطر في مجال التعليم وخاصة في المرحلة الابتدائية مما يساهم ولا شك في هبوط نسبة الامية العامة بشكل طبيعي .

ثانيا ـ توزع الامية حسب الانشطة الاقتصادية والمهنية والعلمية والجنس :

من المعروف ان الزراعة هي المهنة الرئيسية للسكان في القطر .. ويشتغل بها اكثر من نصف اعداد السكان .

ولكن ما ان عبر القطر بوابة السبعينات حتى اقبل على مرحلة تحول كبير في الانشطة الاقتصادية والمهنية والعلمية ـ كما ونوعا ـ .

فقد عمد القطر التركيز على مشروعات الخدمات الاجتماعية الى جانب تطوير وتنمية القطاع الزراعي وفق اسس وقواعد وخطط علمية ومدروسة .. كما وجه عناية كبيرة الى القطاع الصناعي متمثلة في دعم وتطوير الصناعات التقليدية والحرفية والتحويلية واستحداث صناعات جديدة.

كل هذا وذاك يتطلبان قوى عاملة متنوعة الخبرات والمهارات والمستويات ونظرا لان الامية ما تزال تشكل نسبة عالية في القطر وتعشش في صفوف العمال والفلاحين اكثر من غيرهم .. فمن الطبيعي جدا ان يكون هناك اعداد كبيرة من الاميين في القوى البشرية العاملة في الانشطة الاقتصادية السالفة الذكر .. وبالتالي فان نسبة الامية تختلف وتتنوع باختلاف الانشطة وتنوعها ..!!

والبيانات التالية توضح حقيقة كل ذلك : ـ

● بلــغ عــدد العاملين عــام ١٩٦٠ في الانشطة الاقتصادية المتنوعة « ٨٩٥٢٠٣ » ذكور ، منهم ٤٥٤٧٢٠ اميا .. و ٨٧٢٥٧ اناثا منهــن ٦٨٢٨٥ امية .

اما في عام ١٩٧٠ فقد كان عدد العاملين ١٣٠٦٦٧٩ ذكور منهم ٥٩٣٤١٢ اميا و ١٥٧٠٠٥ اناث منهن ١٢٤٣٥٤ امية .

● بلغ عدد العاملين عام ١٩٦٠ في المهن المختلفة « المهنيون والفنيون + المشتغلون بالاعمال الكتابية + المشتغلون بالبيع والشراء .. الخ » — ٨٨٢٨٧٠ ذكورا منهم ٤٩٣٧١٤ اميا .. و ٧٠٨٠٤ اناثا منهن ٥٧٢٠٨ اميـــــة .

امـا في عـام ١٩٧٠ فقد كان عدد العاملين في المهن المختلفة ١٣٠٩٣١٧ ذكورا منهم ٥٩٤٦٨٨ اميا .. و ١٥٧٠٧٣ اناثا منهن ١٢٤٣٧٠ امية .

● بلغ عدد السكان العاملين عام ١٩٦٠ حسب الحالة العملية ٨٩٣٦٢٨ ذكورا منهم ٤٦٣٣٧٨ اميا و ٨٨٧٧٩ اناثا منهن ٦٩٤٣١ امية .

اما في عام ١٩٧٠ فقد كان عدد السكان العاملين ١٣١٠٠٥٢ ذكورا منهم ٥٩٤٩٤١ اميا .. و ١٥٧٠٨٦ اناثا منهن ١٢٤٤١١ امية .

● اما بالنسبة للنسب المئوية للاميين حسب الحالات الثلاث السابقة. بتقسيم عدد الاميين على عدد السكان في كل منها ولكل من الذكور والاناث تكون النسب المئوية كما يلي :

— بلغت نسبة الامية حسب الانشطة الاقتصادية بين الذكور ٤ر٥٤٪ عام ١٩٧٠ مقابل ٩ر٥٢٪ عام ١٩٦٠ .. وبين الاناث ٢ر٧٩٪ مقابل ٢ر٧٨٪ .

— بلغت نسبة الامية حسب اقسام المهن المختلفة بين الذكور ٤ر٤٥٪ عام ١٩٧٠ مقابل ٩ر٥٥٪ عام ١٩٦٠ .. وبـين الاناث ٢ر٧٩٪ مقابل ٨ر٨٠٪ .

— بلغت نسبة الامية حسب الحالة العملية بين الذكور ٤ر٤٥٪ عام ١٩٧٠ مقابل ٩ر٥١٪ عام ١٩٦٠ .. وبين الاناث ٢ر٧٩٪ مقابل ٢ر٧٨٪ .

... ويلاحظ من البيانات السالفة الذكر .. ان نسبة الامية لدى الذكور

حسب النشاط الاقتصادي هبطت مابين ٦و١٠٪ .. بينما ظلت شبه ثابتة لدى الاناث او اكثر قليلا .

اما نسبة الامية لدى الذكور حسب المهن فقد هبطت ايضا .. بينما لم تنخفض لدى الاناث الا قليلا جدا .

كما ان نسبة الامية لدى الذكور حسب الحالة العملية قد هبطت من ٥١ر٩٪ عام ١٩٦٠ الى ٤٥ر٤٪ عام ١٩٧٠ . بينما ارتفعت لدى الاناث من ٧٨ر٢٪ عام ١٩٦٠ الى ٧٩ر٢٪ عام ١٩٧٠ .

ولعل ارتفاع نسبة الامية لدى الاناث على هذا النحو يعود الى اسباب متعددة من اهمها ما يلي :

ـ اسباب اقتصادية .. حيث يترك الاناث الدراسة في سن مبكرة للعمل وخاصة في الريف .

ـ الظروف الاجتماعية والمعيشية الصعبة .. وسيطرة بعض التقاليد والعادات القديمة التي فرضت افضلية التعليم للذكور والاستغناء مرحليا او كليا عن تعليم الاناث .

ـ الزواج المبكر وعدم التفرغ للدراسة خاصة في الريف .

ـ عدم وجود حافز للتخلص من الامية .

ـ عدم انتشار صفوف محو الامية على نطاق واسع بين الاناث وفي المناطق التي تشكل فيها الامية نسبة عالية بينهن .

ـ عدم ربط التعليم بالعمل .. بالاضافة الى عدم دخول المراة قوة العمل على نطاق واسع .

ثالثا ـ حجم الامية حسب المحافظات :

تتفاوت معدلات الامية حسب المحافظات ايضا سواء من حيث العدد المطلق للاميين او نسبة الامية .

فبينما تنخفض الى اقل معدلاتها في مدينة دمشق حيث تصل الى ٢٨ر٤٦٪ عام ١٩٧٠ نجدها ترتفع في بعض المحافظات ذات الطابع الريفي الزراعي فتصل في محافظة الرقة الى ٧٥ر٩٣٪ .

وفيما يلي ترتيب المحافظات حسب نسب الامية فيها عام ١٩٧٠ :

ـ مدينة دمشق ٢٨ر٤٦٪ ـ طرطوس ٤٦ر٧٨٪ ـ السويداء ٤٦ر٩٠٪ ـ حمص ٤٦ر٩١٪ ـ اللاذقية ٤٧ر٣٧٪ ـ دمشق ٤٩ر٢٦٪ ـ حماة ٥٥ر٥٤٪ ـ درعا ٥٩ر٧٨٪ ـ حلب ٦٠ر٩٢٪ ـ ادلب ٦٢ر٤٧٪ ـ دير الزور ٦٨ر٧٤٪ ـ القنيطرة ٧٠ر٣٧٪ ـ الحسكة ٧٣ر٤٦٪ ـ الرقة ٧٥ر٩٣٪ ـ .

.. كما تختلف المحافظات فيما بينها من حيث توزيع الاميين على قطاعات النشاط الاقتصادي المختلفة .

ففي مدينة دمشق على سبيل المثال ـ تبلغ اعداد الاميين العاملين في قطاع الزراعة ٣٧٦٠ أميا ـ وفي قطاع الصناعة ١١٨١١ اميا وفي قطاع التجارة ٨١٤٦ اميا وفي قطاع الخدمات ٨٩٨٩ اميا .

واذا قارنا هذه الاعداد بمثيلاتها في محافظة دير الزور نجد التالي :

في قطاع الزراعة ٣٨٧٢٦ اميا ـ وفي قطاع الصناعة ١٣٠٨ وفي قطاع التجارة ١٦١٠ وفي قطاع الخدمات ١٦٠٥ .

وبطبيعة الحال فان هذا الخلاف بين المحافظات في توزيع الاميين على قطاعات النشاط فيها انما يعكس عوامل عديدة لعل أهمها اختلاف المحافظات فيما بينها من حيث توزيع القوى العاملة على قطاعات النشاط الاقتصادي المختلفة .. ووجود محافظات نامية ومحافظات اكثر نموا وتقدما .. بالاضافة الى امتصاص وامتلاك المدن الرئيسية لجميع الحوافز والامكانات المادية والفنية المشجعة على التعلم والتطور على حساب المدن الثانوية وعلى حساب الريف ..

● ● ●

وخلاصة القول بالاستناد الى كل ما سبق .. ان خارطة الامية في سورية، قاتمة مظلمة .. وخطيرة حيث مشكلة الامية ببياناتها وابعادها والوانها تؤكد على أنها مشكلة الاغلبية العظمى من السكان وانها منتشرة بين جميع

فئات العمر من الجنسين في الريف والمدينة وتعشش في القطاعات الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة بشكل كبير الى درجة مخيفة حيث تلعب دورا كبيرا وتؤثر تأثيرا واضحا وسلبيا على عمليات البناء والتنمية والتطور في مختلف الميادين .

ان تحقيق محو الامية ــ رسميا وشعبيا ــ لم يتوفر له في الواقع منذ الاستقلال وحتى تاريخه الا النيات الطيبة والرغبات الخيرة ، والامكانات المادية والفنية المحددة والخطط والقرارات والتعليمات القاصرة البعيدة عن مستوى حجم المشكلة وابعادها ، والاجهزة الادارية والفنية التقليدية **وهي وحدها لا تكفي لمعالجة مشكلة تعتبر بالدرجة الاولى مشكلة قومية بالغة الخطورة .. ومن مسؤولية المجتمع ككل بكل فئاته وتنظيماته الرسمية والشعبية . ولذلك كان تحقيق اهدافها لا يقتصر على إلقاء مسؤولية العمل** على عاتق وزارة الثقافة والارشاد القومي **او على مديرية فيها ــ كمديرية** محو الامية **التي لا تضم** اكثر من ٥ **عناصر يعملون كمجموعة عمل** واحدة في مختلف المجالات وعلى **جميع الاصعدة ــ تخطيطا وتنفيذا** ومتابعة وتقويما ــ !! او على ما يبذله المشرع او المخطط او المشرف ، او المعلم ، كل على حده في ظل وجود ادارات تقليدية شكلية لمحو الامية ..!! وإنما يعتمد بالدرجة الاولى على قرار سياسي يضمن انهاء المشكلة في فترة زمنية محددة ويكون شكلا ومضمونا في مستوى حجم المشكلة وابعادها بغية انهاء جميع الاشكال والطرق والاساليب التقليدية التي تضع محو الامية في موقع هامشي ثانوي من سياسة القطر التعليمية التربوية .

كما يعتمد بالدرجة الثانية على تطوير وتعديل القانون رقم ٧ او استصدار تشريع جديد يجسد المنطلقات والتصورات والطموحات الجديدة.. وعلى تطوير الاجهزة والهيئات ، والتنظيمات الفنية والادارية والقيادية الحالية وتكوين المجالس واللجان والاجهزة القيادية المركزية والفرعية القادرة على الالزام والالتزام بالقرار السياسي .. واخيرا يعتمد على سد المتابع الاساسية لمشكلة الامية ــ « تطبيق التعليم الالزامي على جميع الاطفال الذين هم في سن الالزام » ــ ..

والآن ربما يسأل سائل ويقول :

ـ اين كان القانون رقم ٧ الصادر عام ١٩٧٢ والذي حدد الفترة الزمنية اللازمة لتحرير المواطنين الاميين كافة بمدة ٦ سنوات ؟

ـ وهل صحيح ان كل ما جرى في تلك السنوات الست، ما كان سوى نوع من التنظيم والترتيب ووعي اكبر بابعاد المشكلة . اما التطبيق العملي فظل في اضيق الحدود . ؟! .

ـ هل كانت جميع عمليات محو الامية في سنوات نفاذ القانون مضطربة وقاصرة وتدور في فلك العمليات التي سبقت صدوره .. ؟!

ـ ثم اين كان المجلس الاعلى لمحو الامية .. الذي يعتبر بحكم القانون رقم ٧ ، السلطة العليا المسؤولة رسميا عن تحقيق مهمة محو الامية من خلال اقرار الخطط ومتابعة تنفيذها وتقويمها واتخاذ القرارات الكفيلة بتجاوز الصعوبات والمشكلات الميدانية وغيرها ؟!

ان المتتبع لحركة محو الامية في القطر في سنوات نفاذ القانون يرى بكل وضوح الجواب تلو الجواب على مجموعة التساؤلات السابقة ، حيث ظلت مشكلة الامية قائمة تراوح في مكانها والتخبط على الحل .. وان دل هذا على شيء فانما يدل على النظرة الهامشية لحركة محو الامية .. وعدم الارتقاء بها الى الموقع المطلوب وربما كانت اجتماعات المجلس الاعلى لمحو الامية غير المنظمة والمتقطعة خير دليل على ذلك اضافة الى محصلة السنوات الطويلة التي تعتبر ضيقة ومحدودة .. ودائما لغة الارقام تعطي الدليل على هذا وذاك .. وتشير الى ضخامة المشكلة وابعادها الخطيرة .. وعلى سبيل المثال :

يمضي عام ١٩٧٤ ولا يعقد المجلس الاعلى اي اجتماع !!

وفي عام ١٩٧٥ يتخذ المجلس قرارا بمحو امية العاملين في القطاع الصناعي والخدمات ومنطقة الغاب ، كما جاء في خطة عام ٧٢ ـ ١٩٧٣ تماما الى جانب سد بعض الثغرات البسيطة :

غير ان عام ١٩٧٦ يمضي بكامله دون ان يعقد المجلس اي اجتماع

لتتبع تنفيذ قراراته ولايتحقق من خطة عام ١٩٧٥ الا النذر القليل !!

وعندها لانستغرب اذا عقد المجلس احتماعا في عام ١٩٧٧ والقانون على أبواب الانتهاء في محاولة لاقرار خطة عمل جديدة واتخاذ مجموعة من القرارات المتعددة قد لاتكون مناقضة تماما لمواد القانون والنظم والقرارات السابقة .

وبعد ، اذا عرفنا انه لم يتحرر من الاميين المشمولين بخطة عام ٧٢ — ٧٣ وعام ٧٤ — ٧٥ اكثر من ١٠ ٪ . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان عام ١٩٧٥ ، شهد افتتاح ٣٨ صفا توزعت في كافة محافظات القطر وضمت ١٠٩٨١ دارسا ودارسة ، واذا ادركنا ان نسبة لا تزيد عن ٤٠ — ٥٠ ٪ كانت حصيلة المتحررين من الامية فيها .. وان تلك الصفوف لم تفط القطاعات المعنية بخطة عام ١٩٧٥ — او عام ١٩٧٦ — ١٩٧٧ الا بصورة جزئية .

فاننا نستنتج ايضا مجموعة من الاسباب التي حالت دون تنفيذ الهدف الكبير — القضاء على الامية — ومن اهمها :

١ — **ان القانون** كان في واد والتطبيق في واد اخر ..

القانون — بلا شك — انجاز هام ولكن يبقى دون فائدة عملية اذا لم يتيسر له الجو الملائم والظروف الموضوعية ليصبح في حيز التطبيق الفعلي .. فما بالنا اذ ظلت الكوادر والاساليب والطرق والوسائل كما هي قبل صدوره..

ولم تتكون الاجهزة القيادية والفنية والادارية — مركزيا ومحليا في جميع المحافظات — اللازمة لقيادة عمليات محو الامية .. وظل العمل محصورا بالمجلس الاعلى — باجتماعاته المضطربة وقراراته العادية — وبمديرية محو الامية المتواضعة المحدودة وببعض العناصر المتفرغة في قيادة المنظمات الشعبية والاتحادات .

٢ — عدم تحقيق المبدا الذي يؤكد على ان حركة محو الامية ، عملية سياسية تربوية ، تعليمية ، اجتماعية ، اقتصادية .. وقومية ، ومن الضروري قيادتها من قبل التنظيم السياسي القائد في القطر من خلال خطة متكاملة شاملة تسهم في تنظيمها وتنفيذها ومتابعتها جميع الجهات

الرسمية والشعبية في اطار خطة تنسيق كاملة وموضوعية خلال فترة زمنية محددة ..

والآن .. فان الحديث عن تجربة كبيرة وفتية وغنية كتجربة كوبا في محو الامية يلقي المزيد من الاضواء على مجموعة الحقائق السالفة الذكر بشأن العوامل المساعدة لانهاء مشكلة الامية ..!!

* * *

٢ – خارطة محو الامية في كوبا

مما لاشك فيه .. ان انتصار الثورة الكوبية في الاول من كانون الثاني عام ١٩٥٩ لم يكن فقط نهاية الدكتاتورية في كوبا – بل كان يعني ايضـا نهاية خمسين عاما من التبعية للاستعمار الامريكي والتخلف .. تلـك التبعية التي شوهت البناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي لكوبـــا .

لذلك كان التحرر من السيطرة الامبريالية يعني الشرط الرئيسي لبداية الصراع ضد التخلف خاصة في عصر تطورت فيه العلوم والتكنولوجيا . وجعلت المسافة بين البلدان المتقدمة والمتخلفة بعيدة بصورة مستمرة . من اجل ذلك ارتبط الكفاح في كوبا من اجل السيادة والتقدم والتحرر بالكفاح ضد التخلف الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والتكنيكي وضد الاميـــــة .

فمنذ لحظة الاستيلاء على السلطة شرعت الحكومة الثورية بقيـــادة (كاسترو) في مواجهة التخلف وكانت اول خطوة على الطريق (صدور قانون الاصلاح الزراعي) الذي اصبح بفضله صغار الفلاحين ملاكـــا للارض التي يفلحونها بينما ذهبت الاراضي الشاسعة غير المستثمرة تماما (والتي كانت بحوزة الشركات الاجنبية) الى الحكومة للاستفادة منهـا للاغراض العامة ...

ثم توالت القوانين الهادفة لتنظيم الاقتصاد والمجتمع في كافة المجالات ومنها

مجال التربية والثقافة والعلوم الذي كانت تحكمه الانظمة والقرارات والقوانين التقليدية البالية ...

وأول الاجراءات التي اتخذت من جانب الحكومة الثورية لتطوير نظام التعليم في البلاد ولسد نبع الامية كانت استصدار القوانين الجديدة الهادفة ـ وصياغة البرامج التعليمية بأسلوب ثوري وفعال ... ووضع القواعد والاسس السليمة لاستيعاب كافة الاطفال الذين هم في سن التعليم الابتدائي ... وعلى سبيل المثال :

كانت المدارس قبل الثورة تستوعب ٥٠٪ من الاطفال فقط ـ وكان يذهب الى المدارس ٤٠٠ الف طفل تقريبا ـ اما عدد الصفوف الموجودة فكانت ١٧ الف صف في حين كانت كوبا في حاجة الى ٣٥ الف صف ...

اما بعد الثورة فقد بلغ عدد التلاميذ (١٥٨ر٥٨٢) تلميذ في عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ بينما ارتفع هذا العدد الى « ١١٨ر٩٤٢ر١ » في عام ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ ...

اما في مجال محو امية الكبار فيمكن القول ان كافة التجارب التي قامت بها الجهات العاملة في ميدان محو الامية (رسمية وغير رسمية) قبل نجاح الثورة تعتبر فاشلة ومحدودة ...

وان العمل الجاد والفعال في ميدان محو الامية لم يبدأ الا في عام ١٩٦٠ عندما أعلن الرئيس الكوبي / كاسترو / للعالم اجمع في حديثه امام الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة في ٢٦ ايلول عام ١٩٦٠ « ان الامية ستزول نهائيا عن كوبا في نهاية عام ١٩٦١ » ...

وبالفعل بدأ العمل التحضيري لحملة محو الامية في كوبا مباشرة بعد اعلان الرئيس كاسترو بينما بدأت رسميا في الاول من كانون الثاني ولغاية ٢٢ كانون أول ١٩٦١ (عام محو الامية) .

ويمكن تقسيم سير الحملة الى اربع مراحل زمنية :

١ ـ مرحلة تحضيرية : من ايلول ١٩٦٠ وحتى الاول من كانون الثاني ١٩٦١ ، واهم مانفذ فيها التالي :

ـ قامت وزارة التربية بالتعاون مع الوزارات الاخرى والجهات العاملة في ميدان محو الامية بدراسة حجم الامية في البلاد والتجارب السابقة ووضع الحلول والمقترحات والاساليب الثورية الفعالة لمواجهة المشكلة والقضاء عليها ...

ـ كونت لجنة لمحو الامية وللتربية الاساسية اتخذت اسم « اللجنة الوطنية لمحو الامية » وكانت برئاسة وزير التربية وقد تأسست من المنظمات السياسية والشعبية والرسمية .

« اتحاد العمال الكوبي ـ الجمعية الوطنية لصغار الفلاحين ـ الاتحاد النسائي الكوبي ـ منظمة الشباب الثوري ـ لجان الدفاع عن الثورة ـ اتحاد الطلاب .. الخ » .

وتفرعت اللجنة الى اربعة اقسام هي : ١ ـ القسم الفني ٢ ـ قسم الدعاية . ٣ ـ القسم المالي ٤ ـ قسم النشر . وكانت كلها تعمل تحت التوجيه الفني لوزارة التربية .

وخلال فترة زمنية محددة لم تتجاوز الاربعة شهور قامت اللجنة باقسامها ولجانها الفرعية المتخصصة بالتحضير والاعداد الكامل النهائي لحملة محو الامية على النحو التالي :

١ ـ اعداد الخطة العامة والخطط الفرعية المرحلية لحملة محو الامية .

٢ ـ اعداد الادوات والوسائل الرئيسية للحملة (ومنها تأليف وطباعة كتب جديدة لمحو الامية ملائمة لاهداف الحملة) .

٣ ـ اعداد البرامج والخطط لتنفيذ دورات تدريبية قصيرة للمعلمين (لمدة اسبوع فقط) عن اصول تدريس كتب محو الامية .. الخ ..

٤ ـ تنفيذ مئات الدورات التدريبية القصيرة في كافة مناطق كوبا لتدريب المعلمين المتفرغين والمتطوعين من الطلاب والعمال واعضاء المنظمات الشعبية والرسمية ...

٥ ـ طباعة عشرات الآلاف من الكتب لتغطية حاجات صفوف محو الامية خلال مراحل تنفيذ الحملة .

٦ ــ تحديد مقرات صفوف محو الامية وتجهيزها بالوسائل والادوات اللازمة لاستقبال افواج الاميين ...

٧ ــ استخدام الراديو والتلفزيون والصحافة في برنامج واسع لتوجيه المعلمين وامدادهم بالتعليمات المرحلية واليومية وبالتجارب والاسس العامة للحملة واعتبر سماع ومراقبة هـذا البرنامج الزاميا على كافـة العاملين في ميدان محو الامية ...!!

٨ ــ حصر كل الاميين وتجنيـد المعلمين عن طريق لجـان الاحصاء التي شكلت لهذا الغرض وانتشرت في كافة أرجاء كوبا ...

٩ ــ استخدام اجهزة الاتصال الجماهيري المتنوعة (الراديو ــ التلفزيون ــ الصحافة ــ الخ) وتنفيذ مئات الندوات والمحاضرات المتنوعة في عملية التوعية والاستعداد لبدء الحملة رسميا ...

وكان راديو هافانا بين لحظة واخرى وعلى مدار عام الحملة ١٩٦٠ ــ ١٩٦١ يحمـل النداءات للاميين بأن يتعلموا وللمتعلمـين ان يقوموا بالتدريس وسرعان ما اصبح شعار الحملة شعبيا « ... علّم ان كنت متعلما وتعلّم اذا كنت اميا ... » ... « الشعب يجب ان يعلم الشعب » ايمانا بالعهد الذي قطعه الرئيس كاسترو امام العالم أجمع ..

ب ــ المرحلة الاولى : من أول كانون الثاني **١٩٦١** ــ

وتعتبر هذه المرحلة البداية الرسمية لحملة محو الامية الكبرى وفيهـا نفذ التالي :

ــ تحديد اصناف المعلمين في ضوء مواقع عملهم واستنادا لخطة محو الامية وطبيعة المرحلة واهدافها ... :

١ ــ المعلمون الاصلاء المتفرغون .

٢ ــ المعلمون المتطوعون ــ وقد وضعوا تحت إمرة المعلمين الاصلاء على شكل مجموعات عمل وبلغ عددهم ٣٥ الفا من مجموعهم البالغ ٣٦ الفا .

٣ ــ المتعلمون (طلاب الدراسة الاعدادية والثانوية والجامعيـة) ... وقد كونوا فرقا متنقلة بإمرة معلميهم للاسهام بشكل فعال في حملة محو

الامية في المناطق الصعبة الوعرة بعد ان اغلقت المدارس والجامعات لهذا الغرض اعتبارا من منتصف شهر نيسان ولغاية نهاية عام ١٩٦١ ...

٤ ـ المتعلمون من العمال ـ وقد كونوا فرقا خاصة بهم برئاسة قادتهم النقابيين لتعليم الفلاحين بفرض خلق الروابط الحقيقية وتمتين اواصر المحبة والتعاون بين العمال والفلاحين ..!!

٥ ـ المعلمون الريفيون .. وقد اختيروا للتدريس في مناطق عملهم الاصلية ..

ولم تمض فترة بسيطة حتى انطلق المعلمون بفئاتهم المتنوعة وبتنظيماتهم العديدة على شكل (مجموعات عمل ـ فرق ـ مفارز .. الخ) الى تجمعات الاميين في الجبال والسهول والوديان .. والقرى النائية البعيدة ..

وخلال مدة لا تتجاوز ٤٥ يوما برزت النتائج الايجابية للحملة فقد ازداد عدد المعلمين الشعبيين يوما بعد يوم الى ان بلغ عددهم ١٢٠٦٣٢ معلما وازداد عدد المتحررين من الامية ازديادا ملحوظا ايضا ويمكن القول إنه قد تحقق في هذه المرحلة التنظيم الافقي للحملة بشكل عم فيه التعليم الشعب كله ...

جـ ـ **المرحلة الثانية** : في ضوء نتائج المرحلة الاولى واستنادا للاحصائيات الرسمية والتقارير الدقيقة ظهر ان العمل قد تحسن كثيرا في المناطق الريفية غير ان المدن كانت اكثر تقدما من الريف في مجال محو الامية .. حيث ظلت هناك اعداد كبيرة من الاميين في المناطق الوعرة .

ولانقاذ الموقف خرج نداء لطلاب المدارس والجامعات والعمال المتعلمين ولاعضاء المنظمات لينضموا الى الحملة على نطاق واسع ...

وتم الاعلان في الوقت نفسه عن اقامة مزيد من الدورات التدريبية القصيرة للمتطوعين ... بالاضافة الى تكوين لجان محو الامية على نطاق واسع في كافة المناطق والقرى ايضا ...

وخلال فترة لا تتجاوز ١٥ يوما تطوع الآلاف من الشباب والعمال والطلاب ... وبذلك امكن تكوين الفرق التالية للتعليم :

فرقة الشباب : وضمت ١٠٥٦٦٤ شابا وشابة حضروا الدورات التدريبية القصيرة لمدة أسبوع فقط ، واصبحوا مستعدين للعمل وللانطلاق الى صفوف محو الامية المنتشرة في المناطق الجبلية الوعرة ...

وقد كان سن المتطوعين منهم يتراوح بين ١٤ ــ ١٦ سنة ومنهم من كان يبلغ ١٨ سنة اما نسبتهم المئوية بالنسبة لمراحل الدراسة فهي :

٥٣٪ من المدارس الابتدائية ــ ٣٢٪ من المدارس الثانوية ٥٪ من المرحلة ما قبل الجامعية ــ ٢٪ من دور المعلمين ــ ٢٪ من مدرسة التجارة ــ ٢٪ من الجامعة ٢٪ من التعليم الابتدائي .

د ــ المرحلة الثالثة : وفيها تضاعفت النشاطات واصبح شعار المرحلة « مزيدا من ساعات العمل ــ مزيدا من المراقبة » ..

وقد اقيمت المعسكرات العديدة لتثبيت التعليم والمتابعة خوفا من ارتداد المتحررين الى الامية من جديد ..

وفي نهاية هذه المرحلة تمت تصفية جيوب الامية وقد جاء الدعم الفعال من الطبقة العاملة المتعلمة (من اعضاء المنظمات الشعبية والرسمية) ..

وفي ايلول ١٩٦١ انعقد مؤتمر محو الامية لتحليل نتائج الحملة ولاعداد البيانات الاحصائية والتقارير المطلوبة عن سير الحملة ...

وانتهت الحملة في الثاني والعشرين من كانون الاول ١٩٦١ بمظاهرة ضخمة تجمعت في (ميدان الثورة بهافانا) تحت قيادة الرئيس فيدل كاسترو ومعه قادة الثورة ورجال الحكومة وممثلو السلك الدبلوماسي ..

وارتفع العلم الذي يرمز الى حملة محو الامية عاليا وشاهقا يعلن للعالم اجمع ان كوبا هي اول بلدان امريكا اللاتينية التي تقضي على الامية .

وفي هــذه المناسبة تم تلاوة التقرير النهــائي عن الحملة امــام التجمع الجماهيري الكبير وقد جاء فيه :

إن عدد المتطوعين الذين ساهموا في الحملة بلغ ١٢١ الف معلم بينما كان عدد فصائل الطلاب ١٠٠ الف طالب ــ اما العمال الذين ساهموا في التعليم فقد بلغ عددهم ١٥٠ الف عامل متعلم ... وبلغ عدد المدرسين الاصلاء المتفرغين في حملة محو الامية ٣٥ الفا ..

وإن ٧٫٨ آلاف مواطن كوبي تخلصوا من اميتهم في اقل من عام . وهكذا هبطت نسبة الامية في كوبا من ٣٠٪ الى اقل من ٤٪ الامر الذي وضعها في مصاف الدول المتقدمة مثل الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا ... الخ .

ولعل من المفيد ان نتعرف اخيرا على بعض العوامل الايجابية التي ساعدت على نجاح الحملة :

١ ـ إن سر نجاح حملة محو الامية في كوبا كان في شيء بسيط جدا وبعيد عن كل طريقة تقنية .. وكان هذا السر في الاعمال المتسلسلة الفكرية والعاطفية والنفسية التي تنشأ بين انسان وانسان آخر اي على العلاقات الانسانية وعلى ايمان القادة والجماهير برسالة القضية واهدافها الكبيرة ...

٢ ـ لم تكن حملة محو الامية عملية تعليمية فحسب وانما كانت مهمة سياسية عظيمة وثورية هادفة .

٣ ـ التعاون الجماهيري الكبير (من خلال المشاركة الفعالة للمنظمات الشعبية والرسمية الخ) الذي نظم جميع المواطنين في كوبا خلال عام محو الامية ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ .

٤ ـ التزام الجماهير بتنفيذ عهد الزعيم كاسترو الذي قطعه على نفسه امام العالم اجمع ....

ويمكن اجمال الدروس الاساسية للتجربة الكوبية في مجال محو الامية في التالي :

ـ الاميةيمكن هزيمتها حينما يكون التعليم لكل الناس وحينما تشارك الجماهير بحماسة وروح عالية .

ـ إن الجماهير مستعدة لاحتضان حملات محو الامية والاستجابة لها اذا احست ان الصراع ضد الجهل هو جزء من الصراع ضد التخلف ..

ـ العاملون في مجال التخطيط والتعليم والمتابعة في ميدان محو الامية لا يمكنهم وحدهم انجاز محو الامية ما لم يتحدوا بالجماهير ويسهموا في حل قضاياها الاساسية .

واخيرا ... ترى متى تقف الجماهير العربية السورية في احدى الساحات العامة لتنظيم مسيرتهـا الكبرى إيذانا ببدء حملة محو الامية الثوريـة الموضوعية في ارجاء القطر ؟!...

المصادر :

- المجموعات الاحصائية لعام ٧١-٧٥-٧٧- (المكتب المركزي للاحصاء بدمشق) .
- منشورات الجهاز العربي لمحو الامية وتعليم الكبار + منشورات اليونسكو .
- كتاب « على طريق محو الامية » - تاليف سميح عيسى (منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي عام ١٩٧٩) .

* * *

رمزية الناقة
في
القصيدة الجاهلية

عدنان مكارم

مدخـل :

اصبح بمستطاع باحثي الشعر الجـاهلي ـ اليوم ـ دراسة هذا الشعر دراسة بنيويـة تؤكد ان القصيدة الجاهلية تتالف من وحدات جزئية متكاملة متماسكة تحمل معان باطنية تتفاعـل لتعطي المغزى الشمولي للقصيدة . فالولوج الى داخل القصيدة الجاهلية بمعزل عن التحليـل اللغوي وعلم النفس والظـرف التاريخي لخلقها يجعلنا لا نبصر من القصيدة سوى ابيات متفرقة تتضمن تشبيهات وصورا تبرز امامنا دون اي ربط تحتاني وشمولي لها ـ هذا من ناحية ـ اما الناحية الاخرى . فإنني ارى ان القصيدة الجاهلية تتحرك على مجال انسيابي ، بحيث تبدو نقطـة التحرك مندفعـة ومتقدمـة نحو التطـور التكاملي للقصيدة . وهنا يتحتم عليّ ان ابدي بعض الملاحظات حول راي مخالف للدكتور كمال ابو ديب فحواه :

« إن القصيدة الجاهلية لا تبدأ بطريقة القصة في القرن التاسع عشر مثلا من نقطة (آ) وهي نقطة بداية لتمر عبر (س) وهي نقطة الذروة ، ثم تترامى نحو حل للحركة الدروية في نقطة (ي) بل حركة القصيدة حركة إتساعية بالمعنى الذي تكون به الدوائر التي يخلقها سقوط حجر على سطح ماء بركة هادىء ـ حركة اتساعية نقطة التوتر . اي القوة المولدة هي مركز كل الدوائر الا أن الدوائر لا تقود في حركة واحدة تطورية من (آ) الى (س) ثم (ي) . . . »(١)

حتى يتم لي البرهنة على بطلان هذا الراي وإثبات أن القصيدة الجاهلية تؤلف نسقا متصاعدا تبدأ من (آ) البرهة الطللية . حيث يقدم الشاعر السكون المطلق المتولد عن القمع الحضاري للطبيعة ثم يصل الى (س) وبها تبدأ بوادر الحركية ويواكب ذلك لحظة الانتكاس الداخلي حين يتم التركيز على « الأنا » الشخصي المقموع من قبل القسر التاريخي والطبيعي على التواصل الجنسي الثابت مع المراة . ثم تبدأ النقطة (ي) حيث يتراكم رد الفعل المتولد عن التأثير الديالكتيكي لثلاث محمولات نفسية للشاعر ضمنها قصيدته . (قصد القحط والصرم وذوبان « الأنا » ضمن الـ «نحن» وفي هذه النقطة ـ أو قل النهاية ـ نتبين بوضوح الاندفاع النفسي للشاعر نحو إظهار الانتصار اللاشعوري للقصيدة .

وهنا لست أحملك على أن تصدق ما ذكرته لك ـ في الاسطر السالفة ـ فهذا موقف لا ارضاه لك ولا ارضاه لنفسي ولكن كل ما اطمح اليه أن تقف بمقربة مني عندما أستدعي الشهود ليقولوا ما شاؤوا في هذا الامر . ولعل امرأ القيس أهم واقرب شاعر يشهد هاهنا . لذا فسوف استدعيه ومعلقته محاولا البرهنة على ما ذهبت اليه :

تبدأ معلقة فتى كنده بمقدمة طللية حيث نطالع عبر الابيات الثمانية الاولى سيطرة السكون المتولد عن الدمار الحضاري للديار . فالارض خالية مسحوقة بالقحط واهلها رحلوا عنها وخلفوا في قلب الشاعر الحزن والذكرى والاسى . لذلك نرى روح الشاعر موزعة بين ذكريات الماضي المنصرم الذي

(١) انظر : د. كمال ابو ديب « نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي » مجلة المعرفة عدد / ١٩٦ / حزيران ـ ١٩٧٨ ـ .

خلفه رحيل الحبيبة . وبين الوجود الآني للشاعر المسلوب من قبل عـدم اتزان حياته المستقبلية بمقارنتها بالحيـاة الماضية ــ الذكرى ــ .

هذه السيطرة للسكون(٢) او الموت الوجودي للاشياء لم تكن سوى نتيجة لفقدان عناصر الحياة الاساسية من يد الجاهلي والتي هي :

١ ــ فقدان المراة (عامل التواجد والتواصل الانساني) الامر الذي من شأنه ان يفرض على الجاهلي اقامة علاقة من نوع ما بين الطبيعة والجنس وأبرز ملامح هذه العلاقة مشكلة القسر الطبيعي على العشق وما تفرضه المظاهر القانونية والتشريعية العفوية المفروضة من القبيلة على الفرد .

٢ ــ فقدان الارض (عامل العمران والاستقرار الحضاري) « كانت حياة الناس مرتبطة بالارض وكان هذا الارتباط يحكم علاقاتهم الاجتماعيـة ويوجهها الى حد بعيد ويصبغها بلونه الخاص من اللقاء والاجتماع الى الفرقة والقطيعة . . »(٣)

٣ ــ فقدان المطر (عامل الخصب والتواجد والتواصل) لذلك كان المطر في الشعر الجاهلي بهذه الصورة الكشفة لانه حاجة شعورية لحياة الجاهلي، فليس من قبيل المصادفة أن يوظف الاعشى ثمانية أبيات من معلقته في وصف المطر . كذلك لم يكن عبيد بن الابرص عابثا حين أوجـد معجما لغويا للمطر في معلقته « المحل ، محروب ، سلب ، جديب ، سكوب ، سروب ، جدول ، فلج ، واد ، قسيب (خرير) » .

هذه العوامل الثلاثة تتداخل تداخلا ديالكتيكيا لتعطي الوجود الانساني المستقر في اي زمان ومكان . وامرؤ القيس ابن الجاهلية المقهور طبيعيا وتاريخيا واجتماعيـا قدم لنا في معلقته هـذه المظاهر الثلاثة للحيـاة الجاهلية .

ــ فالمراة عنده اصبحت نوعا من الذكرى ــ والذكرى ارتباط مأساوي بالماضي المنصرم .

---

(٢) اعني بالسكون انعدام الحياة لا انعدام الحركة .

(٣) د. وهب رومية « الرحلة في القصيدة الجاهلية » الصفحة / ٢٠ / الطبعة الاولى .

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

ـ اما الارض فهي مسلوبة من ذات الشاعر نتيجة لسيطرة الجفاف والقحط عليها ففدت نفس الشاعر مقهورة من جهتين . الاولى فقدان المرأة بصفتها لحظة مرتبطة بالماضي والثانية فقدان الارض بصفتها لحظة لا يكملها المطر . وغير مستقرة حضاريا .

اذا المطلع الطللي في المعلقة ينم بشكل لا شعوري عن احلال السكون محل الحياة ، فالطبيعة تقتل الارض بالقحط والمجتمع يقتل التواصل الانساني عن طريق كبح اللذة العشقية ، ووضع العوائق امام توسعات اللبيدو الطبيعية ، وبهذا تكون القصيدة قد عبرت النقطة (آ) .

★ ★ ★

بعد ان تتجاوز القصيدة النقطة (آ) تدخل في مسار طويل تبدأ فيه الحركة (الحياة) بالظهور وتواكبها شرطية التركيز على الذات وتأكيد على وجود « الأنا » الشخصي المستقل ـ هذا ما نراه في ابيات المعلقة من (٩ ـ ٣٣) ـ حيث يقص علينا الشاعر مغامراته العاطفية السالفة ليقنعنا بانه قادر على تحقيق مثلها في الزمن القادم ولنرى كيف يبدأ مغامراته هذه .

كدابك من ام الحويرث قبلها وجارتها ام الرباب بمأسلِ

فعل (دابك) اي (عادتك) أورده ليقول إن المغامرة كانت متكررة لاكثر من مرة وفي كل مرة كان يتحقق الارتواء أكثر من المرة السابقة . ولنا في اجتماع عدة اسماء لنساء في بيت واحد ظاهرة نفسية توضح الاحباط العشقي الذي يعاني منه الشاعر وما ورود هذه الاسماء المتعددة الا دليل لاشعوري امام الشاعر ليؤكد ذاته ويضفي على مغامراته الصفة الواقعية . . وامكانية نقلها من الماضي (الذكرى) الى الحاضر (شروط الاعادة) .

اما حرف (الكاف) في بداية البيت فهو ليس الا انتقالا لاشعوريا من هيمنة السكون المطبق في المقدمة الطللية ـ والذي يريد الشاعر التخلص منه ـ الى بعض التمريرات الحركية في قصة مغامراته العاطفية هذه ،

ولكن هذه الحركيـة حتى البيت (١٦) لا تزال تحمل بين حواشيهـا امكانيات الموت لانها متلازمة ومقترنة بالعواطف العشقية ـ وبالحواجز المرفوعـة امـام تحقيق اللذة . وبما ان اللذة تطلب دائما المزيد لانهـا استمرارية لا تشبع فقد يغدو استعادة هذه اللذة نوعا من الموت البطيء لعدم امكان تحقيقها بالشروط نفسها وبالاساليب الموضوعية التي اوجدتها في الماضي .

وقد تبدو وجهة نظر الشاعر العشقية لا في امراة بعينها ولكن بشمولية المراة وكانه يخترع لنفسه المراة المثال وهذا كله جاء محصلة كون العشق لم يرتبط بواحدة انما كان مرتبطا بظرف اجتماعي وطبيعي شامل وجد نتيجة لتاثير عناصر الحياة الاساسية .

كل هـذه الاحباطات تتحرك لتجعـل موقف الشـاعر يسير نحو التفاقم والتازم . فكل شيء يفكر به يصطدم بحاجز اللاتلبية ـ وحيث ان الزمن الحاضر ـ هو المعاش ، والزمن الماضي بما فيه من ذكريات قد انصرم ـ وبات من المتعذر استعادته ـ كل هذا يجعـل الشاعر يخرج من جلده ليفكر بمنطق اكثر ملاءمـة لروح العصر ـ اقصد ـ النظرة المستقبلية لحياة الجاهلي والتي لم تسلط عليها الاضواء بعد . وبهذا تكون مسافة النقطة (س) قد انتهت لتدخل القصيدة في استمرارية النقطة (ي) النهاية .

★ ★ ★

ندحل هذه المسافة في المعلقة بوصف الحصان الذي يمثل رمزيا مركبة الشـاعر للولوج في عالم النور المثالي وقد وفق الشـاعر بصور اكيدة بهذا الحامل القريب من البيئة الحسية والمتضمن لكثير من مدلولات العـالم المستقبلي للجاهلي لما يحوي من مظاهر الاقناع الوجودي « كالسرعة ـ والجمال ـ والتقديس ـ والحاجة » .

وان كانت لوحة الحصان هي المحمول الذي حمله الشاعر انفعالاته فقد تجلى رد الفعل بلوحة البرق والدم والمطر التي يختتم الشاعر بهـا معلقته وليست تلك اللوحة سوى اللحظة الذروية :

أصاح ترى برقا اريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل

لو نظرنا الى البيتين لوجدنا النور يشع من كل لفظة فيهما (البرق ـ الوميض ـ اللمع ـ الضوء ـ السنى ـ المصابيح ـ السليط) وكأنه يكثف ردة الفعل لديه ليصدر البلاغ الاول لثورته وليس له سوى المطر ـ الذي يعقب البرق ليكون برقه في هذا الاعلان .

ـ فاضحى يسح الماء حول كتيفه يكب على الاذقان دوح الكنهبل

هذا هو عنصر الحياة الثالث (المطر) قد توفر بصورة غزيرة فهو يسح) من كل جهة وهو (يكب) والكب : القاء الشيء على وجهه وتفريغ كل مايحويه . وفي هذا اشارة الى القحط والقسر الاجتماعي وقد جعلا الشاعر يدفع كل مالديه لتحقيق الحلم الثمين في التغير والرد على الاستلاب الحضاري والعشقي .

ونظرة بسيطة الى معظم الالفاظ في هذا الجزء من المعلقة نلاحظ هيمنة واضحة لمعاني (البرق والمطر والسيل) وهذه الثلاثية من الالفاظ هي ردة فعل الجاهلي على كل مظاهر الحياة التي يحياها .

ـ فالبرق نذير المطر وبه ترتبط قداسة الافكار الفطرية بكونه مرتبط بالنور والظلام .

ـ والسيل هو محمول الخلاص الجذري من الداء وبه يتخلص من اكثر همومه ومعضلات حياته .

ـ والمطر (وهو المحمول الفاعل في القصيدة) له مدلوله الفكري التحتاني الى جانب مدلوله ، الحياتي المعاش ويذكر محمد جواد علي في (تاريخ العرب قبل الاسلام) تفسيرا لذلك « مايدفعنا الى الاعتقاد ان الاحتفال بالمطر والاستسقاء في الشعر الجاهلي اصولا في ديانة العرب القديمة وفي شعرهم بقايا من طقوس الخصوبة »(٤) .

(٤) انظر : جواد علي (تاريخ العرب قبل الاسلام) بغداد ، ١٩٥٥ الجزء الثامن الصفحة ٢٩١ .

وقدم الدكتور « مصطفى عبد اللطيف جياووك » تفسيرا لرمزية المطر في الشعر الجاهلي فقال :

« الشاعر الجاهلي يستخدم عنصر الماء استخداما يظهر فيه تناقض الماء . فهو مادة للحياة والموت . ويتجلى ذلك في زعم الشاعر الجاهلي ان الامطار والانواء هي سبب تخريب الديار وامحائها ثم في استطراده الى وصف الحياة التي بعثتها الامطار نفسها في الديار »(٥) .

من كل هذا التحليل أخلص الى نتيجة : ان الحالة اللاشعورية للمعلقة واحدة في كل اجزائها تبدأ من نقطة تكون المواقف فيها عرضة للقهر والاستلاب والموت وهي (أ) لتنتقل بصورة تصاعدية الى حالة حركية متطورة ,متقدمة تؤكد تلك المواقف امام القسر المتولد عن هيمنة المجتمع (القبلية) وهي (س) لتأتي المسافة الثالثة وبها يبدو رد الفعل أو اللحظة الحاسمة للولوج الى عالم النور المثالي حيث يكمن الحل اللاشعوري في القصيدة وبذلك تكون النقطة (ي) . وليس هذا التنوع في مضمون موضوعات القصيدة سوى Paradox لا معنى له .

وعودة على بدء أقول : ماذا تختلف هذه الامور الثلاثة عن (المقدمة ــ والذروة ــ والحل) في البناء الاساسي للقصة في القرن التاسع عشر . . ؟

مدخل في فلسفة طرفة

تتضمن معلقة طرفة بشموليتها على صراع جلي بين الموت والحياة واخيرا ينتصر الموت بكونه مطلقا وتخسر الحياه بكونها انية ومحددة وهو في مطلع معلقته يؤكد هذه النظرة الوجودية للموت :

ــ لخولة اطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

الفاظ الشطر الاول (اطلال) تعودنا الى (طل) والى المعنى (طل

(٥) انظر : مصطفى عبد اللطيف جياووك « الحياة والموت في الشعر الجاهلي » بغداد ١٩٧٧ الصفحة ١٧٨ .

دمه) أي (هدر دمه) والمهدور دمه من لا تطالب او تطالب به قبيلة اي هو بمفهوم العرف العشائري لا شيء امام الموت . وان حياته يدفعها الموت في كل لحظة و (برقة) تعطي (البرق) وهو سرعة الظهور والانطفاء ، ولفظ (ثهمد) تحوي الثلاثي (همد) بمعنى (خمد) والتي تدل على الموت البطيء . حتى ان اسم المراة مفتاح المعلقة يحمل ضخامة الموت امام الحياة (فخولة) اتت من (خال) ومنه جاء (الخيال) او النظرة الحلمية للواقع المحسوس والمنصرم من الذاكرة .

اما الشطر الثاني فقد حمل صورة الموت الواقعية لكونه اقترن بمعان حسية (تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد) فصورة الوشم (معادل الحياة) لم تجدد وهذه النظرة تبرهن على الروح الفلسفية التي كان يرى من خلالها طرفه بن العبد الموت والحياة . بينما نجد وشم زهير ولبيد وغيرهما مجدد تنبض فيه الحياة . (مراجع وشم في نواشر معصم)

لهذا كله حاول طرفة ان يقنع نفسه بأن الحياة ليست سوى رحلة يغامر فيها الانسان مثل ملاح يجوب عرض البحر فوق سفينته مرة يهتدي واخرى يتوه .

ـ عدولية او من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدي

واذا كانت هذه الحياة ضربا من المغامرة فلم لا يقنع نفسه بالوجود وسلاحه في ذلك ملذاته ومجونه :

ـ فان كنت لا تستطيع دفع منيتي   فدعني ابادرها بما ملكت يدي

وهو يرى في رحلة العمر القصيرة انه من العار ان يموت الانسان وهو عطش من مباهج الحياة يتشوق الى ملذاتها ومغرياتها :

ـ كريم يروي نفسه في حياته   ستعلم ان متنا غدا اينا الصدي

هذه هي فلسفة طرفة الوجودية ازاء الموت والحياة ففي الموت وجود الحياة وفي ملذات هذه الحياة السلاح الرادع للموت .

الناقــة في معلقة طرفة :

عندما كنت اتخيل الرسم الاسطوري الذي اقامه طرفة لناقته كنت دائما احتار فيما اذا كانت هناك اية علاقة تكاملية او توضيحية بين فلسفة طرفة الوجودية ازاء الموت وبين رسمه لهيكل ناقتــه بتلك الضخامة الاسطورية .

ولكن قبل البحث في هذا الموضوع والذي هو مدار بحث رمزيــة الناقة عند طرفة اود ان اعرض بعض الملاحظات عن بعض من تعرضوا لناقة طرفة هذه .

اولا : « ابن رشيد القيرواني » يقول « اما نعات الخيل فامرؤ القيس وابو دؤاد وطفيل الغنوي والنابغة الجعدي ، واما نعات الابل فطرفة في معلقته من افضلهم واوس بن حجر وكعب بن زهير والشماخ واكثرالقدماء يجيد وصفها لانها مراكبهم »(٦) .

ـ هذا القول على الرغم من قدمه هو قول سطحي لم يتضمن سوى بعض الاشارات لمن ابدع في وصف الخيل والابل وابن رشيق لم يجب على السؤال الاساسي . « ابن تكمن اجادة كل شاعر من هؤلاء » ؟ . هذا الراي العمومي الذي طرحه ، فيه تجن وفيه قسوة . ثم انه وقع في شرك العمومية فهو لم ينص في حكمه هذا ؛ ولم يفرق بين جاهلي ومخضرم ونحـن نعلـم ان نعت الناقة في الاسـلام اصبح تقليدا بفرضــه العرف الشعري . ولم يكن نقلا مباشرا عن مشاهدات الشاعر وحاجاته اليومية . . ثم ان جملته الاخيرة « واكثر القدماء يجيد وصفها لانها مراكبهم » لم تشرح لنا من يقصد بالقدماء هل هم شعراء الجاهلية ام القدماء بالنسبة له (متوفى ٤٥٦ هـ) وهم الجاهليون والاسلاميون . . واذا كان يقصد هذا الاخير ففيه تناقض مع كثير من الدراسات النقدية القديمة التي رات

---

(٦) ابن رشيق القيرواني (العمدة) مكتبة امين الخانجي بمصر ١٢٦ هـ الجزء الثاني صفحة ٢٢٧ .

ان القصيدة الاسلامية التي بقيت تحاكي اغراض القصيدة القديمة ـ هي نوع من التقليد الناشىء دون تجربة ومعاناة .

ثانيا : المحدثون من النقاد وجدوا في الناقة وفي كل حيوانات الرحلة (الثور الوحشي ـ البقرة الوحشية ـ الظليم والنعامة ـ كلاب الصيد ـ الذئاب ـ القطا ـ حمار الوحش) مخارج لاشعورية لانفعال داخلي كان يعيشه الجاهلي في حياته الحافلة بالصراع مع الطبيعة ، والصراع مع الانسان والمتمثلة في ثلاثة هموم أساسية كانت تحرك مسار حياته وفلسفته .

١ ـ هم افتراس الطبيعة للارض عن طريق القحط .

٢ ـ هم افتراس الانسان للانسان في الحروب والتناحر على اماكن الرعي والارض الخصبة .

٣ ـ هم القسر الجنسي الذي تفرضه القوانين الاجتماعية والذي منه نتجت سلبية التواصل الصحيح مع المرأة . ولهذا كان الحيوان المحمول الانفعالي لاحد الهموم الثلاثة الآنفة الذكر .

ـ فالذئب المعول في لامية العرب للشنفرى هو الشنفرى الجائع والباحث عن الطعام(٧) .

ـ وقد يكون للناقة في الواقع طبيعة ثنائية . الحيوان المستخدم في الحياة اليومية من جهة والشخصية الاسطورية التي تبرز في الشعر صوره نمطية عليا Archtpe من جهة اخرى وهكذا يمكن ان يكتنه وصف طرفة المتقصي للناقة »(٨) .

ـ ولكن الشعراء الجاهليين يصورون الاتن بانها غبية قصيرة النظر

---

(٧) انظر يوسف اليوسف « مقالات في الشعر الجاهلي » دمشق وزارة الثقافة ص٢٨٢ حزيران ١٩٧٨ .

(٨) انظر د . كما ابو ديب ـ نحو منهج بنيوي لدراسة الشعر الجاهلي ـ مجلة المعرفة عدد ١٩٦ حزيران ١٩٧٨ .

(٩) انظر د. محمد النويهي « الشعر الجاهلي » الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة الجزء الثاني الصفحة ٤٨٤ .

النظر الذي يدرك حاجتها الى مورد جديد ... فهو لا يكترث بممانعتها لاتفهم ما ينفعها وما يضرها ... اما الحمار فهو وحده الحكيم البعيد السخيفة ويرغمها ارغاما قاسيا على او تمضي معه وينفق كل جهـده وحيلته في منعها من الهرب في اثناء الرحلة وربما كان هذا يحدث حقا من الاتن لكننا نرى في وصف الجاهليين لسلوكها تحيزا قويا منهم الى وصف الحمار الذي تجمعهم به جامعة الذكورة ضد الاناث الغبيات »(٩) .

ثالثا ـ الدكتور « وهب رومية » في كتابه الموسوم بـ « الرحلة في القصيدة الجاهلية » تعرض لفنية الناقة بصورة عامة ولناقة طرفة بصورة مستقلة وفي سياق بحثها اورد : « ولكن احدا من الشعراء ـ على كثرتهم ـ لم يرفع لناقته هذا التمثال الضخم الذي شيده طرفة بن العبد » ثم يتابع « ورجح لدينا ان وصفه لناقته (طرفة) كان موقفا اصيلا من الشعر يجرب موهبته فيه ويحاول تطويعها في هـذا الغرض البدوي العريق ـ وصف الناقة ـ »(١٠) .

لا ادري ان كان يرضى معنى الدكتـور « روميـة » بأن الامـر لايعدو ان يكون تجريب موهبة وتطويـع هذه الموهبة مـن اجل غرض بدوي أصيل . خاصة وان الدكتور كان دائما يرى ان الشعر يتحدث عن وجدان الجماعة القلق في مخاوفه واحلامه وهمومه(١١) كذلك كان يقول في قصص الحيوان « ان الشعراء حين يتحدثون عن رحيلهم بين احضان البادية ويصفون ما يصادفونه من حيوانها ويصورون حياته تصويرا دقيقا في علاقته بالطبيعة والناس وابناء جنسه الاخرين فانهم ـ اي الشعراء ـ لا يتحدثون عن ذلك وحده ولكنهم يتحدثون ـ ايضا ـ وربما اولا عن رحلة الحياة نفسها ـ قصرت ام طالت ـ في اهوائها ومسراتها ومواجعها وفي كفاحها الخائب الذي تعبث به الاقدار (١٢) .

* * * *

(١١) المصدر السابق الصفحة : ٢٠٥ .

(١٢) انظر د. وهب رومية « الرحلة في القصيدة الجاهلية » ط ١ الصفحة ١٤٩ .

اول ما يطالعنا به طرفه في سياق وصفه لناقته هو تمهيد وجيز يحمله مراده من هذا الحيوان فهو باختصار سبيله الوحيد في ابعاد الهموم عنه .

واني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

لو امعنا النظر قليلا في هم طرفه الذي يؤرق جفونه وينغص حياته لوجدناه هم الجاهلي بصورته العامة ولكن مطلع القصيدة يجلو الشكوك حول هذا الهم ويوضحه ويفسره .

ــ فالهم ينقسم الى قسمين او قل يتعقبه من جهتين هما :

١ ــ خولة (رمز المرأة الشمولية) اصبحت من عالم الذكريات والذكرى مرتبطة بالماضي اشد الارتباط « وان استحالة معانقة الماضي تثير فينا على الدوام شعورا جد حزين(١٣) » واما اطلال خولة فقد اصبحت خرابا وبذلك تكون « خوله وديارها » هما يجثم على قلب الشاعر ولا يبرحه مطلقا .

٢ ــ ديار خوله (الارض) اصبحت اطلالا مقفرة بفعل القحط المسيطر فبذلك يكمن الشق الآخر من الهم الذي جعل ليل الشاعر ارقا . ولكن اي الشقين يعذب الشاعر اكثر ويجعله مؤرقا في الصحراء . لو نظرنا في الجملة الاسمية « لخوله اطلال » لوجدنا متبدأ وخبرا .

ــ من خلال تقدم الخبر على المبتدا اعطى الخبر الاهمية القصوى وبتصدره على المبتدا اصبح اصلا والمبتدا فرعا ويوسف اليوسف لا يرى في هذا الامر صدفة « لان اللاشعور يوجه السلوك دوما نحو ما يشعر بالحاجة اليه قبل سواه(١٤) » وبذلك نقول ان مشكلة القوانين الطبيعية والانسانية المفروضة على الجنس في المجتمع الجاهلي كانت حصيلة اكثر الصراعات التي يواجهها الجاهلي وتحدد مصيره .

---

(١٣) يوسف يوسف « المقدمة الطللية » مجلة الموقف الادبي العدد ــ ٢ ــ حزيران ١٩٧٤ .

(١٤) المصدر السابق .

هذا هو طرفه اذا موزع بين قهر الطبيعة للارض وبين قهر المجتمع للجنس الذي اراد له طرفه ان يكون في أقصى أنواع تحرره .

ندامای بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد

فالمراة عنده (قينة) تقوم على خدمة الندامى وهي بذلك لاتملك اية قيود مفروضة على منح اللذة باقصى انواعها بينما نجد نساء اكثر الشعراء (زهير مثلا) مترفات منعمات لا يعملن .

وبعد النظر الى ما يلي جسر الانتقال السالف نرى الشاعر يبدأ مباشرة برسم ملامح صورة الناقة لا كما هي بل كما اراد لها ان تكون فهذه الناقة (أمون) يؤمن عثرتها وهي تسير في خط واضح مرسوم لها (لا حب) يشبه (البرجد) أو الثوب المخطط وحيث هي تبعده عن الهم (حرم خوله ــ وديار خوله الخراب) تمضي به في طريق السلامة الى عالم هادىء مستقر لا منغصات فيه .

امون' كألواح الإران نصأتها على لاحب ٍكانه ظهر ُ برجدِ

لو مددنا خيط وصل بين هموم الشاعر (حرم الحبيبة ــ والديار الخراب) وبين الصفات التي البسها طرفه لناقته (وهي تنطبق على الانسان أو هي إنسيه) لوجدنا ان لدى الشاعر نزوعا هروبيا من المجتمع الجاهلي الرعوي غير المستقر نحو حضارية اكثر تقدما ومدنية . وطالما ان الناقة هي مركبة الشاعر لعملية النزوع هذه فقد حملها في وصفها الحسي عملية التمدن الحضاري هذه فهي (كقرطاس الشامي) وهي (كسبت اليماني) وهي (أمون) وهي (بنائق غر في قميص مقدد) وهي (كألواح التابوت) وبذلك يكون قد اسبغ عليها من صلب الحضارة الجديدة ما تحويه من صفات التمدن ــ (سبت اليماني ــ قرطاس الشآمي) ولانها قابلة للتلائم والتاقلم مع هذه الحضارة الجديدة فقد اعطاها صفة الاستمرارية الحياتية ولانها ــ كالنا اسطوريا من الصعب ان يأتيها الفناء او التغير فقد اعطاها صفة القوة .

لو تفحصنا المعجم اللغوي لصفات القوة عند الناقة لوجدنا ان :

(افتلان) قويان شديدان (متشدد) قوي صلب (أمرت) الامرار هو احكام الفتل .

(المسند) الذي شد بعضه الى بعض فاصبح قويا (النابض) كثير الحركة والحركة من نتائج القوة .

(الململم) الصلب القوي (المراودة) الصخرة القوية (الصفيح) الحجر الصلب (المصمد) المحكم الموثق .

نظرة بسيطة لمعاني هذه الالفاظ التي تعج بالقوة والصلابة تدلنا على ردة الفعل اللاشعورية على عالم اللاستقرار والذي يقع تحت رحمة الطبيعة والمجتمع وما على ناقة طرفه (رمز الحضارة الجديدة) الا ان تحمل كل صفات الصلابة والقوة حتى يمكن لها الاستمرار ضاربة بقوانين الطبيعة والمجتمع عرض الجدار .

ولو نظرنا في البيت :

رَبعت القَفَيْن في الشول ترتمي
حدائقَ مَوليّ الاسِرّةِ اغيدِ —

(فالتربع) : هو رعي الربيع والاقامة بالمكان واتخاذه ربعا أو ملكا دائما ومنه المعنى المجازي (التربع على الارض) أي الجلوس عليها بثبات واستقرار . (القفين) ما غلظ من الارض وارتفع — اي لم يطله احد بعد (الشول) الارتفاع . ولها هنا مدلول نفسي كبير حيث تستعمل صفة للبعير الذي يتمرد على القطيع (الشائل) ويرفع ذنبه ثم يأخذ بالركض هاربا من محيط القطيع .

(حدائق) جاء منها (الإحداق) اي الاحاطة والتقيد .

(مولي) الذي اصابه المطر الثاني من أمطار السنة والاول (الوسمي) سمي به لأنه يسم الارض بالنبات (الأسرّة) الأفاضل والأكرام (الأغيد) : الخلوق .

في البيت مدلولات نفسية عن العالم المثالي الذي يطمح الشاعر الجاهلي الى تحقيقه .

١ ـ لفظ التربع اسقط حالة الشاعر وشعوره نحو أرض ليست ملك يديه بل هي ملك للتغيرات الطبيعية التي تطرأ . لكنه يرسم الى مجتمع يملك فيه الارض وأدوات المعيشة المستقرة ، يخلصه من كل هذه الصراعات وينقله الى حالة أرقى حضاريا يتربع ويهيمن ويكون فاعلا عليها لا ان يبقى عرضة لأفعال الطبيعة ومتغيراتها .

٢ ـ (القفين) الارتفاع او السمو هي صورة الحياة الجديدة في ذهنية الجاهلي .

٣ ـ (الشول) مدلول التمرد النفسي وان كانت بصورة لا شعورية .

٤ ـ (حدائق) مدلول القيود والاسوار التي تضمنتها الحياة الجاهلية بصورتها المباشرة .

٥ ـ (مولي) صورة الحياة الجديدة والتي يرى الجاهلي انها نقية وخالية من كل المعضلات التي يحياها يوميا .

٦ ـ (الأسرة ـ الاغيد) مدلول الخلقية التي يريد ان يوفرها الجاهلي لصورة حياته الجديدة .

« فطرفة في وصفه للناقة كان يقوم بعمل تحليلي ـ فالناقة المثال موجودة بصورة كلية وهي ناقة مادية لها رأس وقوام وذنب وهي معنوية ومعناها القوة التي يريد ان يضمها لطموحاته المستقبلية »(١٥) .

في هذه الاسقاطات نكون قد وجدنا الرابط النفسي بين الشق الاول من هم طرفة ـ هم الارض الخراب المسلوبة بالقحط وكيف ان هذا قاده لان يبني هيكلا قويا وتخطيطيا لعالم مستقر قوي وصلب امام متغيرات الطبيعة والمجتمع وقد حمل كل هذه الصفات لتلائم معنويا صفات الحضارة الجديدة .

---

(١٥) انظر : محمد عبد العزيز الكفراوي « الشعر العربي بين الجمود والتطور » دار النهضة ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ٩٢ .

اما المدلول الثاني الذي يطالعنا به طرفة في ناقته ففيه تكمن الاجابة على الشق الثاني من الهم الذي ارق طرفة . وارق كل جاهلي ـ اقصد ـ القوانين القسرية التي تفرض على التواصل العشقي ـ والتي كانت تفرض من اتجاهين .

أولا : طبيعة العلاقات والقوانين البشرية الفطرية التي تحكمت بالجاهلي وبالتالي كان من نتائجها وجود الغزل بنوعيه (الماجن الذي كانت المراة فيه وسيلة لاشباع اللذة حتى لو لم تكن محققة فعلا) و (الفروسي الذي كانت المرأة فيه تعتبر ضربا من التقديس) وهذان النوعان وجدا لانه « لم يكن للمرأة في المجتمع الجاهلي منزلة رفيعة تأذن للغزل ان يبلغ شأوا بعيدا من الرقي . فقد كانت قوة القبيلة ومنزلتها منوطتين بعدد ما تضمه من الذكور وهم العنصر القتالي الذي يرتبط به وجود القبيلة ويحدد مكانتها »(١٦) .

ثانيا : طبيعة العلاقات والقوانين المفروضة من قبل الطبيعة والتي جعلت حياة الجاهلية ـ القائمة على النجعة والارتحال ـ عرضة للتصدع المفاجىء مع المرأة التي سبت قلوب الشعراء وزرعت فيها الأحزان على فراق من احبوا .

ولنر كيف كانت ناقة طرفة الرد الحالم على هذه القوانين القسرية .

تريعُ الى صوت المُهيبِ وتتقي بذي خُصَلٍ رَوعاتِ أكلفَ مُلْبِدِ

هذا الامر (التمنع) وسببه (الفواصل بين الجنسين) لم يكن عند الناقة فقط بل كان يعاني من المشكلة نفسها طرفة فهو محروم من تلبية اللذة بالحدود القصوى لها والتي كان يؤمن بها فكانت المرأة لديه (قينة ـ او جارية) حتى تمطي دون حدود ودون موانع مفروضة على هذا الامر . اما مدى التشابه والتطابق النفسي بل كل هذه المحمولات النفسية التي ضمنها للناقة (المرأة المتمنعة) فنكاد نتبينه بوضوح لأن ما ارساه طرفة

---

(١٦) انظر : د. احسان النص « الغزل في عصر بني امية » دمشق ١٩٧٦ دار الفكر الصفحة ـ ٣ـ .

من عقد نفسية في قاع نفسه غدا يتخبط على السطح فهو حين يصف ناقته نكاد نحس انه يصف امراة جميلة وبهية وليست ناقة عجماء :

ـ وعينــان كالماويتين استكنتــا بكفهي حجاجي صخرة قلت مورد
ـ وخد كقرطاس الشآمي ومشفر كمكحلتي مـذعورة أم فرقـد
ـ لهـا مرفقـان افتلان كأنهـا تمـر بسـلمي دالـج متشـدد

واذا عدنا الى حياة طرفة الخاصة وخلافه مع عشيرته ومحاولاته للتمرد على قوانينها لرأينا في وصف الناقة ما يوضح هذه الانفعالات النفسية وكأنه اكتشف بالتجربة ان حياة الفرد لا تساوي شيئا دون القبيلة . وفي وصف الناقة يرى ان على الفرد أن يتلاءم مع قوانين العشيرة المفروضة كما يتلاءم (القسي) تحت الشيء الصلب والقوي .

كأن كناسي ضالة يكنفانها واطر قسي تحت صلب مؤيد

ثم إنه يتناول هذا الموقف ايضا عندما يصف شعر ذيل الناقة المتحرك باستمرار ولولا أن هذه الشعيرات الصغيرة متلائمة مع حركة الذيل المستمرة لسقطت وانتهت .

فطورا به خلف الزميل وتارة على حشف كالشن ذاو مجدد

وبعد هذا كله نستطيع ان نجعل رمزية الناقة في معلقة طرفة بانها محمولات انفعالية ونفسية لما كان يحيط بالجاهلي ولما كان يطمح بتحقيقه مستقبليا وهي :

١ ــ ردة فعل على اللا امن الذي يعيشه المجتمع الجاهلي والمتولد عن الطبيعة وما تسببه من قحط وخراب .

٢ ــ ردة فعل لاشعورية على القوانين القسرية التي وضعتها القبيلة (المجتمع) على التواصل المتوازن بين الرجل والمراة .

٣ ــ محاولة للقفز نحو عالم مستقر وثابت يتجاوز المجتمع الرعوي البسيط الى حالة حضارية متمدنة اكثر التصاقا بالارض وصلبه امام تغيرات الزمن .

٤ ــ تواصل لفلسفة الموت المسيطر على المعلقة باكملها والتي تتكشف في المقطع الوجودي منها لان طرفة كان يعيش ازمة وجود سحيقة جعلته يفكر بالموت في كل شيء وكانت الناقة المعادل الموضوعي لذاته وكيانه وفكره وهي السد المنيع الذي بناه امام طوفان الموت والذي كان يعلم بانهياره في كل قطعة بناها فيه .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

حكايا بلاد فارس القديمة

جزءان ـ أدب اليافعين

ترجمة : اوديت سلوم

■ ■ ■

مختارات من الاقاصيص الشعبية التشيكية والسلوفاكية

ثلاثة اجزاء ـ أدب اطفال

ترجمة : نزار عبد الله

■ ■ ■

في الاغنية الشعبية

تاليف : ابراهيم الفاضل

الشعر والبحر

أحمد محمد عطية

الأدب والبحر

الادب متعة وضرورة ، وعمل جمالي واجتماعي ، يجمع بين العذوبة والفائدة ، وبين الخاص والعام ، ويستخدم اللغة استخداما ابداعيا منظما ، غايته التعبير الخاص عن الانسان الاجتماعي والانسان المطلق ، والبحث في جوهر الحياة واكتشاف العالم وفهمه ، ودفع حركة التقدم الانساني ، واستشراف مستقبل افضل . والادب يتبادل التأثير والتأثر مع الحياة . فمع ان الحياة هي الاصل الذي يعبر عنه الادب ، الا ان الادب يمكن ان يفتح افاقا اوسع للحياة ، بالمثل العليا والنماذج العظيمة والتخييل والتنبؤ بحياة افضل . ومن هنا يقدم الادب رؤى جديدة لعالم المستقبل . وليست ببعيدة تجربة الاديب البريطاني هـ. ج. ويلز (١٨٦٦ ـ ١٩٤٦) ، في روايته « اول بشر فوق القمر » (١٩٠١) ، التي سبق بها رحلات الانسان الى الفضاء بأكثر من نصف قرن ، والتنبؤات العلمية في روايات الاديب الفرنسي جول فيرن (١٨٣٨ ـ ١٩٠٥) وخاصة في روايته البحرية « عشرين الف فرسخ تحت الماء » .

ولقد وعى الانسان الاول اهمية الادب والفن ، وفائدتهما في بناء حياته ومجتمعه . فمنذ الفجر الاول للانسانية استخدم الانسان الفن

لتفسير العالم وتغييره وتقدمه ، من تطوير لادوات العمل الى اغنيات العمل الجماعية ومن الاسطورة والادب الشعبي الى الشعر والملحمة ، عرف الانسان الاول ضرورة الادب والفن ووظيفتهما في تقدم المجتمع الانساني والسيطرة على الطبيعة . فقد كانت هذه الاشكال الاولى من الادب والفن ضرورة وفائدة ومتعة ليست مجرد تسلية او شغل فراغ . فرقص الانسان الاول قبل الصيد كان مقدمة ضرورية للشعور بالقوة . ورسم الحيوان على الجدران كان وسيلة للتفوق على الحيوان والسيطرة عليه . وكانت الاسطورة ضرورة لتفسير مظاهر الطبيعة الجبّارة الخارقة وعندما تحرك الانسان الى البحر لاكتشاف الطبيعة ، وواجه عالم البحر الغني بالعجائب المثيرة للخيال ، من الاسماك الى الحيتان ومن الامواج والعواصف والانواء الى الشعاب والصخور المضيئة ، ابدع الخيال الانساني الاسطورة البحرية لتفسير تلك الغرائب والعجائب الطبيعية .

وقد شكلت الاسطورة الاساس الاول لفنون الشعر والحكاية الشعبية والملحمة التي مزجت بين الخيال والواقع ، وكونت المصادر الاولى لمعرفة تاريخ الانسانية وجغرافيتها في فجر التاريخ . ولهذا عدت الملحمة « الصيغة الاولى » للتاريخ والجغرافيا ، وعرف الشعر بأنه ضرب من « الفلسفة البدائية » ، وقدمت الاسطورة والحكاية الشعبية بعض المفاهيم الجغرافية لتفسير مظاهر الطبيعة بالخيال والخوارق ، غموضها وعجز الانسان الاول عن تقديم التفسير العلمي لها في حينها . ولم تزل مظاهر الطبيعة التي فسرتها الاسطورة والملحمة والحكاية الشعبية والشعر ، ماثلة حتى اليوم بشكلها الواقعي بعد ان عرف لانسان تفسيرها العلمي . واذا « ذهبنا مع الوهم وطفنا حول البحر الابيض المتوسط ، هذا البحر الداخلي الذي كان مرتع الخيال الوثني ، لما وجدنا فيه موقعا شهيرا لعظمته او غرابته ، الا وذكرنا بمأساة خرافية جميلة ، وبالتالي عمل رائع من اعمال الشعر او النحت » . ــ كما يقول « لويس هورتيك في كتابه « الفن والادب » ــ واذا سايرنا الشواطيء على غرار البحارة اليونان او الفينيقين لراينا الاساطير تمزج بالموقع مزجا حميما . فتبدو الميثولوجيا المنيفة الاولى لعلم الجغرافيا » (١) .

---

(١) لويس هورتيك ، الادب والفن ، ترجمة الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي ص ٤٥ ــ ٤٨ .

ولقد كان البحر مجالا خصبا للتفسيرات الادبية الاسطورية في أدب البحر ، من ملحمة الاوديسة لهوميروس والانيادة لفرجيل – وما حفلت به الملحمة الاولى من تصوير الصراع بين بطلها اوديسيوس وبين اله البحر نبتون والمناظر الاسطورية للبحر ، ومـا قدمته الثانية من ملحمة بحريـة عن العاصفة التي تعرض لها اسطـول اينياس في البحر حتـى سقـوط باليتيوس في البحر فداء للاسطول الطروادي – الى حكايات السندبـاد البحرية وقصص الف ليلة وليلة البحرية الشعبية ، ومـا تضمنته مـن حكايات عرائس البحر وجنيات البحر ومن تصوير اسطوري لعالم البحر الى غير ذلك من الانواع المختلفة التي اثرت في ادب البحر على مر التاريخ، وجمعت بين الاسطورية والواقعية والرومانسية واستهدفت اكتشـاف الطبيعة البحرية وتفسيرها واستغلالها لصالح البشريـة وفتـح آفاق جديدة امامها .

هكذا قاد الادب والفن صراع الانسان مع قوى الطبيعة ، من اجل ترويضها والسيطرة عليها واستخدامها لصالح البشرية . فكانا « سلاحا اضافيا عظيما في الكفاح ضد قوى الطبيعة الغامضة » ، كما يقول ارنست فيشر في كتابه « ضرورة الفن » . ويذكر فيشر ايضا ان ظهور رجال البحر اسهم في تطوير الشخصية الانسانية وتفردها بالبطولة والمغامرة والحرية وعدم التبعية . لان الحياة الخطرة فوق بحر واسع ، مضطرب الامواج والعواصف ، جعلت رجل البحر سيد مصيره . « فهو مغامر اعتاد تعريض حياته للخطر المرة بعد المرة ، ليس في نفسه ولاء للارض والمحافظة على نظمها التي تتغير في البذر والحصاد . وانما ولاؤه للبحر المتغير المتقلب الذي لايكف عن الحركة ، والذي يستطيع ان يهبط به الى القاع او يرفعه على قمة امواجه الى الذروة . كل شيء هنا يتوقف على البراعة الفردية وعلى العزيمة والقدرة على الحركة والذكاء .. وعلى الحظ .. »(١) .

لقد رافق البحر البشرية طوال تاريخها منـذ انبثاق الحياة علـى شواطىء البحار الطينية وفي مياهها الضحلة مكونة مايعرف بعصرالاسماك

(١) ارنست فيشر ، ضرورة الفن ، ترجمة اسعد حليم ، ص ٥٦ – ٥٧ .

كما كان البحر مجالا لتقدم الحضارة الانسانية منذ اخترع الانسان السفن للصيد ، الى عصور المغامرات والاكتشافات البحرية الكبرى . وحتى اليوم لم يزل البحر مصدرا رئيسيا للغذاء ، ومعقد امال البشرية في تعويض نقص الغذاء العالمي ومصادر الطاقة ، بما تحتويه البحار من اسماك وحيوانات بحرية وبترول ومعادن ثمينة لم تستغل بعد بشكل كاف ، وما تدخره حركات المد والجزر والامواج من امكانيات لاقامة السدود البحرية وتدبير مصادر جديدة للطاقة .

وقد غزا الانسان البحر لاكتشاف المجهول ، وفتح آفاقا جديدة ، واثراء الحياة البشرية ، والقضاء على اغتراب الانسان وعزلته ، وتنمية عوامل الاتصال الانسانية ، ومن اجل تعزيز سيطرته على قوى الطبيعة وترويضها وتوظيفها لصالح البشرية . وكان الادب طليعة لاكتشاف عالم البحر وفهمه وتفسيره . كما اسهم في ارتياده وتسجيل عالمه الجميل المضطرب وابداع النماذج الاسطورية والرومانسية والواقعية المعبرة عن تطور علاقة الانسان بالبحر ، والتي تتراوح بين القوة والضعف ، من ارتياد الطبيعة البحرية وتحديها الى الخوف منها والاستسلام لها . فصاحب ارتياد الانسان للبحار والمحيطات ، ظهور ادب البحر .

واقصد بادب البحر ذلك الادب الذي يستهدف التعبير عن عالم البحر ، والذي يكون البحر موضوعه الرئيسي المؤثر في الاحداث والشخصيات وفي الرؤية الكلية للعمل الادبي . وهو ادب هام يشكل جزءا اساسيا من تراث البشرية وحضارتها . فيضم ادب البحر الاسطورة والملحمة والشعر والحكاية الشعبية وادب الرحلات البحرية والقصة والرواية ، ويجمع في نماذجه بين الشخصيات الاسطورية والشخصيات الواقعية ، بين الرؤية الرومانسية للطبيعة كمجال للهروب والاستسلام كما نجدها عند جان جاك روسو ، وبين الشخصيات البطولية ، التي هي جماع لكل عناصر القوة والذكاء والمغامرة في صراعها مع قوى البحر ، كما نجدها في شخصية « ايخاب » بطل رواية هرمان ملفل « مويس ديك » ؛ وفي شخصية « الطروسي » بطل رواية حنا مينة « الشراع والعاصفة » . وفي هذه الدراسة نتناول اعمال الشاعرين « والت ويتمان » و « ناظم حكمت » التي صورت رؤيتهما لعالم البحر .

والت ويتمان واوراق العشب

في عام واحد (١٨١٩) ولد اديبان امريكيان عظيمان ، هرمان ملفل صاحب ملحمة « موبي ديك » الروائية ، ووالت ويتمان مبدع ديوان « اوراق العشب » من اعظم الاعمال الشعرية في ادب البحر واللجوء الى الطبيعة في العالم ، واكثرها حيوية وتألقا في الادب الامريكي خاصة والادب العالمي بوجه عام . ثم رحلا عن عالمنا في سنتين متتاليتين ، ملفل في سنة ١٨٩١ ، وويتمان في سنة ١٨٩٢ .

ولد والت ويتمان في « لونج ايلند » من ضواحي نيويورك ، لاسرة فقيرة ، فالاب فلاح ونجار صغير ، والام تنحدر من اصول هولندية وقد تلقى ويتمان بعض التعليم الاولي في طفولته بمدارس « بروكلين » التي انتقلت اليها اسرته وقتئذ . ولم يلبث ان ترك مقاعد الدراسة ليلتحق بالعمل في مهنة الطباعة فتقلب في اعمالها وعمل بالتدريس لبعض الوقت حتى ارتقى ليعمل مخبرا صحفيا ثم محررا صحفيا وكاتبا ادبيا في صحف بروكلين ونيويورك . وعندما بلغ سن الحادية والثلاثين اصدر روايته الاولى « فرتكلين ايفنز » غير انها لم تثر اهتماما يذكر . فانتقل للعمل في صحف « نيو اورليانز » وهناك بدأ ينشر قصائده الشعرية ، واشهرها بعنوان « الابحار في المسيسبي في منتصف الليل » ، التي جذبت اليه اهتمام النقاد . ومن ثم عاد الى بروكلين ليشرف على دار للنشر والطباعة ويواصل ابداعاته بكتابة الشعر الحر المتحرر من القافية والوزن ، حتى اصدر ديوانه العظيم « اوراق العشب » (١٨٥٥) الذي صف « ويتمان » حروف طبعته الاولى المحدودة بنفسه . وظل ويتمان يعيد بناء وصياغة كل طبعة من طبعاته بالاضافة والتعديل طوال اربعين عاما حتى صدور الطبعة العاشرة في سنة وفاته ١٨٩٢ . وقد اقبل عليها القراء حتى نفدت جميع الطبعات فور صدورها واثرت تأثيرا عظيما في الحياة الامريكية وفي الادب العالمي ، ويذكر «ويليس ويجر»، في كتابه عن «الادب الامريكي»(١)،

(١) ويليس ويجر ، الادب الامريكي ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

انه اثر في الدور العالمي الذي اخذت تلعبه الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الاولى ، و « ان ويلسن (الرئيس الامريكي) اقتبس نقطه الاربع عشرة المشهورة ـ التي كانت الاساس لختام الحرب العالمية الاولى ـ من ويتمان » .

كذلك لاقى ديوان « اوراق العشب » استجابة واهتماما في العالم بأسره خلال حياة كاتبه ، بدأ من انجلترا التي وزع فيها الديوان على نطاق واسع سنة ١٨٦٦ ، وقد تأثر به كل من باوند واليوت في اشعارهما اللاحقة الى المانيا التي قرأت الديوان ابتداء من سنة ١٨٦٨ بترجمة الشاعر الالماني « فرديناند فرايلجراث » وترجمات وطبعات متعددة . اما الترجمة الالمانية الصادرة بعد الحرب العالمية الاولى سنة ١٩٢٢ فقد عدها الاديب الالماني الكبير توماس مان « هدية عظيمة ، هامة ، ومقدسة حقا » . كذلك اهتم بترجمة الديوان الى اللغة الروسية كل من تولستوي وتورجنييف فطبع في عشر طبعات حتى سنة ١٩٤٤ . ووصف الامير ميرسكي «ويتمان» بانه « كان اخر شاعر عظيم في الحقبة البورجوازية من تاريخ البشرية ، فهو اخر السلالة التي تبدأ بدانتي ... وهو مجدد عظيم حقا ، بل هو اعظم مجدد عرفه الشعر » . وشبهه الشاعر الاسباني العظيم لوركا بلحية ويتمان الذي خرجت منها فراشات الشعر الامريكي مثلما خرجت القصة الروسية من معطف جوجول ، وظل الديوان يؤثر برمزيته في عشرات الشعراء والادباء في الشرق والغرب من « لافورج » و « اليوت » غربا الى « طاغور » شرقا . وفي الوطن العربي صدرت ترجمة وحيدة لمختارات من اشعار « اوراق العشب » بقلم الشاعر العراقي سعدي يوسف(١)؛ الذي اعتبر ويتمان شاعر امة في دور نهوض » ، و « شاعر ثورة شعرية امتدت الى اوروبا وآتت كلها ، فقصيدة النثر ما كان لها ان تشق سبيلها الاوروبي لولا اسهامة ويتمان الكبرى .. » والى هذه الطبعة ترجع المقتطفات الواردة هنا .

قال ويتمان : « لن يستوعب احد اشعاري اذا اصر على اعتبارها

---

(١) والت وايتمان ، اوراق العشب ، ترجمة سعدي يوسف ، ص ١٠ .

انجازا ادبيا ، او محاولة انجاز ادبي ، او استهدافا للفن والجمالية » .
لان قصائده رمزية مثل رمزية رواية ملفل « موسى ديك » . ولانه ينشد الخلق لا الرصد ، والكشف لا التسجيل واعادة التكوين لا النقل . وفي هذا الاتجاه يقول الناقد الامريكي « تشارلز فيدلسون »(١) — في كتابه « الرمزية والادب الامريكي » — عن منهج ويتمان الجديد ومغزاه : « نهض منهجه الجديد ليس فقط على حس الرؤيا الخلاقة — وهي نفسها سياق يقضي الى عالم في سياق — وانما ايضا على حسن التلفظ الخلاق كجزء لايتجزأ من ذلك الوعي » ان (الانا) في قصائد ويتمان تتكلم العالم الذي تراه ، وترى العالم الذي تتكلمه ، التي يشارك فيها القارىء . وان معظم قصائد ويتمان ، بشكل صريح غالبا ، رحلات بالمعنى الميتافيزيقي . وقد كان هذا نوع ويتمان ، نظريته الجديدة في التأليف الادبي للاعمال التخيلية ويشبه « تشارلز فيدلسون » رحلة ويتمان برحلة « آخاب » بطل « موبي ديك » الرمزية ، في تجاوز كل الرحلات البحرية . « فالمياه العميقة » لدى ويتمان هي بعد كل شيء « بحار الله » . ويضيف فيدلسون « ان العداء للعقلانية في الرحلة الرومانتيكية استعراض ارادي للمشاعر ، فالبحر الرومانتيكي صورة عالم خاضع للانفعال . لكن الرحلة الرمزية سيرا صيرورة . ان ويتمان اقل اهتماما باستكشاف الشعور منه باستكشاف زي الوجود . وهكذا فان قصائده ليست فقط عن الترحال ، بل تفعل الرحلة بحيث يكون محتواها او صورة الرحلة الميتافيزيقية انعكاس بالاساس للمنهج الادبي الذي يصير فيه الكاتب وموضوعه جزءا من اللغـة » .

تجمع اشعار والت ويتمان بين الرمزية والواقعية والرؤية الكونية الشمولية ، وتتميز بحب الطبيعة والتغني بالعودة اليها ، من منطق واقعي ينهض فيه الرمز على اساس معطيات الواقع ومحسوسات وشخصياته ، ولعل اجمل قصائد ويتمان المعبرة عن حبه الحر والد واللجوء اليها والممثلة لمنهجه الشعري الحر المرسل ، قصيدته «

---

(١) تشارلز فيدلسون ، الرمزية والادب الامريكي ، ص ٢٨ .

نفسي » المكونة من اثنين وخمسين مقطعا . ففي هذه القصيدة يلجأ ويتمان الى الطبيعة والى البحر والى السفن المبحرة ، بعد ان استوعب جيدا هموم البشر والمدن التي استعرضها في قصيدته اعتمادا على تمرسه بالواقع الامريكي . فانه يلجأ الى الطبيعة والبحر ليس رفضا للحضارة والمدنية ، كما كان يفعل روسو في لجوئه الرومانسي الى الطبيعة ، ولكن تحقيقا للثورة والديمقراطية والعدالة ، وطموحا الى عالم جديد اكثر جمالا وعدالة وحرية . ففي المقطع الرابع من قصيدته « اغنية نفسي » (١) يعبر « ويتمان » عن معاناته للهموم اليومية الواقعية قائلا :

الجوابون والسائلون الذين يحيطون بي
والناس الذين القى
وميسم حياتي الاول
والحي ، والمدينة ، اللذان اعيش فيهما
او الامة
والمواعيد الأخيرة ، والمكتشفات والمخترعات والمجتمعات
والمؤلفون : الجدد والقدامى
وطعامي وملابسي ومعارفي ونظراتي وتخيلاتي وفعالي
التجاهل الحقيقي او المزيف لرجل ما او امراة احبها
مرض قريب لي ، او مرضي انا
او العمل الرديء
او خسارة المال ، والحاجة اليه
او الخذلان او الازدهار
المعارك وفظائع حرب الاشقاء
وهي الانباء الغامضة ، والاحداث القاسية ـ
هذه كلها ... تأتيني اياما وليالي ... وتغادرني
ولكنها ليست انا نفسي

---

(١) ورق العشب ، الترجمة العربية ، من ص ٦٢ الى ص ١٤٦ .

وهكذا يحدد ويتمان ملامح معاناته الانسانية ، ويرنو الى الصدق والبراءة والعدالة والحرية والجمال ؛ في المقطع الثاني والعشرين من قصيدته ، وكلها توق الى البحر الذي يداوي كل جراحات الارض وعذاباتها وهمومها . انه ينادي البحر ، نداء الخلاص :

وانت ايها البحر !
اني اتطامن اليك ايضا ..
اني اخمن ماتعني
اني امسك من الشاطىء باصابعك الملتوية التي تدعوني
اني اومن بانك ترفض الارتداد دون ان تحس بي ...
اذن ...
فلنأت دورنـا :
اتعـرى ...
فابعدني عن مراى اليابسة
واضجعني الضجعة الناعمة
ولتؤرجحني في نعاس متماوج
ولتغمرني بالرطوبة العاشقة ...
فانا اقدر ان ارد لك الجميل .
يابحر جراحات الارض المديدة
ايها البحر المتنفس انفاسك الواسعة المتشنجة
يابحر دموع الحياة
والقبور المنتظرة التي لم تحفر بعد
يامثير العواصف ايها النزق والمرهف
انني مثلك
ذو الوجه الواحـد
وذو كلّ الوجوه .

وفي المقطع التالي من القصيدة (الثالث والعشرين) يمضي ويتمان فيؤكد انه يقبل بحقائق الواقع والعلم ، ويقر بان اعمال الكيماوي ومؤلف المعاجم والجيولوجي والبحار كلها اعمال نافعة ومفيدة ، ولكنها لاتشكل عالمه الاثير ، عالم المساواة والديمقراطية والحرية :

ايها السادة ، لكم التشريف الاول ، دائما !
ان حقائقكم نافعة ، لكنها ليست مسكني
الذين يذكرونني بالممتلكات .. لايخبرون كلماتي الا قليلا
اما الذين يذكرونني بحياة لم تعرف ، وبالحرية ، وبالخلاص
فهم يخبرون كلماتي بالكثير
ولايتحدثون كثيرا عن الخنثى والخصي
ويفضلون الرجال والنساء الاكفاء
ويرقون صنج الثورة النحاسي
ويقفون مع المشردين
ومع اولئك الذين يكيدون ويتآمرون

وفي المقطع الرابع والعشرين من القصيدة يحدد ويتمان هويته ومنطلقاته الواقعية بوضوح شديد :

والت ويتمان
مواطن العالم
ابن مانهاتن ...
فائر ، جسدي ، شهواني
ياكل ، ويشرب ، وينجب
انه ليس عاطفيا
ليس متعاليا فوق الرجال والنساء
وليس بعيدا عنهم .

ثم يقول :

انني اقول كلمة السر البدائية
واعطي شارة الديمقراطية
ووالله ... ماقبلت شيئا لن يناله الاخرون .. سواسية .

هذا هو والت ويتمان بكل وضوح ، في انطلاقه الواقعي نحو البحر والطبيعة .

ان اردت ان تفهمني ، فاذهب الى الاعالي
او الى شاطىء البحر
حيث اقرب بعوضة شرح

وحيث الفطرة ، ونأمة الموج .. مفتاح
وحيث القدوم ، والمجداف ، والمنشار اليدوي ، عون كلماتي.
لا احب الغرف المسدلة الستائر ، ولا المدارس
احب المساكن الخشنة والاطفال .
الميكانيكي الشاب ، هو الاقرب الي ... انه يعرفني حقا
وقاطع الاخشاب الذي يتناول فاسه.. ويعمله.. سيصحبني
طوال النهار
وصبي المزرعة الذي يحرث في الحقول يرتاح لسماع صوتي
في السفن المبحرة ، تبحر كلماتي ...
انني امضي مع الصيادين والبحارة ...
واحبهم .

وفي مقطعين متتاليين من قصيدته الطويلة « اغنية نفسي » يصور ويتمان المعارك البحرية مع السفن الانجليزية في حرب الاستقلال الامريكية . في المقطع الاول يسجل بالشعر رؤيته لمعركة بحرية بين الامريكيين والانجليز ، وهي معركة قاسية متكافئة انتهت بتسرب المياه الى السفينتين وانتهت بلجوء البحارة الامريكيين الى سفينة امريكية ثالثة . ثم يعبر ويتمان في المقطع التالي عن النهاية المأساوية للمعركة البحرية التي اسفرت عن أشلاء اللحم البشري وأنين الجرحى والدمـاء .

تمددا ، وساكنا ، يرقد منتصف الليل
شبحان عظيمان السفينتين ، بلا حراك ، فوق صدر الماء
سفينتنا المنخوبة بالقذائف تغرق شيئا فشيئا
نحن نستعد للانتقال الى السفينة التي استولينا عليها
والقبطان يصدر أوامره رزينا
ابيض الوجه مثل ورقة
وقريبا ... جثة صبي القمرة
والوجه الميت لبحار عجوز ، ذي شعر ابيض ، وسالفين متقني التمشيط
واللهيب يندلع من كل شيء ... مرتفعا ، وهابطا

والصوت المبحوح لضابطين او ثلاثة ما يزالون قادرين على العمـل

اكداس لا شكل لها من الاجساد
واجسـاد منفـردة
ومزق من اللحم على الصواري والاعمدة
حبال مقطعة ، وحواجز متدلية
وضربات خفيفة من نعومة الامواج
مدافع سود هامدة
ونثير من اكياس البارود ، ورائحة نفاذة
نجوم واسعة قليلة ... تشع حزينة صامتة
انفاس رقيقة من نسيم البحر ...
روائح السـعد ، والحقول القريبة
وسائل الموت يتعهدها الناجون
هسيس مبضع الجراح ، واسنان منشاره الماضية في اللحم
اندفاق الدم المنهمر ، والصرخة الوحشية القصيرة
ثم الانين الطويل الكابي ...
ها هو ذا ... ما لا يستعاد .

فالذي يستعاد من المعارك البحرية هو ماصوره ويتمان في المقطع الاول من قصيدته معارك البطولة والنضال ، ولكن مالا يستعاد هو الضحايـا والاشلاء والدماء والانين . وقد ضمنها ويتمان المقطع الثاني عبر صوره الشعرية الصادقة والجميلة ، صور البحر الفاتنة الرقيقة . فالامـواج صارت ناعمة بجانب المدافع السوداء الهامدة ، ونسيم البحر راح يطلق انفاسا رقيقة تحمل روائح السعادة في مواجهة رسائل الموت والقتل والذبح والدم . لهذا يلجأ ويتمان الى البحر ، للخلاص من الجراح الارضية . هذه الرؤية المتدفقة للبحر عبر عنها ويتمان في كثير من قصائد ديوانه العظيم « أوراق العشب » ، كما في قصيدته « معجزات » :

ارى البحر معجزة مستمـرة
الاسماك ــ الصخور ــ حركة الامواج

والسفن ذات الرجـال
ترى ... كم من المعجزات هنـاك !

ومثل قصيدته « السفينة تقلع » ــ

انظــر !
ها هو ذا البحر الذي لايعرف حدودا
على متنه تقلع سفينة
ناشرة كل اشرعتها
حاملة حتى اشرعتها القمرية
والراية تخفق عاليـة .
وعندما تسرع ، تسرع وفـورا
تندفع تحتها الامواج المتسابقة
انها تطوق السفينـة
بالاندفاعات المشرقة المتقوسة
والزبـد .

فالبحر معجزة مستمرة تحتوي الامواج والسفن والصخور والاسماك ، انه انطلاق بلا حدود ، الى عالم ويتمان الجديد ، عالم الخلاص والحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية .

ناظم حكمت والبحر

ناظم حكمت ، (١٩٠٢ ــ ١٩٦٣) شاعر تركي مناضل بالشعر والسلوك ، اشتراكي من اسرة ثرية . فجده محمد ناظم باشا كان واليا تركيا على سوريا ، وعمل ابوه حكمت مديرا للمطبوعات وقنصلا لتركيا في هامبورج ، وكانت امه رسامة ثرية . تعلم في مدارس استانبول الابتدائية والثانوية ثم التحق بمدرستها البحرية العسكرية سنة ١٩١٩ غير انه لم يلبث ان غادرها لاسباب صحية . وعندما احتل الحلفاء استانبول في سنة ١٩٢٠ انضم ناظم حكمت الى صفوف المقاتلين وشارك في حرب الاستقـلال

التركية ، وكتب في هذه السنة قصائده الاولى متأثرا بفقراء الاناضول ومعارك الحرب . لذا جاءت قصائده مفعمة بروح النضال والايمان بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، ومتميزة بالثورة على العروض الذي يقيد الشعر التركي التقليدي والذي وجده ناظم حكمت غارقا في الموضوعات التقليدية ايضا من المواعظ والحكم الى المدائح الصوفية والآهات ، كما يقول حنا مينه في كتابه عن ناظم حكمت . وقيل ان كمال اتاتورك تعرف به خلال اشتراكه في حرب الاناضول ، وانه استمع الى بعض قصائده وبخاصة قصيدته « بحر الخزر » التي سنتناولها بالتحليل فيما بعد ، وانه اوفده لدراسة الشعر في الاتحاد السوفييتي ، حيث أمضى أربع سنوات من ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ درس خلالها في معهد الشعوب الشرقية بموسكو وتأثر بالشعر الروسي وبمايكوفسكي على وجه الخصوص .

ولدى عودته الى تركيا المستقلة شارك ناظم حكمت بكل قواه ومواهبه الشعرية في النضال ضد الرجعية التركية وفي سبيل الحرية والاشتراكية . وقدم خلال السنوات من ١٩٢٥ ـ ١٩٣٦ انجازاته وتجديداته الشعرية على صعيد الشكل والموضوع ، لعل اهمها ديوانه « ٨٣٥ سطرا » الذي يعتبر نشره حدثا هاما في تاريخ الادب التركي ـ كما يقول اكمل الدين حسان في مقدمة ترجمته لمسرحية حكاية حب ـ وبداية مرحلة جديدة في شعر ناظم . فقد هجر العروض والوزن التركي المعروف باسم (هجا) ، الذي يعتمد على تكرار عدد معين من المقاطع الصوفية ، واصطنع فيه وزنا متحررا من التعقيدات العروضية ، وادخل نمطا جديدا من الايقاعات ومن المقاطع المتدحرجة التي تتدفق من أول القصيدة ، وتظل تتغير وتتزايد حتى نهاية القصيدة . واضاف ناظم بذلك جديدا الى تاريخ تطور الشعر التركي الحديث ، الذي بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر في طرح ذلك الجمود الذي لحق به خلال القرن الثامن عشر حتى صار قوالب وصورا متكررة ، وامده برافد عظيم من التجديد . وبهذا وجد ناظم الشكل الشعري الذي يتفق مع المضمون الثوري الدافق الذي عبر عنه في اشعاره .. » هكذا امتزج نضال الشاعر ناظم حكمت بمواقفه وشعره بسلوكه وفكره ، ومن ثم اقترن التجديد في الشكل بالمضمون الثوري الجديد .

وفي الفترة من ١٩٢٩ الى ١٩٣٦ ابدع ناظم حكمت ستة دواوين شعرية « جوكوند وسيا او » ، « الواصل : ٢٣ » ، « المدينة التي فقدت صوتها » ، « لماذا قتل يزجي نفسه » (قصة كفاح مناضل هندي فـي كلكتا) ، « صور » ، « رسائل الى ترانتا بابو » (وهي رسائل من فنان حبشي الى زوجته ترانتا بابو قبل ان يعدمه الفاشيست في روما) كما كتب ثلاث مسرحيات شعرية « الجمجمة » ، « بيت ميت او منـزل المرحوم » ، « الرجل المنسي » .

وعندما اخذ ناظم حكمت يهاجم النازية والفاشية في كتابه « الفاشيـة والعنصرية الالمانية » ، وفي ملحمتيه الشعريتين « ملحمة الشيخ بدر الدين ابن قاضي صماونة » و « الكبرياء القومية » ، ويحذر من تحالف تركيا مع المحور النازي الفاشستي ، قبض عليه وحكم عليه بالسجن ثمانيـة وعشرين عاما ، قضى منها اربعة عشر عاما في السجن من ١٩٣٧ — ١٩٥٠، وفي نهايتها اضرب عن الطعام حتى الموت ، وافرج عنه استجابة لنداءات كتاب وشعراء ومثقفي العالم . فهاجر الى الاتحاد السوفييتي حتى توفي به عام ١٩٦٣ .

وتعد هذه السنوات من (١٩٣٦ — ١٩٦٣) اعظم سنوات حياته ثـراء بالابداع الشعري ، وخلالها كتب ناظم حكمت مجموعة مـن الاشعار والرسائل النثرية والشعرية الموجهة الى زوجته ، التي يعمل كل مـن د . نجاح العطار وحنا مينه حاليا في ترجمتها الى اللغة العربية ، كمـا ابدع ملحمته الشعرية « حرب الاستقلال الكبرى » سنة ١٩٤٠ ولـم يقدر لها النشر الا بعد وفاته بعامين ، في سنة ١٩٦٥ ، واشعار « مشاهد البشر في بلادي » ، ومسرحيته « حكاية حب اوفرهاود وشيرين » . وقد حملت هذه الاعمال جميعها صوت الشاعر المبدع المجدد والمناضل .

ولناظم حكمت قصائد جميلة في ادب البحر وعالم البحر ، لعل اهمهـا قصيدته « العودة للبحر » و « بحر الخزر » . وقد اثرت القصيدتان تاثيرا حاسما في روائي البحر العربي حنا مينه . واذكر انني سألتـــه سؤالا مباشرا عن مدى تاثره بهاتين القصيدتين عند كتابته لروايتـــه البحرية « الشراع والعاصفة » واوضحت له ملاحظاتي حول التشابه

بين بعض ابيات قصيدة « بحر الخزر » وبعض نقرات رواية « الشراع والعاصفة » ، مثل هـذه الفقرة مـن رواية « الشراع والعاصفة » : « انشختورة تعلو ، الشختورة تهبط ، والظلمة دامسة ، جدار من فحم، والموج شلال يتساقط فوق خشبة تغرق في المصب المزبد ، وشختورة الرحموني تدور مع الاعصار : تعلو ، تهبط ، تعلو ، تهبط ، وهو يجلس القرفصاء حول السكان ، ويداه تتمسكان بالدفة بعناد : لـن اتركهـا مهما حدث ، سنموت معا أو نخلص معا » . وهذه الابيات من قصيدة « بحر الخزر » :

القارب صعدا يعلو
القارب يهبط يعدو
النوتي التركماني . .
كتمثـال
بــوذا ! !
صلدا يجمد كالتمثال
قرفص عند الدفـة
البحر الغاضب يحكمه
يطويـه
لا يصرعــه
ابدا لن يخضع للخــزر
قد آمن مذ امسك
بالسكان
هو بـوذا
صلدا . . اصبح كالتمثال

لاشك ان التشابه واضح في هاتين المقطوعتين من رواية حنا مينه وقصيدة ناظم حكمت . وبطبيعة الحال ان هذا لايقلل من روعة البنـاء الروائي ورسوم الشخصيات الروائية التي ابدعها حنا في روايته البحرية الفذة « الشراع والعاصفة » .

وعندما سألت حنا مينه عن مدى تأثره في رواية « الشراع والعاصفة »

بقصيدتي ناظم حكمت « بحر الخزر » و « العودة للبحر » ، وافقني حنا قائلا : « لايستطيع الكاتب ان يكون بمنجاة عن التأثير بالادباء الذين سبقوه سواء كانوا من وطنه أو من العالم » واني لاعتبر هذا التأثر ضروريا اذا لم يبلغ درجة ان المحاولة لتقمص شخصيته أو شخوص اي من الادباء الذين تأثر بهم الكاتب . ان عملية التأثر هنا تحدث في غفلة وتتم لحساب نضجه الشخصي فكريا واداء » . ثم زاد ايضاحا : « واذا كان هناك ملمح لليرمنتوف او لناظم حكمت في بعض ما كتبه عن البحر فهي ملامح محددة في جمل صغيرة استعنت بها وربما خلال الوصف للعاصفة » . وهذا يؤكد تأثر حنا مينه بناظم حكمت ، ولا يقلل من شأن تفرده بالابداع الروائي في ادب البحر العربي .

البحر عند ناظم حكمت حياة وقوة ونضال وتحقيق لذات الانسان، ومجال لاثبات قدرته على مواجهة قوى الطبيعة المتمثلة في امواج البحر ورياحه وعواصفه . وفي قصيدته الجميلة « العودة الى البحر » يعبر ناظم حكمت عن حبه لعالم البحر وعن رؤيته له في صور شعرية متدفقة . ففي البحر يجد الشاعر فرصة عمره لنزاله والالتحام بسفنه التي صنعها الانسان بموهبته وعلمه في معارك الصراع مع البحر . انه لايهاب البحر لانه يطاوله ، ولايهاب الموت في البحر ، لان الموت قدر اكيد لامفر منه ، بل انه ليحب ان تكون نهايته في قلب البحر . لهذا هو يغني للعودة للبحر، ومياهه الزرقاء اللامعة كالمرآة ، فمرحبا بالبحر والسفن والامواج والعواصف ، كما يقول ناظم حكمت في قصيدته « العودة للبحر » :

كم أرجو العودة للبحر
للبحر أعود
كي اشهد في مرآة البحر الزرقاء
اني اطويـه
واطاولـه
يا للعودة للبحر
تغدو السفن وتأتي
راقصة في انوار المشرق

فاذا امتلأت اشرعة السفن
بريح الاشراق
وتوتر قلع أبيض
وتصدع وجه اليم
وتمـزق صدره
فهناك تطل الفرصة
فرصـة عمـري
كي اعلو متن السفن
كي أحميهـا
واغيـب ..
في اضلع تلك السفن
واذا كان الموت أبـدا
قـدرا لاذب ..
لامهرب منـه
كم يحلو لي ان أهوي
في قلب البحر
كي أطفىء في لجته الشعلة
كشعاع الشمس الاحمر
عند الغـروب
في جوف اليم يغوص
كم ارجو العودة للبحر
للبحـر أعـود
للبحـر اعـود

ومع أن قصيدة « بحر الخزر » من القصائد الاولى التي كتبها ناظم حكمت في بداية العشرينات ، الا انها لم تفقد جمالها وريادتها في ادب البحـر ، لانها قصيدة انسانية رائعة لصور الابحار في بحر الخزر على ظهر قارب تصويرا دراميا ، يتمثل فيه الصراع بين القارب وامواج البحر وتقلباته وبين الربان التركماني ، وتتابع الصور الماخوذة من قلب العاصفة البحرية ، والبحر الهائج .

في قصيدة « العودة للبحر » كانت مياه البحر زرقاء لامعة وهادئــة كالمرآة ، وكانت اضواء السفن تنعكس على صفحتها ، اما في قصيـدة « بحر الخزر » ، فالبحر في قمة غضبه وتوتره وعربدته ، هنا يخلـع البحر هدوءه ويحاور الريح ويزار عبر امواجه ، هنا يكشف البحر عن وجه آخر قاس مجهول يعلو القارب ويهبط به والربان يمسك بسكين الدفة قويا صلدا ثابتا كالتمثال ، قويا كما هو انموذج رجل البحر دائما في اشعار ناظم حكمت ، ذلك الربان الذي يثبت عينيه في الافق غير مبال بحركة الامواج او بعنف الريح ؛ انه فارس عنيد على ظهر جواد يشـق مياه البحر كما يشق الفارس بجواده تيار الريح . ومع ذلك فان ناظـم حكمت ينصحه بالحذر من غدر البحر والاعيب الامواج وعنف الريح ، لان البحر قدره فالذي يولد في خضم البحر يدفن فيه .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

البلبل الشجاع

قصص للاطفال
تاليف : عبدو محمد

■ ■ ■

١٠١ قصيدة من شعر الاطفال

ترجمة : عبد اللطيف الارناؤوط

■ ■ ■

بيل وسيباستيان

القسم الاول
رواية للاطفال واليافعين

تاليف : سيسيل اوبري

ترجمة : زياد العودة

زاد المسافر
في زمن مكسور الجناح

قصة : محمد يوسف القعيد

● كنت قد قررت بيني وبين نفسي ، ذات صباح ، ان الامور لم تعد تطاق ، خرجت من اعماق سريري ، فتحت نافذة حجرتي . كان الامر محيرا ، ان كل ما في الشارع يبدو على ما يرام ، اغلقت نافذة حجرتي الصغيرة ، احضرت مرآة عتيقة ، مشروخة من المنتصف تماما ، وضعتها قبالتي وجلست ، ورحت اناقش كل الامور مع الجالس امامي ، كان بين اصابع كل منا قلم رصاص مفرطح السن ، وتحت يده ورقة ، ارتفع صوت كل منا ، بحثنا ، درسنا ، ودونا بعض النقاط الهامة خلال الحديث الدائر ، وقبل النهاية ، اتخذنا القرارات ، وتعاهدنا على تنفيذ كل شيء بدقة ، قمت ، وقفت ، ابتسمت ، حييت الجالس امامي ، بادلني التحية ، وكان هو الآخر قد قام ، وابتسم لي ، استاذنته في العودة الى الفراش ، وفعل مثلما فعلت ، ورحنا نثرثر ، وعندما تعبنا من الثرثرة ، قلنا نحن الاثنين ، في صوت واحد : النهار متاهة ، لا اول ولا آخر ، والليل بحر الخلاص .

■ ■ ■

في ليلة الامس ، اتاني مولاي ، في الرؤيا .
كان الجمع مكتملا .
سألنا مولانا الشيخ ، عما آلت اليه الحال .
ومن وسط الصمت ، قال كل منا كلمة .
قال احدنا :
ـ الحال على خير ما يرام .
وقال آخر :
ـ ليس في الامكان ابدع مما كان .
وتفلسف ثالث :
ـ اذا لم يكن ما تريد ، فأرد ما يكون .
وتمتم رابع وهو يغمض العينين :
ـ الحال معنى يرد على القلب ، من غير تعمد ولا اجتلاب .
وقلت لهم :
ـ الوقت هو وقتك الذي أنت فيه ، كوقت الدنيا ، ووقت السرور ، ووقت الحزن .
سألنا مولانا ، عما يجب علينا عمله ، قال احدنا :
ـ يجب ان نقول رأينا في كل شيء .
وقال آخر :
ـ ان الصمت موقف بحد ذاته .
وقلت لهم :
ـ يجب أن نعيش الوقت والحال بقلوبنا .
قال مولانا ـ وكانت تلك آخر كلماته ، ان كلماتنا فارغة من المعنى .

ان خير ما نفعله ـ قال مولانا هو ان نتفرج على كل شيء ، ومطلوب لكل منكم عينا صقر ، مطلوب له ، ان يملأ نصف قلبه الايمن بالصبر ، وان يملأ نصف قلبه الايسر باللامبالاة ، ثم يجلس بعد ذلك كي يتفرج على ما يحدث ، ومن ثم تصبح كل الكلمات تعليق على ما يحدث .

رفعنا عيوننا المثقلة بالدهشة نحو مولانا ، غير انه كان قد مات ، امتدت يد أكثرنا جرأة ، وامسكت عينيه ، وغطت وجهه بملاءة بيضاء .

ثم قمنا ، وذهب كل منا لحال سبيله .

■ ■ ■

في الصباح ، تتقيأ مدينتنا اهلها ، وجوها مهمومة ، وعيونا تدور في محاجر حزينة ، في سرعة ووجل ، رجالا ونساءا ، صبية صغار ، غير أن مدينتنا حين يقبل الليل ، تتعشى بأهلها ، فردا ، فردا ، فردا .

ذلك ما يحدث كل يوم .

في الصباح ، قمت من نومي متعبا ، لم اكن قد توصلت الى قرار السفر الا منذ يومين ، انا لا اسافر الى البلدة كثيرا ، اكتفي عادة بكتابة الخطابات، اضع بداخلها الشوق لرؤياهم ، والسؤال عن الصحة والحال ، والسلام لهم جميعا فردا ، فردا ، وكل باسمه .

كانت الحال قد ضاقت بي الى ابعد الحدود ، واحسست ان كل شيء قد غدا في ثقل الرصاص ، الارض والشوارع والبيوت والناس وهواء آخر الليل . وحتى فراشي الصغير ، كنت ادرك انني اموت ، وان الاستيقاظ في الصبح ، يعني الميلاد الجديد .

ومن ليلة الامس ، لم يكن هناك شيء اعمله ، كنت احس بطعم الفراغ لزجا على طرف لساني . ارتديت ملابسي ، نزلت ، لم يكن في ذهني مكان معين اذهب اليه ، صعدت الى حجرتي ، اكتشفت ان في المنزل المقابل رجلا عجوزا يراقبني ، فخجلت من نفسي ونزلت .

بعد ان صحوت من نومي ، اغتسلت ، تناولت إفطاري . شربت شاي الصباح ، حملت حقيبتي ونزلت ، وفي المحطة ، ركبت القطار ، كان القطار مزدحما ، احسست بالاختناق رغم انني اجلس بجوار النافذة ، كانت المحطة مسقوفة بغطاء سميك مرتفع ، ولم استطع ان ارى قطعة صغيرة من السماء .

تحرك القطار . خرجنا من تحت السقف ، هبت نسمة هواء مفاجئة ، غيبت وجهي في صحيفة الصباح ، هدهدت حركات القطار الرتيبة جسمي ، فرحت اقرا واغفو ، وكانت اعمدة التليفون والاشجار تجري الى الخلف مسرعة ، وكان خط الافق في حركة دائرية بطيئة ، مركزها القطار ، لم يكف الناس حولي عن الكلام ، قال احدهم ان صيف هذا العام سيكون حارا ، مؤكدا كلامه ، بأن الشتاء ، كان جافا ، تحدثوا عن الحرب ، وعن غلاء الاسعار ، والبضائع المستوردة ، وارتفاع تكاليف

العيش ، وعن البضائع التموينية في الاسواق ، وترحم عجوز على أيام لم يعشها سواه ، ثم شتم هذا الزمان البخيل .

كان يقف أمامي صبي صغير ، وعند حضور المحصّل ، طلب من كل منا تذكرته ، لم يكن معي تذكرة ، أخرجت له نقودي في صمت ، وبعد ان أعطاني القسيمة ، لكز الصبي في جنبه ، لم يرد عليه ، كرر طلب التذكرة بصوت عال ، غير ان الصبي لم يسمع ، وعندما لكزه ، مد له الصبي يديه ، كان في اليد اليمنى ورقة مطبقة بعناية شديدة ، وعليها آثار عرق اليدين ، وفي اليد الثانية ، مبلغ خمسه عشر قرشا ، وفي صمت أخذ منه المحصل الورقة والنقود تطلعت عيوننا اليه ، أخذت منه الورقة ، كان بها عناوين رجال وسيدات ، ومدير مركز تأهيل الصم والبكم ، سكرتير رابطة رعاية ابناء المحافظة . وفي ذيل الورقة الكبيرة ، كان مكتوب بخط غير واضح سيدي الكمساري ، ارجو إنزال حامل هذه الورقة في محطة بنها ، حيث توجد أسرته وأهله ، ولا تنسى ذلك ، والاجر والثواب عند الله . ورغم الزحام . وخيوط العرق المنزلقة فوق وجه المحصل . والغضب الذي كان يطل من عينيه ، الا انه رد الورقة والنقود الى الصبي الصغير ، وتركه ومضى .

تسرب النهار والقطار يجري . ورحت أنتظر الليل .

كنت وحيدا .

■ ■ ■

في القطار ، شعرت بثقل في راسي . فغفوت قليلا ، كان الهواء ينزلق على ملامح وجهي المجهدة . رأيت أهل مدينتي يجرون ، وكأنهم قد أصابهم مس . كان الامر غريبا ، عندما اقتربت منهم . كان يبدو في يد كل منهم ، وبين أسنانه ، قطعة من لحم اخيه أو جاره ، كان اللحم شديد الاحمرار . وكانت نقاط الدم القانية تتساقط على الملابس والارض والايادي وبين أسنان الرجال والنساء والاطفال كانت بقايا قطع اللحم تبدو بين الاسنان ، وفي مكان الكتف من كل شخص ، كان هناك تجويف غائر ، تبدو في عمقه قطعة صغيرة من العظام البيضاء .

ـ استاذ أنت مسافر فين ، بنها فاتت .

صحوت من غفوتي مذعورا ، تذكرت عندئذ انه كان هناك أمرين لم اتبينهما جيدا ، هل كان في يدي قطعة لحم ، ومن لحم من ، ورحت أتحسس كتفي ، فوجدته سليما ، غير انني حزنت غاية الحزن بسبب لا ادريه .

اهل مدينتي غريبو الاطوار .

في المساء ، يرتدون ملابس الخروج ، وفي الشوارع المزدحمة ، يتمشون ، تدوس اقدامهم في بلادة ارضية الشوارع ، يرفعون اياديهم ، يخفضونها ، يطحنون الكلمات في افواههم قبل النطق بها ، وفي المقاهي ، يجلس الرجال ، يلعبون النرد ، يدخنون ، يشربون الشاي ، وفي لحظات قصيرة ، يقتربون من بعضهم بعضا ، يقولون رأيهم فيما يحدث خلسة ، وبصوت منخفض ويحوم حولهم هم مفاجيء ، وتزور العيون من المحاجر . ويرتفع صوت مسلوخ من وسطهم .

ـ سمعتم آخر نكتة .

ـ لا والله .

ويلمع في العيون بريق مفاجيء ، وتتحرك يد المتحدث ، ويقول لهم آخر نكتة ، ويضحكون ، ضحكات غير مكتملة الخلقة ، فجاة . يكتشفون ، انه لم يعد هناك ما يقال ، وينظر كل منهم ناحية الآخر ، وعندما تلتقي العيون، يبادرون بالهروب ، ويعبثون باصابع اياديهم في خجل ، ويكتشفون انه لم يبق أمامهم سوى أن ينصرف كلٌ منهم لحاله .

ـ الى اللقاء .

ـ نلتقي مساء غد .

ومن حجراتهم المبطنة بالقهر ، يتخففون من ملابس خروجهم ، يخرجون من جلودهم الخارجية ، ويرتدون ملابس النوم ، وفي حجرات نومهم ، يقراون صفحة او صفحتين من كتاب عجوز ، ويضعون علامة عند آخر كلمة ، ويغلقون كتبهم ، يكبس عليهم احساس هرم بالنهاية ، فيطفئون الانوار ، وقد يتبادل الرجل كلمات مع زوجته ، وهنا فقط ، يقول الرجل لزوجته رأيه في كل شيء ، ولا يخفض صوته ولا تدور عيناه في اركان

الدنيا الاربع قبـل ان يبدا الكلام ، وفي منتصف الليـل ، يصبح النوم كالاغماء ، وتسبح الاجساد في بحار العرق ، ويتخيل الرجال القلقون ، وهم نيام في اسرتهم ، ان في حجرات نومهم رجال غرباء . يقولون هم ايضا رايهم في كل شيء ، يقولون لانفسهم ، ان الامور لا يمكن أن تصل الى هذا الحد ، ويستيقظون ، يضيئون الانوار فجاة ، يكتشفون ان حجرات نومهم خالية تماما ، ليس فيها احد غريب ، فيضحكون في مرارة .

■ ■ ■

قلت لمحدثي ، ان ما يحزنني هو انني وحيد ، حاول ان يتكلم موضحـا الامر ، رفعت يدي مقاطعا إياه ، وقلت له ، ان هناك شيئا ما . مثل ضربة الشمس ، تواجهني اينما اتجهت ، قلت لمحدثي . انني في كل مساء بعد التطواف اليومي في شوارع مدينتي ، اعود ، وفي حجرتي الصغيرة ، احسب كل الامور بدقة ، اجمع واطرح واقسم واضرب ، اربط المسببات مستخلصا النتائج ، اقتنص كل مظاهر الواقع .

وفي الصباح،افاجا بشيء جديد،عفوي وغريب وغير محسوب،فيهدم كافة حساباتي الليلية. قلت لمحدثي،انني في هذا الصباح،طفت في ارجاء مدينتي الواسعة،حدقت في كل العيون،وبحثت في الوجوه،فادركت ان هناك،تحت الجفون ، شيء خبيث ، انتفاخ ، تورم ، حزن هرم عجوز ، وان ذلك لا يبشر باي خير ، قلت لمحدثي ، لا تغضب مني ، ذهبت في الصباح ، الى ذلك المكان ، كانت تجلس هناك ، كانت تضحك ، وكان وجهها يقطر صفاء ومودة ، وقفت على الرصيف المقابل ، اسندت هيكلي المريض الى عامود النور ، وضعت حقيبتي على الارض . ورحت انظر ، لم يكـن يضايقني الا السيارات التي كانت تمر . كانت تفصلنا عن بعضنا بعضا ، اقتربت ، تاركا حقيبتي ، بدت لي ملامحها تقطر جمالا ، كانت سعيدة راضية ، احسست انني اشرب المرئيات امامي ، وان نادية ، المستحيل الذي تحطم عليه كل شيء ، قـد استقرت في اعماقي ، سالني شاب برونزي الصدر ، ان كنت اطلب اي شيء ، قلت له : لا طلبات لي ، وعندما ادركت انه لا فائدة من اي شيء ، حملت حقيبتي وانصرفت وفي الطريق

احسست ان ظهري قد بدا في الانحناء نحو الارض ، وقلت لنفسي انني وحيد ، كان يحزنني انني لم اقل لها وداعا ، وهمست : ان العزاء ، ان شفتي لم تنفرجا عن كلمة واحدة لها من قبل ، انني وحيد ، ولا اتمنى لك سوى ان يجنبك الله شر الوحدة وعذابها في هذه الايام ، وقلت له : ان قصص الحب والزواج ، وآلام المخاض ، ومتاعب الولادة ، لا تعني بالنسبة اليّ اي شيء .

ابدى محدثي تعجبه من امري ، وقال : ليرحمنا الله ، ولكن لنفسه .

■ ■ ■

في محطة الوصول ، نزلت على الرصيف ، احسست ان قدمي قد وضعتا اخيرا فوق ارض ثابتة اعتدلت في وقفتي ، نفضت ملابسي ، تحرك القطار ، انه يغوص الآن في ليل ريفي معتم ، ويختلط بالليل ، ويصبح في النهاية جزءا منه ، مربعات الضوء الباهتة تتكسر على الحلقاء والحصباء والرمل ، تسرع في حركتها ، تتحول من ظلام الليل الى خيوط مرتعشة من الضوء .

رفعت يدي ، وكنت متعبا ، تركتها تسقط في أكف امتدت اليّ في حرارة ، هزت الأكف يدي ، اقتربت منهم ، ابتعدت عنهم بحركة آلية ، سألوني عن الصحة والحال واخبار الدنيا ، وحقيقة ما يحدث هناك حكوا لي اخبار البلد ، وفي الطريق ، رحنا نثرثر في موضوعات فارغة ، الاقدام تدوس ارض الجسر في هدوء ، الظلام مساحات لا نهائية ، وصحبة الرجال على الجسر وعد مزيف يوقن بالامان ، السجائر المشتعلة ترتفع في الفضاء المعتم ، تدور في نصف دائرة ، تستقر مشيرة الى اسفل ، راسمة في الظلام حركة الايادي خلال سير الرجال .

■ ■ ■

بعد العشاء ، جلست مع والدي ، كان معنا إخوتي وامي ، كان كل منا ينظر في وجه الآخر ، كأنما ينبش في ملامحه بحثا عما افتقدناه في بعضنا بعضا ، تكلمنا في امور عامة ، كان والدي يدخن كثيرا ، قال لي أخبار زراعتنا ، قلت له أخبار وظيفتي في المدينة ، وبعد الكلام ، استتب الصمت

بيننا ، وانسحبت همومنا الى داخلنـا ، رحنا ننكمش داخـل جلودنا الصفراء ، ان الوجوه تنظر في الارض ، والاصابع تدور في بطء ، بـين عيدان الحصيرة ، سألت امي عن صحتها ، كان هناك شيء ثقيل ومخدر ، ينداح في النفوس ، واحسست ان الكلمات لا تصل إليَّ واضحة ، وانني يجب أن اقوم ، غير انني لسبب ادريه آثرت البقاء مع والدي ، ورحنا نتجول في تذكاراتنا المنسية ، ونجدل من جدب الايام اشياء جميلة .

قال والدي ، ان الامور قد ساءت ، وانه لن يحتمل اكثر من هذا ، قلت له ، انني حزين ، وان الضيق قد وصل بي مداه .

■ ■ ■

بقيت انا ووالدي بمفردنا ، كان اخوتي الصغار وأمي قد ناموا ، اما اخي الاكبر فقد ذهب الى مخدعه ، قالوا لنا جميعا تصبحون على خير ، وقلنا لهم وانتم من اهل الخير ، كان امام والدي كتاب اصفر ممزق الغلاف ، سألته عما به ، قال والدي انه حكاية قديمة ، يحكي انه كانت هناك أم كبيرة ، عمرها من عمر الدنيا ، غير انها كانت شابة ، كانت تعيش هذه الام في جزيرة مهجورة ، وكان في حياة هذه الام العظيمة امران غريبان ، كانت ولودا ، وان اولادها يعدون بالآلاف ، اما الامر الثاني ، فانها كانت تأكل اولادها ، تلدهم وترعاهم حتى يكبروا ويسمنوا ثم تأكلهم بعد ذلك.

يحكي انها ، ومعذرة ، فحكاية كتابنا حزينة الختام ، ذات مرة ، وهي تتأهب لاكل ابن من ابنائها ، شاب صغـير ، نحيل القوام ، ممصوص الوجه ، تائه النظرات ، ان وقف هذا الابن امامها :

ـ امهليني قليلا ، يا أم الجميع .

ان كل ما يطلبه الابن ، هو أن يقول لاخيه الذي عليه الدور بعده كلمة ، اجابته الام لطلبه ، وعندما عاد اليها ، سألته عما قاله لاخيه ، انذرته بأنها تعرف كل شيء ، حتى ما يدور في ذهنه . لم يخف الشاب النحيل ، قال لها كلاما غريبا ، كانت الام العظيمة تسمعه لاول مرة ، قال لها ، انه بعد أن قضى سنوات عمره القصيرة في الصلاة في محرابها ومن اجلها ،

بين اوقات الصلاة ، كان يبحث ويدرس ويتأمل كل شيء ، انتهى بعد ذلك الى ان اتجه الى السماء ، بدعاء واحد ، غير انه يموت الآن ، ككل البشر الفانين ، قبل أن تسمع السماء دعاءه ، انه لا يطلب من اخيه سوى أن يواصل الدعاء ، حتى يأتي زمان تتحقق فيه الدعوات .

قال والدي ، ان الشاب النحيل ، كان يطلب للأم والبلاد ، ثلاثة اشياء ، طوفان نوح وحوت يونس والطير الابابيل ، وقيل ان اخاه سأله عن السر في هذا ، فقال له ، طوفان نوح كي يغرق كل شيء في جوفه ، وحوت يونس كي ينجو في باطنه من يصلح لمواصلة الحياة بعد ذلك [وهنا تساءل ، وهل هناك من يصلح ، وقال انه يشك في ذلك كثيرا] والطير الابابيل لمن لم يقض عليه الطوفان .

سألت والدي :

ــ وهل استجابت له السماء .

قال والدي ، انه لا يستطيع ان يجيب على سؤالي هذا لسبب بسيط ، وهو أن الكتاب قد انتهى عند اكل الام العظيمة للشاب النحيل ممصوص الوجه ، اما باقي الاوراق ، فقد نزعت ولا يعرف احد اين هي .

احترنا معا ، ورحنا نعتصر الصمت الليلي ، ونحاول قراءة ظلامه ، وكانت المخاوف والظنون تسبح فوق صدر الليل .

ولم ندر حتى الآن كيف انتهت الحكاية .

■ ■ ■

كانت ديوك الفجر تؤذن في البيوت .

وكان فراشي قد بدا منخفضا من وسطه ، وكلما اقترب النهار ، غدا منتصف الفراش أكثر انخفاضا ، حتى اصبح تجويف الفراش مثل البئر ، قمت ، اقتربت منه ، تركت جسمي يسقط في تجويفه ، احسست بجسمي يتهاوى الى اسفل ، وكان السقف يبدو لي بعيدا ، وكنت ادرك انني لن استطيع الخروج من هذا البئر العميق ، ان الدموع الدافئة تسبح في الاعماق ، وفي الخاطر تتكور الكلمات ، تستدير ، تأخذ شكلا مبهما .

■ ■ ■

سألت مولاي ، ما الحل ، ثم اردفت بصوت باك ، ما العمل ، ارتميت على صدره ، على يديه ، احتضنتهما بخوف راعش ، رفعت عيوني اليـه ، حيرتي رمت بي اليك ، فكن لي يا سيدي بر الأمان . قلت لنفسي ، انني اتكلم ، فهل لمولاي ان يسمع ، ان المبصر قد غشى بصره ، والمستمع قد هم ، وذلك الذي يجب أن يكون مرشدا ، أصبح مضللا . لكل أول آخر ــ قال مولاي ــ ولكل بداية نهاية .

سقطت كلماته فوق القلب ، فأحدثت جراحـا جديدة ، والطريق الى مولاي سكة في القلب ، تدوس فيها الاقدام ، نظرت اليه ، لم افهم شيئا.

ــ بالحكايا ، يا بني ، نمزق ايام الانتظـار الطوال : هيـا اذن نعوم في بحار الكلمات . .

نظرت نحو مولاي ، بدت لي عيناه الوادعتين بحاراً من الظلام اغرق فيهما كل مساء قال مولاي :

ــ ساحكي لك حكاية مثيرة .

الحكايا هي زادنا ، في هذا الزمان الجريح ، فاستمع اليّ .

بعد ايام سفر وصلت الى بلاد الواق الواق ، وجرت ، بعد ان وضعت قدمي على اليابس ، وتركت خلف ظهـري ، سطح البحـر المتأرجح ، هجم عليّ . .

سعيد حتى الموت

قصة : دلال حاتم

اغلق المواطن سعيد باب الدار واسرع الى غرفة الجلوس . القى مابيده وارتمى على الاريكة يلتقط انفاسه . دون ان ترفع زوجته انظارها عن القميص الذي ترقعه بادرته السؤال :

ـ طمئني ، ماذا قال الطبيب ؟

رد عليها بانفاس لاهثة :

ـ اعطاني ادوية جديدة وقال لي عد بعد اسبوع .. انا جائع ، هل تأتينني بشيء من الطعام ؟

دون ان تنظر اليه ، القت القميص من يدها . خرجت من الغرفة وهي تبربر ، وسرح هو مع افكاره .

للمرة المليون ربما ، يتساءل باندهاش عن السبب الذي جعل والديه يطلقان عليه هذا الاسم . هل وسع الله مثلا على والده في دكانه الصغيرة ورزقه من حيث لايعلم ؟. هل ابتسم في وجه القابلة بدل ان يبكي كما يفعل كل المواليد ؟. هل انتصب على قدميه ، ورقص على ايقاع زغاريد النساء اللواتي ما ان شاهدنه بين يدي القابلة حتى اطلقن صيحات الفرح : صبي .. صبي .. اللهم صلّ على النبي ؟.

هو واثق انه لم يرقص ولم يبتسم ، بل اطلق صراخا عاليا ، وتلوى

محاولا تفادي الصفعات التي انهالت على مؤخرته ، رغم انه لم يقترف ذنبا .

ويترحم المواطن سعيد على والديه اللذين غادرا الدار الفانية الى الدار الباقية ، واللذين لابد انهما رأيا ملامح السعد في وجهه ، فاطلقا عليه هذا الاسم ليكون اسما على مسمى . وهكذا يرتكب الاباء ـ عن حسن نية دائما ـ نوعا من الحماقة ،أو هفوة في حق ابنائهم ، عندما يطلقون عليهم اسماء لاتتفق على الاقل مع مظهرهم الخارجي .

ويتذكر المواطن سعيد ـ ربما للمرة المليون ايضا ـ ذلك اليوم الذي قارن فيه بين اسمه وشكله . كان يلعب مع اصدقائه فسأله احدهم بخبث !

ـ سعيد .. هل انت سعيد حقا ؟

فأجابه دون ان يفكر :

ـ طبعا انا سعيد .. هل تظنني خالدا ام مصطفى ؟.

اطلق الصديق ضحكة خبيثة واردف :

ـ اعرف ان اسمك سعيد .. ولكن شكلك يا اخي .. هيء هيء .. كان يجب ان يسموك عبسي وتولى .

يومها بكى المواطن سعيد كثيرا . ولاول مرة اكتشف وجهه في المراة على حقيقته . وجه عابس متجهم ، تزينه تجاعيد طولانية وعرضانية ، تعلوها عقدة بين الحاجبين لاتنفك ابدا . وجه عجيب يطل البكاء من عينيه دائما .

لم يكن امامه غير صدر امه ، فاسرع يرتمي عليه باكيا :

ـ امي .. لم اسميتموني سعيدا ؟.

احاطته امه بذراعيها وقالت :

ـ الذين يولدون مع شقشقة الفجر ياحبيبي اطفال مسعدون . لذا سميناك سعيدا ، رغم ان جدتك رحمها الله كانت تريد ان تسميك (ديابا) على اسم المرحوم جدك .

واستكان المواطن سعيد الى صدر امه التي تابعت :

ـ الهي يجعل السعد خدامك .. وان تفتح لك السعادة ابوابها من ورائك ومن قدامك .

ورغم دعوات امه الصالحات ، فان النحس لازمه كظله ، اصيب بالحصبة وكاد يموت لولا ان له شقاء في الدنيا . ثم نقر الجدري وجهه وكاد يذهب ببصره . وما ان شفي حتى تورم خده ، ولولا بركات الشيخ زعبوب واعاجيب قلمه (الكوبيا) لحصل مالا تحمد عقباه . ويوم ذهب الى المدرسة لاول مرة ضربته دراجة عابرة فكسرت ساقه واقام في الجبس اياما واسابيع .

قالوا لامه : ابنك منذور ، والنذر يقف في طريقه .

وعصرت امه ذاكرتها علها تتذكر شيئا غير الشمعات التي اشعلتها في مقام الشيخ عثمان ، وغير المولد الذي قراته في جامع الشيخ محي الدين ، فلما فشلت قالت لها امها :

ـ جاءني في المنام ، من قال لي انك نذرت ان تذبحي له كل سنة خروفا صبي .. صبي .. بابنتي بعد خمس بنات بعيون الشيطان .. لو كنت مكانك لذبحت له كل عام خمسة خراف بدلا من واحد .

ومع ان امه لاتذكر شيئا عن هذا النذر ، الا انها فضلت الوفاء به كي يمنع عنه العين الحاسدة ويرد عنه الاذى .

وهكذا عاش المواطن سعيد محاطا بحب والديه ورعايتهما واخواته الخمس . ولكن النحس لازمه في دراسته فلم يحصل على « البروفيه » الا بشق النفس .

وبما ان والده كان يريد له ان يكون موظفا لاسمانا مثله ، فقد سعى لدى احد وجهاء حارته ، وهذا سعى مع صديق له ، والصديق سعى مع مسؤول في احدى الوزارات ، ونجحت مساعي الجميع وتوظف ضاربا على الالة الكاتبة .

تدخل زوجته الغرفة . تضع امامه صينية الطعام . تقول له وهي تنتقل خارجة :

ـ سأنام قليلا .. هدني التعب والله العظيم .. منذ الفجر وانا افتل على كعبي .

يلاحقها بنظراته حتى تغيب ، وعندما ينظر الى طبق المجدرة يتغلب عليه احساس بالشبع ، كان خروفا مكتفا يقبع في معدته . يعيد الملعقة الى الصينية ويسرح مع افكاره من جديد .

ـ امي .. اريد عروسا جميلة .. هل البنت التي رايتها كذلك ؟.

ردت امه :

ـ ماكمل الا محمد .. سبحان الذي خلقها فاحسن خلقها .

عاد يسال ليطمئن قلبه :

ـ صفيها لي

ـ ماذا اصف لك يابني .. بنت اهلها اوادم ، ما سألت احدا عنهم الا واطنب في كيل المديح لهم . اطمئن .. هي ليست كتعاء ولا عرجاء ولاعوراء

ـ حسنا مااسمها ؟.

ـ اسمها جميلة يابعد عيني .. الله يجعلها من قسمتك ونصيبك .

نقز قلبه من اسم العروس . ولكنه توكل على الله واقدم . وعندما وقعت عينه عليها ليلة العرس ، تساءل عن العلاقة بين شكلها واسمها وسكت على مضض .

وهكذا مرت الايام والسنوات في حياة سعيد . يأكل ويشرب وينام . ارتكب نفس الحماقة التي ارتكبها ابواه ، واطلق على اولاده اسماء لاتدل عليهم . يجلس قرب المذياع ، يدير ابرته يمينا ويسارا . يستمع الى الاغاني واخبار الحروب والثورات ، والكوارث الطبيعية والاختراعات ، والخطابات . ثم من الله عليه فاشترى برادا صغيرا مستعملا يمده بالماء البارد ، وتلفزيونا نصف عمر يشاهد فيه المسلسلات التي لايشكو ابطالها من ازمة المواصلات وارتفاع الاسعار وعدم التوازن بين المعاش والمصروفات ويمتع انظاره بممثلات فاتنات ، وراقصات يشمرن عن افخاذ صقيلة وبطون ضامرة ، فيجف حلقه ويتحسر على نفسه ويقول :

ـ حرام لو كانت جميلة هكذا ؟

يتخاصم مع جميلة لضيق ذات يده ؛ ويتخاصم مع الجيران بسبب خناقات الاولاد وثرثرات النساء . يحمل حاجيات البيت من السوق كأي عتال محترف ، ويدوخ في البحث عن عمل اضافي يسد رمق الافواه التي لاتشبع . وعندما يحين وقت النوم ، يندس في الفراش الى جانب زوجته ويطلق لخياله العنان ، فتكافئه زوجته بوليد كل عام يزيد عدد البائسين بائسا ، وعدد الفقراء فقيرا .

يدفع الايام والاسابيع ليصل الى اخر الشهر ويقبض الراتب . ويدفع الشهور شهرا بعد شهر ليحصل كل سنتين على ترفيع لايغني ولايسمن . وكان كلما ضاقت به الحال ، اسرع الى امه يشكو لها ، فترفع يديها وتشخص بعينيها الى السماء وتتمتم بالدعاء :

ـ الهي يرضي عليك ياسعيد ويرزقك من غامض علمه .. أصبر .. أصبر يا ولدي فما بعد الصبر الا الفرج ، وسيأتيك السعد يوما باذن الله .

ثم تدس في يده بضع ليرات وفرتها من مصروف البيت وتتابع :

ـ خذها يابني .. اعرف انها قليلة ولكن الحصوة تسند جرة .

يتنهد المواطن سعيد وهو يتخيل نفسه جرة . ولكنه الان جرة بلا اذنين . قبل شهر افاق من نومه وهو يحس وشا في اذنيه . لم يكترث للموضوع في بادىء الامر . ظن ان بعض الماء قد تسرب الى اذنيه وهو يستحم . وقالت زوجته هذا رشح صب عليهما .

انتظر يوما ويومين واسبوعا ، ولكن الوش لم يتوقف . كان جدول ماء يخر دائما في اذنيه . ثم ازداد الوش وصار هديرا مثل هدير موج البحر فاسرع الى طبيب المؤسسة الذي طمأنه واعطاه حبوبا ونقطا حملها معه الى البيت .

نفذ تعليمات الطبيب بدقة . ومع انه درب نفسه طيلة سنوات عمره على ان يكون هادئا صابرا ، الا ان وضعه الصحي جعله عصبي المزاج يثور اذا حدثته زوجته ، او اذا سلم عليه احد جيرانه ، او اذا تحرك أمام عينيه واحدا من اولاده . يتمنى لو ان امه مازال على قيد الحياة ، ليذهب اليها ويسند راسه الى صدرها الدافىء ويبكي . منذ ماتت امه لفه فراغ هائل .. انفرط شمل الاسرة التي كانت تجتمع عندها . شغلته شؤون الحياة عن اخواته وشغلتهن عنه فلم يعد يراهن الا في المناسبات .

* * *

فتح المواطن سعيد عينيه . دهش من الصمت المطبق المحيط به . نظر الى الساعة وقفز من السرير . صرخ مناديا زوجته ووبخها لانها تركته يغط في النوم . تمتمت بكلمات وبربرت كعادتها . نظر اليها بغضب ، غسل وجهه وارتدى ملابسه ونزل الى الشارع .

انتبه ان الوش قد تلاشى . تنفس بارتياح وتمتم : الحمد لله زالت العلة . غمره فرح طفولي مالبث ان تبخر عندما احس الما في جنبه . توقفت الى جانبه سيارة ومد سائقها راسه من النافذة . كان يبدو عليه انه يتكلم بعصبية ، ولكن المواطن سعيد لم يفهم شيئا مما يقول . لاحظ فقط ان السائق بصق على الارض ورفع قبضته مهددا ثم انطلق بسيارته.

تسمر سعيد في مكانه من المفاجاة . انتبه انه لم يسمع صوت بوق السيارة ولا زعيق السائق وشتائمه . وانه لايسمع نداء بائع المازوت ولا هدير الباص الذي انطلق من موقفه .

* * *

وضع الطبيب نظارته جانبا وقال له :

ـ اسف ياسعيد افندي .. الحقيقة لا ادري ماذا اقول لك .

قال المواطن سعيد :

ـ كم تريد ياسيدي .. الوصفة عندي في البيت ، ساعيد تناول الدواء اسبوعا اخر ثم اعود اليك .

قال الطبيب :

ـ عفوا ياسعيد افندي .. الواقع .. الواقع انني لم اشاهد مثل حالتك من قبل .. لا اجد سببا فيزيولوجيا يؤدي الى الصمم .

قال المواطن سعيد :

ـ اعرف ياسيدي .. اعرف ان عملي مزعج .. ولكنني كما تعلم موظف على قانون العمل .. التقرير الطبي يعني حسم ثلاثين بالمائة من الراتب ، والحال كما تعلم ياسيدي على قده .. لدي اجازات متراكمة ساخذ منها اسبوعا .

اسقط في يد الطبيب . حاول ان يشرح الوضـع للمواطـن سعيد بالاشارات . فلما لم يفلح ، امسك ورقة وكتب عليها : آسف يا سعيد افندي ان اقول لك بانك فقدت سمعك .

غامت الدنيا امامه . احس ان دماءه كلها قد تحولت الى نهر دموع يريد ان يتدفق . نهض عن الكرسي . خرج دون ان يودع الطبيب وانطلق يعدو في الطريق لايدري الى اين .

قبع المواطن سعيد في بيته ينتظر قرار التسريح .

ومع مرور الايام ، اعتاد حياته الجديدة . لم يعد احد من الجيران يشكو له ثرثرات زوجته . لم يعد يسمع بربراتها وهي تدور في البيت مثل لبوة حبيسة . صار يرى اولاده قرودا تقفز وتلعب دون ان تصدر اي صوت . وبما ان اسرته لا تريد ان تزيد البلة طينا فقد اعفته من مهمة شراء حاجيات البيت . باختصار ، صار المواطن سعيد ملكا في بيته وادرك انه في وضع يحسده الجميع عليه .

قبل يومين ، كان المواطن سعيد يتناول العشاء مع اسرته . حانت منه التفاتة الى التلفزيون فشاهد المغنية التي كان يدعو الله سرا وعلانيـة ان يبلوها بداء يخفي صوتها الى الابد . كانت تنط وتتلوى وتصفق وتفتح فمها وتغلقه كالبلهاء .

فجاة ، انطلق يضحك ، ضحك المواطن سعيد حتى سالت دموعه . وتبادل الجميع النظرات وتوقفوا عن الاكل . نظر اليهم ومن خلال ضحكاته صاح : مابكم يااولاد ؟

الم تشاهدوا من قبل رجلا سعيدا يضحك ؟ .

ترك المائدة وخرج الى الشرفة . تنفس بعمق وصاح مـن اعمـاق شرايينه : امي .. اخيرا جاء الفرج .. انا رجل سعيد .. سعيد حتى المـوت .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

نقــد النمــو

تاليف : غونار جراول

ترجمة : عيسى عصفور

■ ■ ■

صانعو أوروبا الحديثة

تاليف : ب . م . هولت

ترجمة : موفق شقير

■ ■ ■

من التحدي الى الحــوار

القسم الاول

نادي روما

ترجمة : عيسى عصفور

أتدرين كيف تضحك الشمس ؟

قصة : ريسا لونغو
ترجمة : محمد الموحد

هل ترين هــذه السمكات يا ماريكا ؟ لابد أن تومض حراشفها كالندى تحت اشعة الشمس . لقد اصطدتها هذا اليوم ، لم تكوني في البيت ، لقد ذهبت الى حظيرة المواشي،أما انا فاخذت صنارتي وذهبت الى البحيرة . ومشى الممر بي خلال حقل الحنطة . السنابل انحنت نحوي . وسمعت صوتها . ثم دار الممر تحت اشجار الصفصاف . كان ثمة نسيم لطيف وقد صفقت الاوراق بايديها . توقفت واصغيت الى صوتها . ما اجمل تلك العــادة ! ان استلقي تحتهــا ، وراسي مرتاح على ذراعي وانظر الى السماء من خلال هــذه الاوراق . تمكنت من التحديق في تلك المســافة الزرقاء ساعات طويلة ، وفي تلك الاوراق حيث تندفع حزمة ضوء من خلالها . احببت الشمس كثيرا واحببتك يا ماريكا . احببت الذهاب الى الصيد وركوب ســروابيــ في المساء عند الغروب بقيت الشمس تزورني وقتا طويلا كما اذكر لقد جاءتني ونقرت على النافذة باصابع شفافة ثم ضحكت . أتدرين كيف تضحك الشمس يا ماريكا ؟ جاءت واحنت مرفقيها على عتبة النافذة وضحكت وضحك كلانا انا والشمس ثم تركت النافذة وحلقت

في الاعالي . ومن الاعالي اومات ونادتني الى الكرم ، ارتني الندى والعشب، والمرعى المزهر والحنطة والبحيرة التي تختبىء السماء كلها بداخلها .

مرة عندما كنت شابا كنت عائدا من الحصاد توقفت لارتاح تحت اشجار الصفصاف . القيت منجلي جانبا وشدني التعب الى الارض فتمددت مقابل البحيرة . كان المكان ظليلا ومنعشا تحت اشجار الصفصاف وكانت البحيرة مشتعلة وفجاة جئت لاخذ الماء تسيرين في الممر والنير على كتفيك . توقفت وملأت السطول ، ثم نظرت حولك . غير انك لم تريني . فاشجار الصفاف تخبئني بأذرعتها الخضراء رميت ثيابك عنك بخفة ودلفت الى الماء بخفة ايضا . كان لشعرك لون التبن الشاحب ورميت راسك الى الوراء لتدعي الشمس تلاطف وجهك . كنت جميلة جدا يا ماريكا حينئذ فكرت ــ الم تكوني اخت الشمس ؟

وبعدئذ يا ماريكا ، بنينا كوخا طينيا في طرف القرية . كان الوقت صيفا . انت مزجت الطين بقدميك وانا حطت الماء . وعندما صببت الماء على الطين اتكات على كتفي . ومسحت وجهك بردنك . وضحكت . كنت شابة وكنا سعيدين معا .

بعد عدة سنين اشتريت حصانا . امازلت تتذكرينه ؟ ابيض الجبهة والقدمين ، له خاصرتان تومضان تحت اشعة الشمس كالحرير . له حوافر مدورة صغيرة . كان دائما يصل صهيلا لطيفا عندما يراني قادما . وكنت احضر له كسرة خبز في جيبي كل صباح واحملها اليه على راحة كفي فياخذها بشفتيه واشعر بنفسه الدافىء . وقد غمرتني موجة حنان عندما وضعت ذراعي حول عنقه وقبلته .

وفي المساء عندما عدت الى البيت من التلة كنت تعدين الطعام وقد امتطيت الحصان وهرعت الى البحيرة الحصت عليه ففهم علي ثم عدا كما لو كانت ساحرة تعدو خلفه . هكذا كان يعدو ويتباطأ بجانب اشجار الصفصاف ويتجه الى حافة الماء بخطى صغيرة . ترجلت وتركته يرعى .

الغروب كان قرمزيا والمياه قرمزية ايضا الا ان الاسماك كانت تقفز فتكسر صفحة الماء في شظايا نارية ودوائر ممتدة فوق سطح البحيرة الناعم . تلك الامسيات كانت رائعة يا ماريكا .

كان — روابو — يرعى وانا اصطاد السمك وقد اغراني هذا الهدوء فرجعنا الى البيت مشيا على الاقدام .

كنت في انتظارها وخرجت للاقاتنا اخذت اللجام وربطت الحصان الى العمود . ثم جلسنا حول طاولة لها ثلاث ارجل قصيرة صنعتها بيدي مع عدة مقاعد . تناولنا العشاء خارج البيت في الباحة وهناك استلقينا للنوم وعلى مصطبة ترابية حول المنزل ، نشرنا عليها اعشابا لها رائحة طيبة، ثم استلقينا عليها لقد امتلأت تلك الليالي بأريجها يا ماريكا .

اتسمعينني يا ماريكا ؟ — اونتشا — رئيس الدرك هل تتذكرينه ؟ وهل تذكرين عندما القيت بنفسي عليه بمنجلي ؟ كنت سأمرر هذا المنجل تحت اضلاعه غير ان الناس امسكوا ذراعي .

لقد ذعرت عندما سمعت قرار مصادردة الخيول . لم أعرف ماذا افعل كيف انقذ الحصان هل تذكرين كيف اخفيناه بين الشجيرات الكثيفة في طرف الكرم ؟ لم نخرجه من مكانه ابدا كنا نطعمه ونسقيه في الليل . وقلنا للناس جميعا اننا بعنا الحصان لكن احدا لم يصدقنا ثم جاء « اونتشا » وذهب مباشرة الى مؤخرة الكرم وقاد الحصان الى ارض دراسة الحنطة وقال ضاحكا : هكذا اذن لقد بعته ، ايه ؟

انتزعت المنجل واندفعت نحوه وفي تلك الليلة بكيت كالطفل الصغير . وهناك في حجرة التوقيف مارس المدير سلطته . عضضت على شفتي ثم ضربت المدير . وكنت تبكين داخل البيت . وقد تورمت عيناك في الصباح . ثم عاد الهدوء الي . أجل اخذت الاشياء تقع تباعا . كانت الحياة التي بدأناها جديدة ايضا ، حياة لم نفهمها فورا .

ذهبنا سوية الى النادي وجاء احدهم من المدينة وتحدث معنا بلباقة . ثم شرعنا بالدراسة في مدرسة ليلية . هل تذكرين كيف ناضلنا وكيف كنا نكتب بانتظام وما عانينا من صعوبات في اضافة المقاطع الى بعضها ؟ انت تقرئين جيدا الآن يا ماريكا . كيف كنت سأعرف ما يجري في العالم اذا لم تقرأي لي الجرائد ؟

لم ابك ولم تبك عندما ذهبت الى الجبهة وتحول قلبك الى حجر ، وقفت هناك عند طرف القرية تراقبيننا ونحن ذاهبون . استطيع رؤيتك باللون القرمزي ، وتدلى شعرك ملتفا مـن تحت المنديل كالذهب ، وكالشمس . لم أعلم حينئذ انها المرة الاخيرة التي اراك فيها . لا تبك يا ماريكا .

كانت الحرب على وشك الانتهاء وبقيت افكر : لو انها تنتهي بسرعة حتى اعود الى الوطن . اعود اليك يا ماريكا .

كان يوما مشمسا مشرقا لقد ظلت تمطر طيلة الاسبوع لكنها صحت هذا اليوم . كنا نسير على ارض غريبة وكان معي ـ ايونيكا ـ بن نيكولا فليكو ذلك الشاب اليافع الذي لم يحلق ذقنه بعد . لقد احب الغناء . غنى وغنى ثم تنهد . ـ ايه متى سنعود الى الوطن يا اخي ؟ .

غير انه لم يعد ابدا . وانا ... عندما كنت اصطاد هـذا اليوم سمعت السمك يقفز وشعرت بالشمس فوق ذراعي ، وعلى وجهي .

انت تعرفين ـ كل صباح انتظر شروق الشمس اخرج الى المباحة ثم الى طرف الكرم ، وانتظر ، تشرق الشمس خلف التلة لكني لا اراها .

وفي الليل احلم بها . الليالي مشرقة الآن لانها تحمل لي احلاما ، وكل احلامي مفعمة بضوء الشمس : وتأتي الشمس الى النافذة وترمي عليّ حفنة من الزهرات الذهبية الساطعة وتضحك . اتدرين كيف تضحك الشمس ياماريكا ؟ .

وثائق الذل

شعر : د . نذير العظمة

هــل الســلام علـى اعتــاب دافيـــد
حلـم يكشر عــن صفـر المواعيـــد ؟!
يوم الخــرائط لا اليرمــوك ترسمهـا
وصــدر حطــين محطوم الى الجيـــد
إذا تخليتَ عن أرض وعــن شــرف
فكيف تحفــظ ســر النخــل والبيــد
هل يأمن النيل في الوادي اذا اغتصبت
مدينــة القدس ، يـا ابن القادة الصيد
من يكتب الصك صك الذل من دمنـا
مصر الصناديـد ام مصر الرعاديـد ؟ !
يـا مصر إنـك في وجداننـــا لهـب
من المروءات او نيــل من الجــود
جسر العبـور الى التحــرير مـا وهنت
عزماتــه البيض في ايامنــا الســود
وثائــق الذل لا تمضي علــى ثقـــة
فكيف إنْ مزقتْ حُــرّ التقاليــدِ
سلِ السنينَ عن الكرم الذي نزفت
جراحُــهُ خمــرة في كاس عربيــد

يمشي على الجرح نشواناً بلا خجل
ودير ياسين صَلبٌ غير مشهود

مآتم تكتب التاريخ من دمنا
فمن يقول لها يا سادتي زيدي ! !

من يعصر الكرم في كأس مزينة
ويطمر الشعب في قبر واخدود ؟ !

من يسلم الارض للجزار مختبئاً
خلف النياشين او خلف الاغاريد

ثعالب تزدري اخلاء آمنها
والشهوة افترست سر العناقيد

تبت يداك وتبت انمل كتبت
وتب ما زورته من مقاليد

تفردت حين شدَّ الغدر معصمها
وعاهدت غير ذي عهد على دودِ

نعامة طمرت في الرمل اعينها
وسلّمت عنقها للموت في عيد

ورفرفت جذلة في فخ صائدها
مذبوحة النفس في حلق الأناشيد

تنازل الحر عن جنح وعن حدق
فصار للخصم اوتارا على عودِ

يا للمصائر لا يسمو لها شرف
إلا اذا شمخت فوق البواريد ! !

* * *

كيف

تموز .. تموز كم يحسدونك على هذه القيامة ؟!

ممتلئا بهاجس الموت ، ممتلئا بهاجس الوطن والموت ، ممتلئا بهاجس الوطن والغربة اضرع اليك : دعنا من جديد نحمل اكفاننا القرمزية ، تهبط من ارض التمزق الى ارض الرحم ، نقدم قرابين الورود والحنطة ونغسل بالخمر والزيت الام الجـائمة كوطن من الغبار والحجر بعينين ابيضتا من الحلم وطول السـفر !

كيف نجتاز زمن الخرافة بغير اللهب ؟ كيف نعبر بالفكر الى الشريط الاخضر الذي تدمره الشهوة ؟

كيف نمسح ذلنا كفاف يومنا وتغمض العين ؟!

كيف نحرك الهجير بمروحة والحياة بمحرقة ونصلب النبع .
كيف ... كيف ... كيف اطلق الرصاص على هذه الكيف .
اجنبي بالحياة يا تموز

واخترق الموت !

التروبادور المتخفي في القاهرة

شعر محمد الطوبي

— ١

وأحمد في القاهرة . .
هو الشاعر المتخفي يغني هواهْ
رَبّانيةُ العار تركضُ خلفَ أناشيده وخُطاهْ . .
— . . صديق القصائد والشمس والعنفوان
فأنتَ الغناء . . وأنتَ المغني
تُلملمُ من شفتيكَ القلوبُ مواعيدَها المقبلة . .
نهارَ احتفالاتِها المقبلةَ . .
عبيرَ اشتعالاتِها المقبلةَ . .
طقوسَ تألُّقِها القرشيِّ المعتّق في لهَب المجد ،
يا سيّدي المتوحِّد في العشقِ
والمتجوِّل بين قلوب الأحبة . .
حيث الرصيف من اللؤلؤ المتوهج ،
والسوسن المتصاعد من شهوة النار بين شتول التمني
فأنتَ الغناء ، وأنتَ المغني . .

وأحْمد في القاهرة . .
هو الشّاعر المتَخفيّ يغنّي هواهْ
زَبانيةُ العار تركضُ خلْف أناشيده وخُطاهْ . .
وأرْوقَة الحلمْ تزْهو على صحْوة في نشيد يُغنّيه ؛
ينمُو على مشْتل منْ نزيف جميلْ
هو الجرْح يفْتح قمْصان إشْراقه ساعة البَوْح . .
حتّى تَضجَّ الدروبُ بسَيْل الزغَاريد والعُرْس والمسْتَحيل
ويطْلع منْ وهَج الشّوْق وعدُ الخيولْ
وأحْمد في القاهرة . .
أرى صوْتهُ منْ وراء المسافات جمْر نَدىً وشُتولْ
أرَى صوْتهُ يسْأل «النّيل» عنْ سُورة منْ صهيلْ
يقول : أنا طفْلُ هذي الضفاف التي طاردَتْني
عليْها كلابُ الخيانة . .
(يهوذا خان . . أكمْ يهوذا باع مسيحْ
لا يهوذا دام . . ولا جرْح بيلازم جريحْ(١) . .

— ٣

وأحْمد في القاهرة . .
هو الشّاعر المتَخفّي يُغنّي هواه
يسمّي الخيول بأسْمائها . .
ويُلْغي المسافات بيْن انْدلاع النشيد ،

وخارطة الحُلْم والذاكرة .
كثيرُ التوغُّل في العِشْق
لا تسألوا كيْف أحْمد يَغزل منْ جرْحِهِ اللحْظة النادرة . .
عميقُ التألُقُ والحُلْم
لا تسألوا كيْف أحْمد يرْسم منْ عِشْقِهِ وَطناً عابقاً بالأَماني . .
يُسمّي الخيول بأسْمائها ، والتزيفُ اشْترى صحْوَهُ بالأَغاني
(أنا ساكن قلبْي . . ومتونس بالنّاس
والناس الونسة كثير ما ليْين القلْب وساندينه . .
سارْحين في الدم ، وجناين قلبْي العمْرانة(٢) . .

— ٤ —

وأحْمد في القاهرة . .
هو الشاعر المتخفي بعَيْني هواه
هو الولدُ المتَشرّد يحْفظ عنْ ظهْر قلْب
انْتفاضة يوْمَيْن كانا على شُرْفة العمْر
ترْتيلة المجْد والشمْس في وَطن الفقراء . .
— . . صديق الأناشيد بعْض الغناء
تبلُّ بِهِ الرّوح في زَمن العار والإنْكسار
فكمْ يُطْلع الجرْح بيْن الشوارع
خيْلاً تجيدُ الصهيل . . وكمْ يُشْرق الحُلْم بيْن الأَضالع
وعْداً شهيّ الثمار . . .

---

(١) و (٢) عن الشاعر احمد فؤاد نجم .

قصيدتان

شعر : ماجد البلداوي

ـ حمدية ـ

كنتَ تطلُّ عليَّ ،
وتلتفُّ حولي . . . ، وتغفو على شاطىءٍ
مترعٍ بالمساءات .
صحراؤك الآن تندى . . . ؛
وتصبحُ غاباً . .
تحوّمُ فيها الطيورُ
التي أتقن البحرُ لعبتَها ؛
فتبلّلُ وجهكَ شمسٌ جنوبيّةٌ
تستريحُ
على ضفةِ « غفَّةٍ » من جبينك .
ـ فمرَّني على كلِّ وجهٍ تندّى . . . ،
ووجهٍ أطلَّ على شرفةِ الريحِ
ـ مرّني . .
فان الصبيّات

أيقظنَ منيَّ التوجّسَ . .
أيقظنَ منيَّ التباريحَ . .
ـ يا سيدي . .
آن لي أن أعانقَ ريحَ البلادِ التي
أطعمتْني الحنينَ الجنوبيَّ . . .
والبهجةَ المستحمّةَ بالفرحِ
المتجذّر فينا . .

أمدُّ فمي للنّدى . . .
وأخاصرُ هذي المساءات . .
كنّا . . ركبْنا على عجلٍ
مثل ريحٍ تسابقُ أبعادَها .
ركبْنا . .
وماملّنا الدربُ يوماً . . .
وماوزّعتْنا المسافاتُ . .
في منفذِ الجرْحِ . .
كنّا قريبين . .
كنّا بعيدينِ
عن بعضِنا
يعرف الدّربُ أسرارَنا
نلتقي مرةً . .
نلتقي مرتين

كنتَ قريباً من النّهرِ حين رأيتُكَ أمسِ
تلفُّ همومَكَ . .
ترسمُ في الرّمْلِ نخلاً . . ،
وتبحرُ بين الشجيراتِ . .
بينَ النّخيلِ . .
تطالعُ في أوجهِ القرويّينَ
عشقَ العصافيرِ . .
لحنَ الصبايا . .
عذوبةَ قريتِنا . .
فتبتلُّ بالرّملِ . .
بالعشقِ . .
بالصلواتِ . .
واحداً . .
واحداً
كنتَ تجمعهم
حيثُ يساقطُ الطلعُ بين العذوقِ ،
ويثمرُ في النّخلِ هذا النهارُ الجميلُ
الذي عانقَ الاشرعة .

●

على الجسْرِ . . .
كنّا نردّدُ للماءِ أسرارَنا ،
ونروحُ . .

فينفتحُ النّخلُ ظلاً نديّاً
تقاطرَ في مقلتيها . .،
ونامَ . .
فأيقظَ كلَّ الطّيورِ
التي أتعبَ الدّربُ أسفارَها . .
فاعتنقْنا . :
وذابَ الجليدُ الشتائيُّ . . ،
ثم اعتنقْنا . .
وقد أشعلَ الرّمْلُ أصدافَه .

هذي المدينةُ تعرفُنا . . ،
وتردّدُ أسماءَنا
هذهِ الريحُ
ما علّمتْنا التباعدَ . .
في النّهرِ . . تبدو « المشاحيفُ » مبهورةً
يطفحُ الوهجُ فيها . . ،
وتورقُ ما بينها عشبةُ الجرْفِ . .
هذي المدينة تُعْرى
تغازلُ صبيَتَها . . ،
يوقظُ النّخلُ أطيارَه . .،
« فحمديّةُ » الآنَ آتيةٌ كالمساءاتِ . .
وجه تندّى

بشمسِ المدينةِ . .
عانقْتَها . . ،
وعبرْتَ إلى ضفةِ النّهرِ . .
أشعلْتَ سيكارةً . . ،
ثم أطفأتَها . . ،
وركضْتَ اليها
كطفلٍ صغيرٍ
تقبلُها . . ،
وتفرُّ بها . .
حين تفتحُ « حمديّةُ » البابَ . .
يسري اليك
دمٌ فتزغ . . ،
وتقول : ـ اقترب . . اقترب ،
وادخل البابَ
هذا أوانُ اللقاء .

« الهاجس »

أُلقيتُ في البحرِ ستّارتي . . ،
وتوسّدتُ همَّ الدقائقِ
في ساعةِ الحلمِ
والانتظار .
ولكنني لم أصِدْ غيرَ وجهي
الذي أتعبتْه القصائدَ

•

في صفحةِ الماءِ هاجَمني . .
الهاجسُ المستبدُّ بيَ الآنَ . . ،
أدخلني حجْرةً هاجرَ الضوءُ منها ،
ونام على راحتيها السؤال .

•

صادفَني رجلٌ كان يجثمُ
خلف المرايا . .
كطيفٍ تمرّدَ في عالمي . . ،
واستفاقَ على موعد « للاشاراتِ »
حدّقتُ فيه
: تسرّبَ بين العيون

إلى شاطىء آخر
علّمته الدقائقُ
أن يركبَ الموجْ

●

عاد للبحرِ ثانيةً . .
كان يعرف أن المياهَ
اذا حطَّ فيها فمُ القيظِ تبدو نقيّة ؛
فأومأ لي انه
عازِمٌ للرحيلِ . .
فجمّعتُ نفسي . . ،
ورحْتُ أُسوّي له الدّربَ . .
بين الدفاتر .
ريحٌ جنوبيّةٌ تستجيرُ
فأوقدْتُ شمعاً
لنافذةِ الضوء
أن تدخل الحجْرةَ المدهمةَ
لكنّه امتدَّ بين الزوايا
واسرج خطوتَه للرحيلْ .

مهرجان عصبة الأدب

(*) اقامت عصبة الادب العربي في سان باولو مهرجانا شعريا في المركز الثقافي العربي السوري المفتتح هناك ، مساء الخامس والعشرين من شهر حزيران المنصرم ، ونقدم فيما يلي مقاطع من القصائد التي القيت في هذا المهرجان ..

ثورة الحرف

شعر : شريف عبد الخالق

ناصروا الحرف وصونوا الادبا
وأعيدونا لمجد عَربا
نحن في المهجر صوت ثائر
عربي يتحدى الكربا
عصف الشوق وكم مغترب
سوف يبقى هائما مغتربا
نحمل الأوطان في اكبادنا
بعد الدهر بنا ام قربا
واذكروا عبر المدى اندلساً
رفعت مجداً يشق السحبا
طرق الابداع من اطباعنا
ورفضنا ادباً مكتسبا
ورعيل الأدب الراقي سما
بنتاج يتخطى الشهبا

كان في ابـــــداعـــه مـــدرسة
تصنع الفكر وتغني الأدبـــــــا
ادب ينبـــــع من اعمـــاقنـــا
صافيـــاً سمح المعـــاني طيبـا
اينما كنا لنـــا اطمـــاحنـــا
ورؤانا تتحـــدى النـــوبـــا
تتحدانـــــا صعـــاب جمـــة
ومنـــانا تتحـــدى الصعبـــا
نحن في معترك الـــعيش وفـــي
نصرة الحـــرف نعـــاني الوصبا
همنا العـــود الى اوطـــاننـــا
لمغانينـــا والحـــلام الصبـــا

●

ادب المهجـــــر لـــــن يهـــوى
ولن ينكـــــر التـــاريخ ما قد كتبا
قــــد سقينـــاه نبوغاً سلساً
ودفعنـــــاه معـــان خلبـــا
ونشرناه بيـــــاناً رائعـــــاً
فتهـــادى للمعـــــالي قببـــا
ثــورة الحـــرف اذا ما انـــدلعـــت
تجعـــــل الاقـــلام فيها قضبـــا

●

نحن من يعمل للحرف الذي
يرتوي منا ويزهو عجبا

نحن في الغربة أوفى رسل
امناء وجواد مواكبا

فلنكن في جبهة العز فدا
ولنعد بالسيف ما قد سلبا

ولنعش في وحدة تجمعنا
ولنكن صوتاً يهز الحقبا

ولنعد حقناً تهاوى ممزقاً
ولنعد مجداً أثيلاً نهبا

اننا مأسدة معطاءة
فاحذروا الليث اذا ما وثبا

وحطم الكأس

شعر فارس بطرس

وحطـــم الكأس مذ جفـــت حميانا
وابعـــد اليـــأس ندمانا ً وادمانا

وأمحـــل العصر من اصفى الرجال فلا
في الناس تلقى نعيميـــا ً وجبرانـــا

وودع الأدب العالي مهـــاجـــره
وغيب الجهـــل نقاداً وفنـــانا

وامعنت كل آفـــات الوجود بنـــا
هدمـــا ً وذلا ً وتفريقـــا ً وحرمانا

وامعـــن الدهر تمزيقـــاً بنا وغدت
شعوبنا تصطفي الاعداء اعوانـــا

وامحلـــت كل ندوات البـــلاد على
ما في محافلهـــا للفكر فتيانـــا

حتى الربيع الذي ازهاره عبقـــت
في العود نداً وفي الاوراق ريحـــانـــا

باخ الجمال بها واصفر اخـــضرها
واصبح الزهر اشواكاً وبـــلانـــا

والوعتي . . خفتت أصداؤهـــا ومضت
تبكي العذارى بها . ارضاً وشبانـــا

خلت بها عاديات الدهر وانقلبـــــت
اعراسها تندب الاموات فـــرسانا
تحول العز يأسا والحيـــاة ردى
والشدو دمعـــاً وطير الشدو غربانا
واخرست صوتها قوى الضراوة كــي
تلغي فلسطين . . ناقـوساً واذانــــا
هذي فلسطين . . كم طال النضال بهـا
ارضاً وشعباً وابطالاً وجيرانــــا
والغاصب المعتـــدي كم نكلت يده
بالابريـــاء تبـــاريحـاً وعــدوانا
تفرق العرب وانحلـــت روابطنـــا
واصبح الناس تجاراً وعبـدانـــا
تكررت مغريات المجـــد في نفــر
للنشر ينفخ أبـــواقـاً ورهبانـا

هذا يقول بقول المعتدي علناً
وذاك يهــدم تخطيطاً وأركانا
هذا الأديب الذي فيه الـــرجـاء على
ما فيه من حكمة التوجيه بنيـــانـا
تأكلت ما به الاحقـــاد من ادب
وعاد للجهل يبني مثلمـــا كنـا
ياويحهـــا عقمـــت ام العروبة مذ
تناست العرب مــأمونــاً وغسانا

شلالات نورانية

شعر : شكيب تقي الدين

هنالك شلالات نورانية دائمة الفيضان ينزلها الله رحمات على خلقه، منا من رآها بعين بصيرته فاخذ منها الكثير ودونه في مجلدات ضخمة، ومنا من رضي بالقليل فاخذه ليصلح به حاله في هذه الحياة الدنيا، وما ذلك الا بقرة الشوق وضعفه، فمن كان شوقه صادقاً حصل على التجاوب إنْ عاجلاً وإن آجلاً، فكيف تريد من الإنسان ان يتجاوب مع من كذب شوقه . . .

اذا تمثلت ما في الله من قيـــــــــم
فجئـــت كالآيـــة المسماح اقرارا
تُرى تَناوىء دهراً او تعاتب مـــــن
تخونه الفرص الآلاف ادهـــــــارا
او هاجك الحب اعوامـــاً فبتَّ كمن
يفجر الامل الملقى به نـــــــــارا
وكان ما فرّح القلـــب المشوق ومـــا
اراح جفنك ارضاء وايثـــــــارا
ترى تحارب شوقـــــاً او تصافح من
يهزه الشوق تقـــــديراً ومقدارا

●

اكل همسة نجم ألف ملحمـــة
تمور في الفلك الفضي انـــوارا
نوافل الحق شلالاتـــه زخـــرت
بالبر والحـــب فاستعجـــل لها دارا
وطب هناءً وعظـــم ان ظفرت بمـــا
يحلو الامور ويحلو كيفمـــا صارا
وضم ما اسطعـــت من آلائها ورعاً
وطر إليها اذا ما خيرها طـــارا
دوافع الشوق فيها تستفيق عـــلى
دنيا من الحب والامـــال اشعارا
لها بجلق اثـــار مقـــدسة
هلا تلمست في نجديـــاك اثـــارا
تنداح فوق بساط لا نظير لـــه
من الجمال نسيمـــات وأمطـــارا
كأنهـــا وجبين الأرز مـــؤتلف
نيـــازك الكـــون فاضت عنه أنهارا
تلامس الخدر بالعطر الفريد كمـــا
تهزه بالنـــدى المعسول اسحـــارا
اذا ترامت على زهر شممت لـــه
عطر الأولى وقفـــوا للحق انصارا

أحب بلادي

الشاعر : نواف حردان

احب بلادي وارغب فيها
ونفسي تذوب حنيناً اليها
الى افقها . . . الى سهلها . . .
الى شمسها . . . الى ليلها . . .
الى عشبها . . . . الى زهرها . . .
الى كل حبة من تراب .
لحلمي القديم و ذاك السراب
الى كل نفحة من نسيم
الى صخرها . . وأسرارها . . . واشجارها
وأفيائها وانهارها . . .
الى كل قطرة من شتاء
وكل صباح وكل مساء

●

احب بلادي وأمي الحنون
على اي حال عليها تكون
اناشد امي . . . . اتوق اليها

اذوب حنيناً لبوس يديها
لا سندَ رأسي على صدرها
لأعبد فيها وقار السنين
تناجي السماء لكيما اعود
بصبر تصلي لفك القيود
ونضرع على نغم الذكريات
وتمزج بالآهِ تلك الصلاه

●

بلادي وامي . . . . منارة نفسي
وكنه رجائي ... وقبلة رمسي
أتوق لأمي على ضعفها
اناجي رضاها على عجزها
على اي حال عليها تكون
وحلمي الكبير اعود اليها
اقبل ارضاً تسير عليها
أأكره أمي على ضعفها
أأسلو بلادي على جهلها
أموت ولا اسمحن بهذا
واطعن نفسي . . . .
واذبح قلبي . . . . امزق لحمي فدى حبها
ارش دمائي على أرضها .

●

آمنت بالحب

شعر : نبيه سلامة

آمنت بالحب ، حـــب غير مكتسب
حب تولد من قلبي وغلغـــل بي
والحب في القلب لا تخبو اشعتـــه
فمنـــه راحي وهذا غـاية الطلـب

●

احب ارضي

احب ارضي وهل ارض تعـــادلها
بالطيب ، بالحسن ، بالتاريخ بـالحسب
كأنها من جنان الخـــلد هـــابطة
تسبيك بالعطر او بالكوثر العـــذب
تزقزق الطيرُ في أعلى خمـــائلهـا
فتنتشي النفس بالألحان والطـــرب
والسحر منتشر في كـــل ناحيـة
ان كنت في حمص او في الشام او حلـب
هل زرت لبنان ، هل شاهدت ارزتـه
خضراء تهزاء بالاجيـــال والحقـب

وثلج صنين تاج فوق هـــــامتــه
يزين فوديه اكليل من السحـــــب
ومن فلسطين شع النور فـــامتــلأت
كل الجوانب من اشعاعه الـــذهـبي
كأنه الشمس ملء الكـــون طلعتهــا
ونورهـــــا في البرايا غير محتجـب

●

احب قومي

احب قومي أشياخـــاً ونـــاشئـة
وكل بنت نمت منهم وكـــل صبي
غذوا الشعوب بعلـم كـــان مبتكراً
فخلدوا ذكرهم في سائــر الكتـب
فاستنطقوا البحر في بيروت يخبركــم
عن فتية ابحرت في موجـــه الصخب
سارت سفائنهم بالفـــن مثقلـــة
لتنشر الحرف في بعـــد وعن كثـب
سلوا الفرات ، سلوا العاصي سلوا بردى ،
عن مجد قوم سموا بالامس كـــالشهب
هم الأباة فمـــا لانت شكيمتهــم
والدهر يطرق إجلالاً لكـــل ابي

●

عصبة الأدب

احب ابناء قومي في مهـــاجرهــم
والقلب يخفق مشتاقاً لمغتـــرب
ما بدل المهجر النائي عقيـــدتهم
ولا ترانوا عن الاطنـــاب بالنسب
لم يخفـــروا العهد لا ديناً ولا لغــة
فالجسم غـــاب ونور الفكر لم يغب
في كل صدر ترى الاوطـــان مـــاثلة
كأنها صورة الصلبان والحجـــب
وخير ما علقت نفسي بنـــاشئة
جبارة العزم في ايمانهـــا العربي
تكتلت وتنادت للحفاظ عـــلى
عهد الجدود فكانت « عصبة الأدب »

كل النفوس فداك أمة العرب

شعر : فيليب لطف الله

العـــلم يجمعنا يـــا عصبة الأدب
والحب رائدنـــا في اصلنا العـــربي

شعب وأصل كريم لا مثيـــل لـــه
لا يرتضـــون على ضيم على غضـــب

السيف في غمـــده مازال في عطش
الى الدماء الى الثـــارات والغلـــب

لا ترتضي العرب غير النار محـــرقـــة
للطامعين وطرد الاحمـــق الجرب

يجيء يوم وبند العرب مـــرتفـــع
حليفه النصر في الازمان والحقـــب

نعيش في وطن فيـــه كـــرامتنا
وفيه ابنـــاؤنـــا بند على قبـــب

هم الكرام اذا ناديتهـــم بـــذلـــوا
للمستغيث بلا مَنٍّ ولا حَـــرَبِ

الشعر والنثر والاداب عندهم

فطاحل ورثوا الاقلام بالنسب

منا المسيح ومنا الأنبياء أتوا

أكرِمْ بعيسى وصلعم للنبي العربي

بالية تزهي في عصبة جمعت

فطاحلاً من فحول العلم والأدب

تذود عن وطن في كل معترك

كل النفوس فداك امة العرب

* * *

حوار مع الشاعر عبد الوهاب البياتي

نزار عابدين

عندما يقف المرء امام قصيدة جميلة رائعة يحس انه امام شيء مقدس .. يحس بالرهبة لقوة الخلق والابداع فيها - وعندما يقف امام مبدع هذه القصيدة يحس بالرهبة اكثر .. يحس انه امام عالم من المشاعر والعواطف والافكار والمعاناة والقلق تصهرها مع بعض النار المقدسة التي ورثها الشاعر .. تحس انك امام بحر متلاطم وكما تشعر بالاعجاب الشديد والخوف الشديد من البحر المتلاطم كذلك تحس امام الشاعر الكبير .. لكنك بعد قليل تسكن نفسك وتحس بالطمأنينة والارتياح .. وبعد قليل تحس بالسعادة والمرح يملآن اعطافك فالشاعر الكبير بحر متلاطم في معاناته وتدفقه وعطاءاته ، ولكنه جدول رقراق ايضا فيه كل عذوبة السواقي ونعومتها .. الشاعر الكبير فيه كل جبروت آلهة الاولمب وهو منافسها على الارض ولكن .. فيه كل شفافية الاطفال وبساطتهم ورقتهم وعذوبتهم .. الشاعر - كأي فنان حقيقي - مزيج عجيب من الجبروت والشفافية ، من القوة والضعف .. من تدفق الشلال .. وخرير الجداول .. هكذا احسست وانا امام الشاعر العربي الكبير عبد الوهاب البياتي ..

● لنبدأ الحديث عن تطور شعر عبد الوهاب البياتي ؟

● انا احب ان اتحدث عن الشعر العربي عامة اكثر مما احب الحديث عن شعري بالذات وتطوره ، واترك للنقاد ان يتحدثوا عن تطور شعري ويدرسوه ، واذا كان شعري قد تطور ، فان هذا التطور مرتبط بتطور الشعر العربي نفسه .. وشعرنا العربي كما نعلم ـ الجديد منه خاصة، الذي بدأ في نهاية الاربعينات وانا بدأت معه ، تطور وتعمق .. فالى جانب الثورة التي احدثها هذا الشعر في التعبير ، ولا اقول في الشكل لاننا عندما نقول انها كانت ثورة في الشكل فمعنى ذلك انها كانت ثورة عقيمة ، ولهذا فانا اوكد ان الثورة في التعبير تؤدي في النهاية الى ثورة في الشكل والمضمون معا .. واؤكد انه لايمكن احداث ثورة في اللغة او في التعبير مالم تكن هناك حاجة ودوافع فنية وتاريخية .. اي حتمية تاريخية في مجتمعنا العربي ..

فالتجديد اذن جاء استجابة لواقع الامة العربية لاسيما بعد مأساة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وقد تطور هذا الشكل واستطاع ان يرتاد آفاقا جديدة لم يسبق للشعر العربي ان ارتادها في السابق ، واصبحت القصيدة لاتعتمد على وحدة البيت وانما على الوحدة الموضوعية ، كما انها لم تعد تعمد الى تجزئة الموضوعات التي تكتب عنها كما كان يفعل الشعراء القدماء ، فمثلا يقولون، قال الشاعر الفلاني في باب الرثاء او قال متغزلا او قال مفتخرا او مادحا . اصبحت القصيدة ـ كل قصيدة ـ تنطوي على العالم الاكبر ، على معطيات الحياة المختلفة ، اي ان وحدة الموضوع لاتختار او تقتبس من موضوع محدد ، وانما من جملة تفاعلات الحياة ، وارتباط التجربة الموجودة والانسانية في القصيدة مع الطبيعة نفسها ... فمثلا في الشعر الحديث لايمكن لشاعر ان يكتب قصيدة ويسميها الربيع مثلا او غروب الشمس او الشتاء ـ اي انه يتحدث عن الشتاء مثلا بمعزل عن صخب الحياة وحياة الانسان نفسها ، كما ان القصيدة الحديثة اصبح هدفها الانسان هي للانسان ومن اجل الانسان ، ولم تعد الموضوعات التجريدية ، سواء التجريد في الموضوع او في اللغة .. وانما اصبحت تعبر عن صميم القضايا المصيرية للانسان العربي .

نلاحظ ايضـا في الشعر عامـة ان بعض الموضوعات تقتصر على المعالجات النهائية . اي التي تعبر عن المعاني وخلاصة التجربة الشعرية. ولكن القصيدة العربية قد تطورت بحيث انها اصبحت تعبر عن جوهر التجربة لا عن نهاية او خلاصة هذه التجربة .

● ذكرت ان ثورة التجديد هي ثورة في التعبير .. وهذه الثورة شملت وحدة القصيدة وكان من معطياتها انها تعبر عن تجربة وجودية انسانية، والشعر والشاعر نتاج انساني لمجتمع ولبيئة معينة ولظروف معينة ،ولكن الشاعر يجب ان يكون في الطليعة ، ويجب ان يسبق الاخرين برؤاه .. وهناك علاقة جدلية بين الشعر والحياة .. فالشاعر يعبر عنها ويتأثر بها ولكنه ايضا يؤثر بها .. هل استطاع الشعر العربي الحديث ان يحقق هذا التوازن ؟

● اعتقد انه استطاع بامكاناته الفنيـة والآفاق التي ارتادهـا .. ولـم يستطع من جهة اخرى .. والذنب ليس ذنبه ، انما ذنب تجزئة الوطـن العربي وتمزقه الذي ادى الى تجزئة في الثقافة .. وهناك الآن بين فنون الادب العربي .. الرواية والقصة والشعر ايضا ، الذي يعتبر من اهم الفنون الادبية ، هنـاك بون شاسع بـين التطور الادبي . لان التطور الادبي يستند الى التراث ، سواء منـه المحلي أو القومي او الانساني ، فالتواصل الذي تـم في ادبنـا العربي والذي هـو قريب مـن تطور المجتمع العربي ولكنه سـار مسارا مختلفا عن هذا التطور ، لان هـذا التطور كان عرضة للتشققات والتمزقات ، اقصد التطـور الاجتماعـي والاقتصادي والسياسي ، نظرا للتجزئة السياسية القائمة في وطننـا العربي ، بينمـا الثقافـة العربيـة تمتلـك الوحدة الكاملة .. اي ان مانراه في الواقع السياسي والاجتماعي من تجزئة لايمكن ان ينعكس على الفن ايضا ـ ولهذا فان تطور الشعر والفنون الادبية الاخرى قد سبق تطور المجتمع العربي الى هذا الحد او ذاك ـ ولان التطور الذي تباطىء نتيجة التجزئة ، التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي عامة، لم يسر المسار العلمي ، اي لم يكن له برنامج علمي مخطط ، بينما التطور

في الفن والادب والشعر بخاصة ، يتم وفق قوانين علمية مرتبطة بالابداع الكامن وراء هذه الاعمال الادبية .. وكشيء طبيعي ان الشعر العربي ملتصق بالانسان .. وكما قلت منذ قليل ، فان الشعر العربي يتجه للانسان ومن اجل الانسان .. اي ان موضوع هذا الشعر هو الانسان ويكتب من اجله ، ولكن هناك قضية مهمة تبقى معروضة للمناقشة : اننا يجب ان نفرق بين الابداع والنظم ، هناك نوع من النظم ، سواء استخدم الشاعر الاشكال القديمة او الحديثة ، اي ان الناس لايعانون تجارب وانما يحاولون ان يؤلفوا نوعا من المعادلات الكلامية والالفاظ ، وهذه قد لاتكون لها علاقة ، بتطور الشعر العربي نفسه ولا بتطور الواقع الاجتماعي او الاقتصادي او الثقافي بعامة . لهذا فانه الشعر الاصيل الذي يعتمد على التجربة الانسانية هو قريب من هذا التطور تماما ويلتحم بقضايا الناس والمجتمع ويكون في طليعتها ـ .

● مرت امتنا العربية بمراحل خطيرة في حياتها الحديثة ومنعطفات حادة، ماذا كان دور الشاعر العربي في التفاعل وتصوير هذه الاحداث بصدق ، وتوجيه الجماهير احيانا ، وهل كان له دور طليعي ؟

● استطيع ان اوجز فاقول ان الكتابة امل .. الكتابة مقاومة للشر ، الشعر امل وكتابة من اجل الحياة ولهذا فان الشعر العربي والقصة والرواية تعبير عن ولادة الامة ، وانا اعتقد ان الهزائم التي منيت بها الامة العربية طبيعية ، لانه لايمكن لاي امة ان تولد من جديد وتعود موحدة لكي تقضي على التجزئة وعلى الاستعمار الا عن طريق المعاناة والالم ، والكتابة الادبية والشعر قام بدور كبير سواء بشكل مباشر او غير مباشر ، وانا اعتقد ان الابداع نفسه والعملية الابداعية نفسها مهما كان لونها بشير من بشائر ولادة هذه الامة .

● تطرقت في حديثك الى التراث .. وقلت ان الابداع الشعري والفني بعامة ينطلق من التراث سواء منه المحلي او القومي او الانساني . يتهم الشعر العربي الحديث بانه انفصل عن تراثنا العربي الشعري بينما

التصق اكثر بالتراث الانساني ، ويتهم بانه يتكيء على الاداب الاجنبية والشعر العالمي ، بينما يبدو كان هناك هوة تزداد عمقا بينه وبين التراث الشعري العربي الذي يمتد عبر مئات السنين .. وكانه يقطع كل يوم جذرا من جذوره ..

● قبل ان اجيب .. اود ان اقول ان التراث لامعنى له اذا لم يكن اصالة ، بعد ذلك اعتقد ان الذين يقلدون انفسهم او الذين يقلدون التراث هم اعداء التراث ، لان التراث حياة وتواصل وولادة من جديد — واعتقد ان التراث لايعني الشكل انما يعني المضمون ، القومي والانساني ، ولهذا فان اعطاء الحياة الحقيقية لتراثنا العربي القديم ، تتم عن طريق التجديد في الاداب العربية ومنها الشعر ، فالشكل في الرواية او في القصة او في الشعر ليس شكلا قوميا ، الشكل لا ينتمي الى القومية أو الى التراث ، ولكني اعتقد ان المضمون الحقيقي هو الذي يعبر عن التراث وعن أصالة الامة وعن قومية الاتجاه في الادب — لهذا اعتقد أن التقوقع والتخلف والتقليد لايعني التراث ، وبالعكس ان التقوقع والتقليد موقف معاد للتراث ، لان السلفية بمعناها الرجعي موقف معاد للتراث ، لان التراث حياة وديمومة والتراث الحي ، اي الماضي الحي ، هو الماضي الذي يستطيع أن يستمر في الانسان من الماضي الى الحاضر فالمستقبل ، وعملية التجديد في الاشكال الادبية او التعبيرية عملية واردة في كل آداب العالم ومنها الادب العربي ، اما هذه الكلمات فانا أعتقد أن الرجعية الادبية التي تختفي وراءها رجعية سياسية تحاول ان تثير مثل هذه الزوابع ولكنها زوابع في فنجان كما يقولون ،لانني أعتقد أن الاعمال الابداعية الادبية في الادب العربي من قصة ورواية وشعر ، استطاعت أن تشق طريقها ، وان تعبر عن المضمون القومي والانساني لمسيرة الانسان العربي الذي يصنع مستقبله .

□ الشاعر يحاول دائما ان يحقق معادلة صعبة — هي أن يعبر عن ذاته وهمومه الفردية وفي الوقت نفسه يعبر عما يحيط به وعما يحس به وعما يتفاعل معه من مشكلات الحياة .. في كل لايتجزأ .. هل استطاع الشعر العربي الحديث ان يحقق هذه المعادلة ؟ واود لو نتطرق الى شعر البياتي .. هل استطاع البياتي أن يحقق هذه المعادلة ؟

● لايوجد اتجاه ذاتي على الاطلاق لان الانسان نتاج مجتمعـــه ، والانسان تؤثر فيه العوامل المادية والروحية في مجتمعه وهو يؤثر فيها ، ولهذا حتى الاتجاهات التي نسميها اتجاهات ذاتية ، ليست اتجاهات ذاتية ـ انما هي جوهرية لان جوهر الذات هو جوهر المجموع ، والجزء هو جزء من كل ، ولهذا فان الفنان يعمد للتعبير عن الكل من خلال الجزء ومن ثم ليست هناك ذاتية حتى في القصائد التي يكتبها بعض الشعراء وهـم يتغزلون بحبيباتهم او يعبرون عـن محنتهم الذاتية ، لان المحنـة الذاتية ليست محنة انسان وحده وانما هي محنة كل انسان .

اعتقد انه بالنسبة لشعري هناك اجابة من خلال استجابة القـراء العرب لاشعاري في انني لا اعبر عن تجاربي الذاتية بمعزل عـن تجربة المجتمع العربي . ولاغناء ثقافة اي مجتمع لايمكن لشاعر أن يعبر بشكل كلي ، عن تجربة الامة من خلال المعطيات الكلية لانه حينئذ تتحول الكتابة الى نوع من الدوران حول الذات او حول النفس ، اي انه للتعبير عن الكل علينا ان نبدا بالجزء ـ والجزء .. الشاعر نموذج او شريحة من شرائح المجتمع المتقدمة التي تملك القدرات الابداعية التي تستطيع ان تعبر لاعن محنتها او تجربتها فقط انما عن تجربة الاخرين .

بالنسبة لشعري .. منذ بداية كتابتي الشعر ـ التصقت بقضايا الذات وبقضايا العام ، اي ان هناك مزجا كاملا بين ماهو خاص وما هــو عام وبين ماهو ذاتي وبين ماهو موضوعي ، لانني اعتقد ان الفصـــل بين الخاص والعام وبين الذات والموضوع لايمكن على الاطلاق . لانه كيف يمكننا ان نتكلم عن الذات بمعزل عن المجموع ، لان الذات عندما نتكلم عنها بمعزل عن المجموع ، أو نتكلم عن الخاص بمعزل عن العام ، نكون قد بترنا هذه الذات أو هذا الخاص عن الموضوع أو العام وعند ذلك تموت هذه الذات وهذا الخاص ، ولاتبقى له قيمة .

□ ولكن هناك شعرا يشعر المرء وهـو يقراه انه لايتحـدث عن اي نموذج انساني يمكن تعميمه ، صحيح اننا ننطلق من الجزء الى الكل ، وأن الشاعر عندما يعبر عن همومه الذاتية والفردية يعبر ايضا عن هموم وذات الآخرين .. ويجب ان يرى القارىء نفسه في هذه الهموم .

● يمكن ان ارجع الى مقولة الابداع وعدم الابداع نفسها .. الاديب المبدع الحقيقي يستطيع ان يرتفع عن الذات وهو يكتب عن الذات .. ويستطيع ان يرتفع عـن الخاص وهو يكتب عن الخاص .. لانه يعطي النموذج كما تقول ، ان الادباء غير المبدعين فانهم هم الذين يوقعوننا في هذا الإشكال .. ونبدا بالمقارنة بين الخاص والعام ، بين ما هو ذاتي وموضوعي ، ولكن لدى الادباء الذين ابدعوا خلال مسيرة التاريخ لا يمكن الفصل بـين الذات والخاص مـن جهة وبـين العام والموضوع مـن جهة ثانية ، عندمـا نقرا للشعراء العظام .. عندمـا نقرا لشكسبير ، او لعمر ابي ربيعة ، او لطرفة ، لا استطيع ان اضع فواصل دقيقة بين عالم الشاعر الخاص والعالم الذي يضطرب حوله .. حتى عندمـا يتحدث عن اكثر الاشياء تفردا وخصوصية .. لهذا اعتقد اننا يجب ان ناخذ المبدع الحقيقي لا ان ناخذ النموذج الآخر ـ عندما ناخذ هذا النموذج نقع في اشكالات ..وأعتقد ان كثيرا من القضايا التي يدور حولها النقاش، تدور حول هذه المشكلة ، ولكننا بدلا من ان نواجهها نلجأ الى المقارنات ـ مثال ذلك ، وابتعد قليلاً عن الموضوع لكي اعود اليه .. كثير من النقاد الذين يطرحون الشكل القديم والشكل الجديد يتناسون قضية خطيرة ومهمة ، هي قضية الابداع ـ هناك مئات الشعراء الذين يكتبون بالشكل القديم ولكنهم غير مبدعين على الاطلاق . وكذلك مئات من الشعراء الذين يكتبون بالشكل الحديث ، لا علاقة لهم بالابداع ، ولهذا هل يمكن ان نجرد الاشكال ونقارن بين شكل قديم وشكل جديد بمعزل عن عمليـة الابداع ؟ الجواب .. لا .. اذن لا يمكن المقارنة بين الاشكال وتفضيل بعضها على الآخر من خلال التجريد ، وانما يجب ان نعود الى التاريخ الادبي ـ فنقارن بين هذا الشاعر أو ذاك ، ونرى من منهما اكثر موهبة ، من منهما اكثر اصالة .. من منهما أكثر قدرة على التحكم بادواته الفنيةـ الاصالة والابداع هي المقياس الوحيد وليست الاشكال والمقارنات والذات والموضوع الخاص والعام .. لاننا اذا دخلنا في مثل هذه المتاهات لن نصل الى نتيجة .. ولدى جميع الادباء الذين ابدعوا خلال التاريخ وصنعوا تاريخ اممهم الشعري والادبي ، لا يمكن ان نميز بين ما هو ذاتي وموضوعي

وخاص وعام ، المتنبي مثلا .. هل يمكننا ان نميز في شعره بين القضايا الذاتية والموضوعية ، بين القضايا الخاصة والعامة ؟. والسؤال ينطبق على المعري ايضا ــ وعلى كثير من الشعراء العظماء ــ والجواب دائما بالنفي ، ولكن هنــاك شــعراء صــغار وأقزام في التاريـخ الادبـي ، في كـل العصور ، نجد الثنائية والتناقض في اعمالهم الادبية ، ولهذا فنحن نطرح هذه النماذج جانبا وناخذ النماذج الجيدة ، وانا اعتقد اننا لكي ندرس العمل الادبي لابد ان نعود الى مثل هــذه التقسيمات لتأكيد الوحدة بين ما هو خاص وعام وبين ما هو ذاتي وموضوعي ، كل تجربة انسانية لابد ان تكون خاصة وعامة ــ كما اننا نقول بأن الانسان مكون من جسد وروح ــ ولا يمكن الحديث عن احدهما بمعزل عن الآخر ، كذلك الامر بالنسبة للاعمال الادبية ــ هذه تقسيمات يضعها النقاد لتسهيل الدراسة. اننا عندما نقف امام زرقة البحر وامام روعة هذه الزرقة ، لكي ندرس البحر لابد ان نتناول اجزاءه ، والبحر لا ينقسم على نفسه ، كذلك الشاعر الحقيقي ، او الاعمال الشعرية الحقيقية لا تنقسم على نفسها ، ولكن عندما نريد ان ندرسها لابد ان نقوم بعملية تفكيك ، وهذه العملية لا يقوم بها المبدع وانما هي من وظيفة الناقد . بالنسبة للقصة القصيرة مثلا ــ فعندما اقرأ قصة قصيرة جيدة أعجب بها ككل ولا أحاول ان افككها ، لانها تفقد روعتها ، ولكن الناقد عندما يقوم بدراستها لابد أن يقوم بهذه العملية ، وهذه طريقة مشروعة لان النقد الادبي لا يقوم على ان يقول هذا عمل جيد ورائع ويكتفي بذلك . لابد من التوغل في اعماق او باطن العمل الادبي ودراسة أجزائه .

□ تطفو الآن على سطح الحياة الادبية والشعرية اسماء شعرية كثيرة ، وكثير منها ينطفىء ويختفي بعد فترة وجيزة . ولعل سبب هذا الامر هو إفراد الصفحات في الصحف والمجلات للنتاج الادبي والشعري منه بخاصة ، وكثرة دور النشر ، وكثيرا ما يحمل رواد الشعر العربي الحديث ــ وانت منهم ــ وزر هذا التراكم ..

● انا اشكرك لان ما طرحته أؤيده واعود اليه دائما .. انا اقول

ان هناك طوفانا من التسلط الادبي على الصفحات الادبية في الصحف والمجلات ، وهذه مرتبطة بتطور المجتمع العربي . انا اعتقد أن البطالة وانتشارها بين الشباب ، تجعل كثيرا منهم يتسكعون على ارصفة الصحف والمجلات الادبية ، وأن بعض القائمين على كثير من الصفحات الادبية في وطننا العربي ، ليسوا بأدباء وانما هم مجرد صحفيين لا أكثر ، ولهذا فهم يملؤون هذه الصفحات بالغث والثمين وما اقل الثمين وما أكثر الغث .. هذه فعلا مشكلة خطيرة باتت تهدد الحياة الادبية وحتى تهدد الاعمال الابداعية ، اصبحت الاعمال الابداعية نادرة وضائعة في هذا الخضم من الهراء الذي نجده في كثير من الصفحات الادبية يوميا . وأنا اعتقد أن علاجه يحتاج الى بحث طويل ، يتناول كثيرا من القضايا الحساسة في حياتنا الثقافية وأنا أعد بأنني ساعود الى هذا الموضوع في مناسبة اخرى لاتحدث عنه بشيء من التفصيل لان هذا الطوفان من الغثاثة بات فعلا يهدد الحياة الادبية .

□ في الشعر العربي الحديث او بثورته الجديدة ، بدأ الاعتماد على الرمز او على الاسطورة لتصوير الموضوع الذي يتحدث عنه الشاعر لتقريبه او لابرازه ، او لتصويره تصويرا ادق واشمل واحيانا للهروب من الرقابة . لكن هذا الاتجاه أخذ منحى مرضيا فكأنما اصبح الرمز غاية وليس وسيلة لابراز فكرة .. فاصبح الآن كأنما المقصود منه اخفاء الفكرة والتعمية عليها ــ صار الانسان يقرأ القصيدة فيجدها مليئة بالغموض وتصل الى درجة الطلاسم .

● انا اقول لك ببساطة لماذا ظهرت مثل هذه الظاهرة في الشعر ، بالنسبة للرواد أو الذين كانوا أول من كتبوا الشعر العربي بشكله الجديد، ظهرت الرموز والشخصيات التاريخية وغيرها بشكل طبيعي وولدت في اشعارهم لانها تعتبر جزءا لا يتجزأ من ثورة الشعر العربي الحديث ، ونمت هذه الرموز ايضا بشكل طبيعي في اشعارهم . وجاءت بعد هؤلاء اجيال نظرت الى هؤلاء الرواد باكبار ، وظنوا أن عظمتهم في احتشاد الرموز والاساطير في قصائدهم ــ ولكن فاتهم ان سبب النجاح هو الابداع

والموهبة وليس مجرد الرمز ، ليس بالرمز وحده تحيـا القصيدة كما يقولون ، وليس بهذه الاشياء على الاطلاق ـ لانني أعتقد ان القصيدة قد تكون عارية من الرموز ولكن قصيدة صادقة عظيمة هي افضل من قصيدة متخمة بالرموز والاساطير ولكنها قصيدة رديئة ـ فاذن ليس الرمز مقياس نجاح القصيدة . مع الاسف فان بعض الاجيال الجديدة ينظرون الى اعمال الذين سبقوهم سواء في الشعر العربي او الشعر العالمي ويحاولون أن يقلدوا دون ان تولد هذه الادوات الفنية ولادة طبيعية في قصائدهم ، لانهم يستعجلون الشهرة ، يستعجلون النضج ... انا اعتقد ان الشاعر اول ما يبدأ يكتب شعراً عاطفيا أو وجدانيا او رومانسيا ، ثم يكتشف فجأة أن هذا الاتجاه لم يعد صالحا للتعبير عن مكنونات نفسه ، فيتطور ببطء وينضج الى ان يصل الى مراحل متقدمة فنيا ـ بعض الشعراء الشبان الذين ظهروا في الستينات والسبعينات يستعجلون الشـهرة والنضج .. قبل ان ينضجوا ويتمرسوا بادواتهم الطبيعية ويتطوروا تطورا طبيعيا يحاولون أن يقلدوا آخر ما وصل اليه كبار الشعراء .. او الذين سبقوهم في الادب القومي او الادب العالمي ، وهذه هي العلة في أننا الآن عندما نقرأ قصيدة لبعض الشعراء الشباب نجدها مكتظة بالرموز ولكن هذه الرموز مستعارة من قصائد الآخرين وليست مولودة من القصيدة نفسها ومن طبيعة التجربة التي تعبر عنها القصيدة ، الرمز يجب ان يولد مع ولادة القصيدة ويجب أن يكون سندا لها وليس طابعا او ورقة ملصقة على القصيدة ومستعارة من قصيدة اخرى لشاعر آخر ـ وهكذا فأننا نجد الآن كثيرا من القصائد ، أنا شخصيا عندما أقرأها لا أقول لا افهمها ولكني لا أشعر بها كقصائد . اشعر بانها عبارة عن « خردة » او انقاض او قطع ممزقة من الورق والحروف مجموعة الواحدة الى الاخرى ، وهذا الحكم طبعا لا ينسحب على جميع النتاجات ، ولكن على نتاجات كثيرة .

■ هناك اتهام لثورة الشعر العربي الحديثة بأنها تباطأت مسيرتها جدا .. وحتى جيل الرواد لا ينجون من هذا الاتهام .. بأنهم لا يقدمون جديدا .. بينما الاجيال اللاحقة لم يبرز حتى الآن منها من يمكن أن يقف في الصف التالي مباشرة بعد جيل الرواد ـ كما فقدنا السياب وكان خسارة للشعر العربي ـ يمكن أن يحل محل جيل الرواد ..

● انا أعتقد اننا نتصور ان التجديد يمكن ان يتم في كل يوم وفي كل سنة وفي كل شهر .. التجديد الذي تم ويتم في الادا بالعالمية يتم كل خمسمائة سنة نتيجة احتياج معين .. انا لا ادري لماذا نفصل احيانا بين المجتمع العربي وبين تجربة الشعر واحيانا نريد أن تلتقي حركة الشعر بالمجتمع العربي ، نحن نتساءل اولا اين هي الحياة التي يعيشها الشاعر العربي ؟ انا اتصور أن انتكاسة الشعر العربي المزعومة غير واردة وغير صحيحة ـ ان ننظر الى هذه الكثرة من الشعراء الذين يكتبون وهم ليسوا بشعراء .. اعتقد ان الشعراء الاصلاء الحقيقيين ليسوا من الكثرة بشيء في كل تاريخ الامم ـ في تاريخ الشعر العربي مثلا عندما نعود الى الجاهلية .. كان هناك مئات الشعراء ، ولكننا لا نتذكر الا عددا محدودا منهم .. وكذلك بالنسبة لصدر الاسلام والعصر الاموي والعباسي وهكذا .. وانا اعتقد ان المرحلة التاريخية التي نعيشها الآن ، مرحلة التجديد . منذ اواخر الاربعينات حتى الآن هناك شعراء سواء من الرواد أو غيرهم ، استطاعوا ان يواصلوا مسيرة الشعر العربي وان يطوروه تطويرا حقيقيا بعيدا عن الاحكام سواء منها الاحكام المتحمسة او السلبية .. انا اقرأ باستمرار من خلال دواوين الشعر التي تصدر من خلال المجلات ، واجد فيما اقرأ كثيرا من الابداع الذي نراه في كل الاقطار العربية ، ولكن نحن لا أدري لماذا لانزال ننظر الى الشعر ككم وليس كنوع ... اعتقد ان قصيدة واحدة تضيء عصرا بكامله . وليس المهم الكثرة .. انا أعتقد أنه حتى هذه السنة احرز انتصارات كثيرة ، ولكن حركة النقد لم تعد تواكب حركة الشعر والانتصارات التي حققها الشعر .. ليس عندنا نقاد يمتلكون الامكانيات العلمية ، ويستطيعون أن يضيئوا هذه الانجازات ويقدموها للقراء .. أستطيع ان أقول ان النقد العلمي الحقيقي اختفى وحل مكانه النقد الصحفي .. وفي خلال زحمة الاحداث في وطننا العربي اصبح القارىء نفسه لا يدري ماذا يتابع .. هل يتابع الشعر ام القصة ام الروايه ؟ ام يتابع الاحداث السياسية المتلاحقة ؟ طبيعة القارىء اختلفت وهكذا .. أعتقد أن الابداع الادبي مستمر في جميع الفنون الادبية واستطيع ان اضرب مئات الامثلة لقصائد ودواوين قرأتها شخصيا في السنوات الاخيرة .

□ طرحت مشكلة خطيرة هي تخلف النقد عن الشعر العربي ، وهذه مشكلة قائمة في كل فنون الادب ، ليس في الشعر فقط وانما في القصة والرواية والمسرح ايضا ـ وغالبا ما يكون هناك بون شاسع بين العمل الابداعي والنقد . فيلهث النقد وراء العمل الابداعي بدلا من ان يكون مواكبا له دائما . وقلت ان هناك ضعفا في النقد او عدم متابعة وان النقد صار صحفيا اكثر منه نقدا موضوعيا علميا متخصصا . قائما على اسس صحيحة ـ فاذا كانت هذه هي العلاقة بين الشاعر والناقد : مارايك بالعلاقة الآن بين الشاعر والمتلقي ، وكثيرون يتساءلون الآن : لمن يكتب هؤلاء الشعراء ؟ . .

● نعود الى الشعراء المبدعين وغير المبدعين . . هناك مئات لا يكتبون حتى لانفسهم . لقد قررنا هذا واكدناه منذ بداية هذا الحديث . . ولكن شاعرا مثل نزار قباني يقرأ شعره مئات الالاف من القراء في الوطن العربي . . وانا شخصيا لا اضعه في طليعة الشعر العربي المعاصر . . هو شاعر يكتب وجيد ، ولي فيه راي خاص . . ولكني اعتقد ان شاعرا مثل نزار قباني له مئات الآلاف من القراء ، كيف نسأل لمن يكتب الشاعر . انا شخصيا،لو عدنا الى مايطبع من دواويني او مايكتب عن شعري من دراسات وما شابه . . أستطيع أن أحصي أو أن أقول ان عدد قرائي في الوطن العربي قد يزيد عن ربع المليون قارىء تقريبا ، وهذه قضية مؤكدة من خلال عدد النسخ التي طبعت ـ واذا عدنا الى نسبة الاميين ونسبة المتعلمين ، والى نسبة الامية بين المتعلمين ، لوجدنا ان عدد قراء الشعر في الوطن العربي اكثر من عدد القراء في دولة الولايات المتحدة مثلا . . اليوت مثلا ذكر في احدى مقالاته انه لا يطبع من ديوانه اكثر من الفي نسخة ، وهذه النسخ لا تباع في شهر او في سنة ولكنها تبقى اربعة أعوام او خمسة حتى تنفد ، وفي المقابل آخر ديوان لي ((قمر شيراز)) الذي طبعته وزارة الثقافة والفنون في العراق طبع منه عشرة آلاف نسخة ونفدت في العراق فقط . . وأغلب ما كتبت طبع اربع مرات أو خمس . . فلو فرضنا انه طبع من كل كتاب اربعون أو خمسون الف نسخة وهي تبلغ العشرين كتابا ، لوجدنا ان الرقم يصبح كبيرا . وكذلك الامر بالنسبة للشعراء الآخرين . . فقد طبع

من دواوين محمود درويش مثلا مئات الآلاف من النسخ .. فنحن في هذا القحط وفي هذا اللجوء المليء بالاميين والمتعلمين الاميين يسجل عدد قراء الشعر في وطننا نسبة عالية ، وربما أعلى نسبة في العالم .

عندما نعود الى اصدار احكام يجب أن نعود الى الاحصائيات ، فقد قرأت منذ فترة أن الوطن العربي ككل يأتي سادس دولة في العالم من حيث الترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية .

اريد ان أقول اننا حاضرا ومستقبلا يجب ان نتفاءل ، والتفاؤل يجب ان يقوم على الواقع العلمي الموضوعي .. وليس هذا التفاؤل الساذج لانه نوع من خداع النفس ، يجب ان نرى الواقع الثقافي والادبي كما هو ، ولا نكون قساة كما أننا يجب الا نكون محابين ايضا .. لان هناك علائم طيبة وحقيقية ايضا ..

انا اعتقد ان ادبنا وصل الى شيء من العالمية ، لان العالمية لا تقاس بالترجمة ، هناك آداب قومية كثيرة لم تترجم الى اللغات الاخرى ومع ذلك فانها عالمية ، مقياس العالمية هو الاصالة والابداع والتفرد .. وما الترجمة الى اللغات الاخرى الا تأكيد لهذه الاصالة والابداع والتفرد في العمل الادبي . ادبنا العربي في الرواية او القصة القصيرة او الشعر وصل الى مراحل لم يصلها الادب حتى في بعض البلدان المتقدمة ، ولكن اعود فأقول ان هذا التفرد والاصالة . يجب الا يقاس بالكم لاننا عندما ننظر الى الخارطة الشعرية والى الصحف والمجلات ، نصاب باليأس لكثرة ما ينشر من غث ، ولكننا يجب ان نبحث عن الجوهر الاصيل النفيس الرائع النبيل ومن خلاله نحكم على الاشياء ..

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

نصوص مختـــارة

دراســات نقدية

تأليف : ف. غ. بينسكي	ترجمة : يوسف حلاق

■ ■ ■

سوسيولوجيا السياسة

علم اجتماع

تأليف : موريس دبفرجه	ترجمة : هشام دياب

■ ■ ■

لغــة الشــعر

دراسة في الشعر العربي الحديث

تأليف : احمد يوسف داوود

لؤي الكيالي

د . سلمان قطايه

تعرفت على لؤي حين عودته من ايطاليا بعد ان انهى دراسته فيها ، وكانت البلاد ، في ذلك الحين ، ورغم كل ماكانت تعانيه ، تعيش فترة نشوة فنية ، فقد كانت الفنون عامة ، والتشكيلية بشكل خاص قبلها تعيش في ظلام الاهمال والقهر .

ورغم تشجيع وزارة التربية بانشاء معرض سنوي تمنح فيه الجوائز المادية للفائزين المبرزين ، ورغم الجهود التي كانت تبذلها الجمعية السورية للفنون ، فقد كانت الحياة الفنية التشكيلية تعيش فترة تعيسة .

ولابد وقد تعرضنا الى هذه الفترة من ان نذكر بالخير الفنان ناظم الجعفري الذي كان قد حول مرسمه الىمعرض دائم يفتحهللناس ليزوروه ، وليطلعوا على آخر انتاجه وليتثقفوا . وكان يتحمل من الكلمات اللاذعة، والتصرفات الفظة من الجمهور ما لايطاق لولا ايمانه العميق بفنه .

كذلك جهود الفنان نصير شورى اذ كان مرسمه (في ساحة المدفع) مجمعا للفنانين والمثقفين وطلاب الفن يرتادونه وينهلون من منابعه .

وجهود الفنان جاك وردة في فن النحت كانت ايضا مماثلة . وجاء وقت حاول فيه الفنانون توحيد جهودهم ؛ فأسسوا جمعية جعلوا من مقرها مدرسة لمن يود تعلم الفن . وساهم فيها كثير من الفنانين ومن بينهم الدكتور عفيف بهنسي ، والاستاذ محمود حماد .

اما الاخوان ادهم ونعيم اسماعيل (رحمهما الله) فكانا يقطنان دارا عربية صغيرة جانب الشيخ محي الدين بدمشق . كنا نرقى درج سلمها الضيق الطويل لنصل الى غرفة متواضعة بسيطة تشع فيها انوار لوحات أدهم . وكانا يلقانا فيها بابتسامته العذبة الوديعة ، والى جانبه نعيم .

كان ادهم مثقفا الى حد بعيد ، ولديه مكتبة غنية وذاخرة بالكتب الفنية النادرة بالفرنسية والايطالية والعربية .

كانت هذه الدار ايضا مقصدا لعشاق الفن وهواته .

ثم تأسست وزارة الثقافة . وانشئت فيها مديرية خاصة بالفنون التشكيلية فكانت من احد العوامل الهامة في تشجيع الفن والفنانين .

ثم حدثت ظاهرة جديدة لم يكن القطر يعهدها من قبل : لقد افتتحت ؛ ولاول مرة ، صالة عرض (غاليري) خاصة . اسسها الاخوان دعدوش (محمود ومحمد دعدوش) .

كان الفنان محمود دعدوش عائدا لتوه من روما . وككل الشباب ، كان يحمل في نفسه طموحا ورغبة في تحقيق احلام وآمال .. وهكذا فعل وكانت : « صالة الفن الحديث » . التي استطاعت بفضل نشاط القائمين عليها ومساعدة اصدقائها ان تقوم بأعباء فنية كبيرة . فكانت تقام فيها المعارض ، ويلي كل معرض مناقشة فنية .

وانشىء التلفزيون ، ونظمت الصحافة . وانطلقت الاقلام تكتب وتناقش ، وتنخرط احيانا في مناقشات عنيفة . ثم أسست كلية الفنون الجميلة .

وافتتحت مراكز الفنون التشكيلية . وصدرت بضعة كتب عن الفنون

التشكيلية . وتوافد الفنانون العائدون من اوربة الواحد تلو الاخر : فاتح مدرس ، محمود حماد ، برهان كركوتلي ، ممدوح قشلان ، رولان خوري ، ادهم اسماعيل ... وجاء لؤي الكيالي .

كل شيء كان معدا تقريبا لاستقباله . فجاء وخاض المعركة كاحسن فارس . واقام اول معرض له في صالة الفن الحديث . وكان لي شرف تقديمه بكتابة مقدمة لدليل المعرض ، وذلك بعد ان اطلعني على مجمل انتاجه في الرسم (الرصاص ، والفحم ، والحبر) والتصوير الزيتي .

وكان منذ اول معرض ذا اسلوب متكامل متميز استمر في تطويره دون تغييره حتى وفاته وقد اعتمد فيه :

- على الخط ،

- وعلى المساحات اللونية ،

- وعلى الجو الشاعري الحالم المتارجح بين السيريالية والرومانسية .

ومع مضي الايام كان هذا الاسلوب يزداد وضوحا ، الشيء الذي اشرت اليه في مقدمة الدليل ،

وكان باديا وظاهرا تأثر الفنان بفن التصوير على الجدران (الفريسك) ، الذي برع فيه فنانو عصر النهضة الايطالية ، والذي لاتزال آثاره الجميلة باقية في مدن كثيرة امثال فلورانسا وسيين .

كان يحضر ارضية اللوحة بخليطة خاصة ثم يرسم عليها احيانا بالقلم الفحم ، ويدمج معها لمسات رقيقة من الوان حارة بل وصارخة احيانا .

ورسم في تلك الفترة مواضيع كثيرة . ثم تركزت هذه المواضيع حول :

- المناظر الطبيعية .

- الوجـوه .

- الطبيعة الصامتة .

كانت المناظر الطبيعية تستأثر بخياله وظلت حتى آخر حياته . وخاصة مناظر بلاده ، فقد كان يحبها حبا جما . ويتعلق بشعبها وارضها تعلق الطفل باذيال امـه .

فكان كلما ضاقت به السبـل واشتاق الى حيـاة التشرد في العواصم الاوروبية يحزم امتعته ، ويبيع القليل مما يملك ويتوجه شطر أوروبا .

ولكن ما ان تمضي فترة وجيزة حتى يشده الحنين والشوق الى بلاده ، فيعود اليها فيبقى ردحا من الزمن ثم يعاود الكرة .

ومن بين المناظر الكثيرة التي رسمها كانت مناظر قرية « معلولا » تستأثر باهتمامه وتشده اليها .

لقد كان يسقط عليها الكثير من خبايا نفسـه الكبيرة الحساسة . صحيح انك ترى فيها من الظاهر صخورا ، وبيوتا ، ومغارات ، ولكنك تحس كانك امام كائنات بشرية . فالصخور تتنفس ، والبيوت تتحرك ، والمغارات كانها افواه مفتوحة لا اسنان لها تصرخ بالجوع والالم والحرمان .

كانت هذه هي الاغنية الحزينة التي سايرت كل مراحل تطوره . وكانت الوجوه الانسانية ، وشخصيات فقراء الناس ، تشده اليها بدافع نفساني وجداني ، اكثر بكثير من الدافع العقلاني .

وجوه تتميز بنظرة لا نهائية ، وحزن هادىء طاغ . لكنه الحزن العميق الذي يحز في القلب كسكين حاد . والملاحظ ان اللوحات كانت تتميز بالوحدة . اعني انها لم تكن تحتوي الا فيما ندر على عدة اشخاص . والغالب ان تحتوي على شخص واحد ، واقف بهدوء وجلال تماثيـل الفراعنة ، وبنظرات آلهة اليونان . جو سيريالي ثقيل ، لا تخفف من حزنه ولوعته سوى تلك الالوان الحارة التي كان يحرص عليها في لوحاته ، والتي ظهرت بوضوح في مرحلته الاخيرة ، فاذا كانت هذه الالوان في البداية ليست سوى لمسات خفيفة لكنها في آخر حياته كانت تحتل مساحات كبيرة منها ، تستمد جذورها من الوان اللوحات الشعبية ، ومن مدارس الفن الحديث المدرسة الوحشية بشكل خاص . لكنها تظـل في خـط الكلاسيكي من حيث الرسم المتقن ، والمنظور والتشريح . ضمن جو غارق في الحزن الهادىء والعميق المؤثر .

كان دوما وابدا يجرنا الى تلك الاجواء البسيطة الغريبة في آن واحد . بسيطة . لاننا كلنا عرفنا صيادي اللاذقية وارواد ، وطرطوس ، وشاهدنا

ماسحي الاحذية وبائعي الكعك واليانصيب . ولكننا لم نر فيهم مارآه لؤي بنظرته الانسانية العميقة ورؤاه الفنية البعيدة . كاللوحة الموجودة في مقر اتحاد الكتاب العرب بحلب . انها بحجم متوسط . واللون الغالب هو الزرقة ويحتل الربع السفلي من اللوحة مخلوق ملتفح برداء بسيط نائم في العراء وراسه على حجر . كلما رايتها شعرت بهزة في الاعماق وذكرتني بأروع لوحات السيرياليين دون الاستعانة بتقنيتهم المفتعلة ، كما ذكرتني بانساننا العربي التعس . وحدة ثقيلة قاتلة . ضمن صحراء نفسية مرعبة كأنها قدت من جليد ، وبساطة اخاذة . انها التعبير الصادق عن هذا الانسان الذي نعيشه كلنا .

والشعور نفسه نجده انما بشكل آخر في اولى لوحاته حين عودته : « المسيح المصلوب » وهي الآن من مقتنيات الدكتور رفيق الصبان . صحيح ان تقنية الفنان في ذلك الحين لم تصل الى نقاء وصفاء لوحته هذه . ولكنها كانت تحمل في طياتها الشعور نفسه ، والانفعال ذاته . جسم رقيق نحيل ، اضلاع بارزة ووجه منكس . وعينان مفتوحتان تحملان النظرة اللانهائية ذاتها ، والحزن العميق نفسه الممزوج بالالم الحاد . والغريب انه اعطى لوجه المسيح ملامح وجهه .

ترى هل كان يستشف من خلال رؤاه مستقبله ؟

هل كان يحس في اعماق لاشعوره بالمأساة التي كانت تنتظره ؟

ربما . فالفنان كآلة تحسس الزلازل ، تشعر بالمصائب قبل ان تقع ، وذلك بفضل تلك الحساسية الخاصة بالفنان والتي تسمح له ان يستشف الزمن بنظراته النفاذة ، ويصل الى أبعد بكثير مما يراه الانسان العادي .

وهكذا وفي عام ١٩٦٥ ، تحسس الفنان وتنبأ بهزيمة حزيران ١٩٦٧ . وكأنما ودون مناسبة صور لوحة : ثم ماذا ؟ » ، وهي تأليف نادر في لوحاته . فقد جمع فيها تسعة اشخاص : طفل واحد في الزاوية اليمنى من اللوحة يحمل حمامة السلام وينظر بغرابة ودهشة . ورجل واحد بين كتلتين من النسوة : رجل تعب خائر حائر منهار .

واللوحة كبيرة الحجم ، قليلة الالوان ، يطغى عليها اللون الاسود والابيض،

وهي ولاشك تمهيد لرسوم معرض « في سبيل القضية » . الخنساء فيها يعولن ويبكين ويندبن ، يبكين : احلاما وارضا ضاعت ، ويندبن اخطاء متراكمة .

وتبقى هذه اللوحة في نظري علامة مهمة جدا في حياة لؤي الفنية . ثم جاءت الصدمة التي تنبأ بها حدس الفنان قبل عامين من حدوثها . فكان تأثيرها اشد ، ووقعها أصعب .

كانت الصدمة من العنف والبشاعة والقبح ، ان هزت الفنان من جذوره ، وجعلته يرسم تلك اللوحات باسلوب تعبيري عنيف لم نعتده منه من قبل ، حتى في اقسى حالات مرضه العصبي .

اختار اللون الاسود والابيض لها ليزداد التعبير قوة ووضوحا . وصور الهول الذي اجتاح نفوس الملايين . انهارت صروح من الآمال والاحلام التي شيدها الشعب العربي لنفسه ، كان قد رفع راسه منتصرا عام ١٩٥٦ ، وراح يمني النفس بالنصر النهائي . ولكن الامور كانت تقدم له تقديما مخالفا تماما للواقع ، وتترس في نفسه اكاذيب وتهاويل بصورة حقائق حتى عندما جاءت الحقيقة ، كان من الصعب تحملها .

صور الفنان لؤي كل ذلك في مجموعة لوحات عرضها ثم مزقها عندما صحا من الصدمة .

لم يكن يريد أن تظل هذه اللوحة لتحمل عار صدمة تلك الهزيمة ، فمزقها ليمزق تلك الذكرى الاليمة ، وليعود الى العمل والامل من جديد .

وتبقى رسوم هذه المرحلة ثورة عنيفة تعبيرية شديدة قاسية ، لم تستطع نفسية الفنان ان تبقى سليمة بعدها .

كان الفنان قبيل تلك الفترة يشعر باضطراب نفساني ، ورغم انه وصل الى قمة الشهرة ، واصبح علما من اعلام الفن في سورية بل في الوطن العربي ، كان يتخاطف الهواة لوحاته . ولا يكاد يفي بتوصياته . واصبح استاذا في كلية الفنون . وحاز جوائز عديدة في مناسبات وطنية واجنبية ، وكتبت عنه الدراسات .

اضطربت نفسيته ، ولم تعد تتحمل الاجواء العامة . ولعل تكوينه النفسي كفنان من ناحية ، وكانسان من ناحية اخرى اعداه للاصابة بالداء النفساني الذي أصابه .

لم تكن طفولة لؤي بالهينة السعيدة . توفيت والدته وهو صغير ، ولم يهتم به والده كثيرا ثم لم يلبث ان توفي هو ايضا . فاحتضنته عمته زمنا طويلا ، وعندما توفيت هذه ، احتضنته اختها .

كانت حياته اذن سلسلة من الصدمات النفسية ، وكان شبح الموت يطوف دوما ، اخذه عمه الدكتور طه الكيالي الى بيروت لعيادة اخصائي كبير ، تعهده هذا بالرعاية والمعالجة اللازمة . وعند انتهائها اقام له في منزله معرضا كبيرا لاقى نجاحا اكبر .

ولم يشأ لؤي ان يظل في بيروت على الرغم من مغرياتها الكثيرة ، والعروض السخية . كان وفيا مخلصا لبلده ، فعاد الى حلب . وأصبح ومع مضي الايام ركنا راسخا وثابتا من اركان الفن فيها . كان يجلس في زاوية من مقهى « القصر » لا يغيرها ، ينظر من خلال الزجاج ، الى الناس يمرون امامه سراعا حينا ومتباطئين حينا آخر . كان بعضهم يلفت انظاره ، فيسجل في ذاكرته صورته . وعندما يعود الى بيته يستعيد الصورة فيرسمها على الورق بخطوط بالرصاص او الفحم ، ويعيد تصحيحها . ومتى أصبحت ملائمة نقلها على القماش وبدأ تلوينها . وبعد ايام تعلق اللوحة على مكان خاص من جدار المقهى ، يتأملها الناس جميعا ، معجبين بها . ولكن سرعان ما تتخاطفها أيدي عشاق الفن وهواته ، فيعيد الكرة وهكذا . ثم راح بعضهم يطلبون منه أن يصور لهم صورا خاصة فكان يكتب اسماءهم على قائمة ، وتزداد القائمة طولا مع الايام وتزداد التوصيات والطلبات ، وهو يتابع عمله كما اعتاد دون سرعة أو تباطؤ .

وكان احيانا يفضل أن يجمع اكبر عدد ممكن من اللوحات ليقيم بها معرضا يتمتع ، خلال عرضه ، عشاق فنه بانتاجه ، قبل ان تذهب اللوحات وبسرعة مدهشة الى بيوتهم .

لقد استطاع لؤي بأسلوبه الذي جمع بين القديم والحديث ، وبصدق احساسه وعاطفته ، ان يخلق أسلوبا هو اسلوب لؤي الكيالي . وربما تجاوب هذا الاسلوب مع ما يطالب به بعض النقاد : فن ملتزم يعجب المتذوق المتخصص ، ويجذب الرجل العادي . ملتزم بمعنى انه يقدم صورة صادقة عن بعض التناقضات في المجتمعات المتخلفة .

لكن هذا لم يعجب بعض المتزمتين من النقاد فراحوا يتهمونه بمسايرة البورجوازية ، وان لوحاته ليست ملتزمة بما فيه الكفاية . وامتلأت الصحف اليومية صيف عام ١٩٧٧ بمقالات عديدة تهاجمه من هذه الزاوية وغيرها .

وكان لهذا الهجوم تاثير سيء على صحته وعلى انتاجه . فعادت فكرة الذهاب الى روما تراوده ... فذهب .. ثم عاد الى حلب ، الى مكانه في المقهى يراقب الناس . كنت عندما امر يوميا امام المقهى ، والحظ وجهه الهادىء وعينيه الفائرتين ، ولحيته الحمراء اشعر بنوع من الاطمئنان : لا يزال الفن في البلد بخير .

كان للؤي تاثير واضح في بقية الفنانين ، فقد كان يقدم لهم النصح ، ويشجعهم بكل ما استطاع ، حتى بالمال . بلغ به الامر ذات مرة امام تحسر احد الفنانين على رغبته في الذهاب الى اوروبا ، ان منحه عدة آلاف من الليرات ليحقق حلمه . وذهب الفنان .

استطاع لؤي ان يحطم الاسطورة القائلة بان لا مكان للفن في بلادنا ، وانه لا يمكن للفنان ان يعيش من انتاجه ، وان المواطنين في بلادنا غير مستعدين لدفع المال في سبيل اقتناء لوحات تزين منازلهم .

لقد فعل ذلك لؤي دون ان يخون رسالته كفنان مبدع وملتزم الى حد ما . ولقد استغرب الكثيرون هذا النجاح وانكروه ، بل كتبوا عن ذلك مقالات عديدة في الصحف ، الشيء الذي كان يثير غيرة وحسد وحفيظة البعض فراحوا يهاجمونه ويتهمونه باسوا الاتهامات .

كان لؤي يتأثر من ذلك ، ولكنه كان يتغاضى عنها ، ويعود بكل ود ومحبة وطيب يستقبلهم ويغدق عليهم ، ويستمر في عمله كما اعتاد .

وذات يوم علمنا ان حريقا شب في منزله الصغير وان رجال الاطفاء هرعوا اليه وجاؤوا به الى مستشفى حلب الجامعي الكبير في حالة صدمة . وهرع الاطباء فعالجوه بما استطاعوا ، فانقذوا حياته من الموت الآتي بالصدمة .

وجعلت ، منذ ان علمت بالامر ، اعوده كل صباح . كان في البداية في حالة يرثى لها ، يئن دون انقطاع ويتأوه ، ولا يكاد يتعرف على من يراه .

ولكن حالته تحسنت ، واصبح في حال شبه طبيعية يتحدث ويأكل ويشرب ويدخن . وبعد فترة نصح باتمام معالجته في الخارج .

فكتبت رسالة الى نقيب الفنانين آنذاك الاستاذ غازي الخالدي ورجوته فيها هو وزملاؤه الاهتمام الجدي بالفنان والعمل على نقله الى خارج البلاد لمعالجته . ثم اتبعت الرسالة ببرقية استعجلتهم فيها .

وتجاوب الاخوة الفنانون . واستطاعوا بمساعيهم الحثيثة ان يحضروا حوامة (هليوكبتر) عسكرية فنقلته الى مستشفى حرستا في دمشق اذ يبدو ان ثمة استعدادا في ذلك المستشفى لمعالجة امثال هذه الحروق الشديدة .

وكنا نسمع من آن الى آخر ان صحته في تحسن وانه أجريت له مداخلة ولكن وذات يوم فوجئنا جميعا بخبر نعيه ، فلم نكد نصدق الامر . ويبدو ان الرقاد الدائم في الفراش ابطأ حركة الدم في جسده فتكونت في عروقه علقات دموية كانت السبب في وفاته .

ويظهر ان قواه النفسية ايضا قد خارت ولم يعد يطيق الحياة .
وهكذا افل نجم من نجوم الفن التشكيلي في بلادنا . وذهب لؤي الى دار الخلود . واصبحت حياته اسطورة لا نزال نذكرها بحسرة وألم .

هل كان سبب وفاته المبكرة : المجتمع ، ام الناس ، ام هو نفسه ؟
كل هذه العوامل ولا شك اشتركت حتى انهت حياته بفاجعة اليمة لا تزال تحز في نفوسنا .

ولكن لنا في انتاجه الفزير والرائع والموزع في متاحف العالم ، عزاء : لان هذا لا يكفي . ففنان بلغ هذا المستوى ، وتلك الشهرة لابد من تخليد ذكراه بأعمال اخرى ، كاطلاق اسمه على شارع، وتأليف كتاب عن حياته، وتسمية أحد مراسم كليه الفنون الجميلة او مدرجاتها في بنائها الجديد ، باسمه .

وخاصة . التعريف ، به بوساطة اقامه معرض جوال في كل انحاء القطر لاعماله على ان تكون مختارة بشكل يعرض مراحل تطور انتاجه من البداية حتى النهاية ، ومن كل انواع الفن التي مارسها . وتكريس قاعة لمنتخب من اعماله في متحف حلب .

اختم كلمتي بالترحم على فقيدنا العزيز وفناننا الكبير ، يعوض الله امته بـه خـيرا .

يصدر قريبا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

من التحدي الى الحوار

الجـزء الثاني

نـادي رومـا

ترجمة : عيسـى عصفور

* * *

اسـاطير يومية

تاليف : رياض الصالح الحسـين

* * *

من الحجر المصقول الى غزو الفضاء

دلال حـاتم

* * *

يصدر قريبا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

أمهات الكتب السياسة

مكيافيلي الى أيامنا

تأليف : جان جاك شوفاليه

ترجمة : جورج صدقني

* * *

خليل الهنداوي

مختارات من الاعمال الكاملة

الجزء الاول

اعداد عمر الدقاق ـ وليد اخلاصي

* * *

نافذة على كوكب الحياة

طالب عمران

تاريخ الادب الفيتنامي

الجزء الاول

القسم الاول

ترجمة : عبد المعين الملوحي

* * *

الحسناء والوحش

وقصص اخرى

ترجمة : مهنا الجهيم

* * *

ديوان الجواهري

الجزء الثاني

محمد مهدي الجواهري